أنجيلو ديل بوكا

على مقربة من المشنقة

محمد فكيني والاستعمار الإيطالي
ملحمة الكفاح المسلح والنضال السياسي



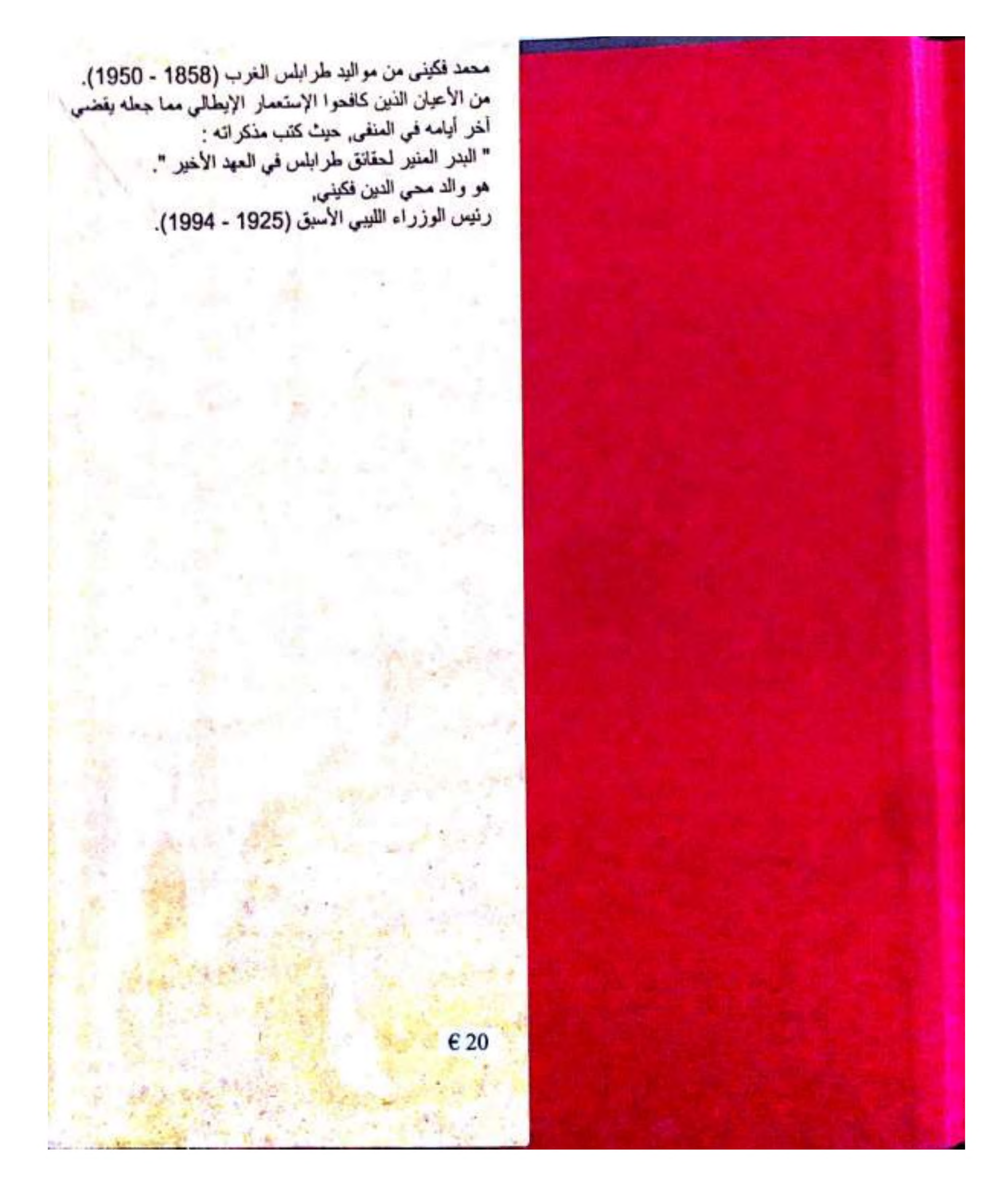
" طلب مني بعض الأصدقاء عدة مرات تدوين أحداث سنوات الإستعمار الإيطالي. وقد قررت القيام بذلك عندما رأيت ما تقترفه يد الإستعمار من أعمال تدمير لبلدي وشعبي. وأنا أتعهد في هذه الرواية بتوضيح تاريخ تلك الحقبة والله شاهد على نزاهة كلماتي وصدقها ".

محمد فكيني

ISBN : 2-978-291-659-006




أنجيلو ديل بوكا من أهم المؤرخين الإيطاليين عن فترة الإستعمار في إفريقيا.
من مواليد نوفارة 1925. كتب دراسات عديدة في هذا المجال, خاصة " تاريخ الإيطاليين في ليبيا " (مجلدين).


محمد فكيني من مواليد طرابلس الغرب (1858 - 1950).
من الأعيان الذين كافحوا الإستعمار الإيطالي مما جعله يقضي
آخر أيامه في المنفى, حيث كتب مذكراته :
" البدر المنير لحقائق طرابلس في العهد الأخير ".
هو والد محي الدين فكيني,
رئيس الوزراء الليبي الأسبق (1925 - 1994).
€ 20

أنجيلو ديل بوكا

على مقربة من المشنقة

محمد فكيني والإستعمار الإيطالي

ملحمة الكفاح المسلح والنضال السياسي

منشورات ميلالي

العنوان الأصلي :

A un passo dalla forca

دار النشر الأصلية :

2007، Milan،Baldini Castoldi Dalai

ISBN : 978-2-916590-04-2

Dépôt légal : juin 2008

طبع في فرنسا

مقدمة

ما كان لهذا الكتاب أن يبصر النور وأن يأخذ طريقه للنشر لو لا إصرار المواطن اللّيبي، المحامي أنور فكيني، خريج جامعة السوربون وصاحب مكتب محاماة في لندن وباريس وطرابلس. فقد اتّصل بي أنور فكيني، عبر المحامي فيليب بريتي المقيم في جنيف، لسؤالي عن مدى استعدادي لإنجاز دراسة تاريخية تتناول حياة جده وجهاده. في لقاء لاحق بتورينو، عهد لي أنور فكيني لتيسير عملي وأبحاثي بنسخة من مذكرات جده، محمد فكيني،[1] إضافة إلى 365 وثيقة، من الرسائل التي بعث بها إلى السلطات التركية والإيطالية (ومن ضمنها رسائل عديدة وجّهت للجنرال رودولفو غراتسياني) وإلى بعض القادة الليبيين، ناهيك عن مجموعة كبيرة من الصور الخاصة بآل فكيني وبالأماكن التي عاش فيها جدّه ومارس فيها أنشطته.

وبصفتي مؤرّخاً لفترة الاستعمار الإيطالي، كنت على علم بالأفعال البارزة للحاج محمّد خليفة فكيني. وقد تحدثت عن ذلك بإسهاب في مؤلفٍ لي من جزئين بعنوان "الإيطاليون في ليبيا"[2]، وكنت أعرف أنّه كان من بين المعارضين الشرسين للاستعمار

---

[1] يتعلق الأمر بمخطوطة عربية مؤلفة من 347 صفحة، محرّرة بنوعين من الحبر : أحدهما حبر أسود لسرد الأحداث والآخر حبر أحمر عند ذكر الآيات القرآنية والأقوال المأثورة من الأدب العربي.

[2] Angelo Del Boca, *Gli italiani in Libia.* Vol. I, *Tripoli bel suol d'amore, 1860-1922*, Laterza, Bari, 1986 ; Vol. II, *Dal fascismo a Gheddafi*, Laterza, Bari, 1988. الكتاب متوفر باللغة العربية وقد نشره مركز الدراسات الليبي سنة 1995، ترجمة محمود على التائب.

الإيطالي في ليبيا. كان زعيماً لقبيلة الرّجبان[3] أثناء السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب ؛ كما تولى منصب قائمقام فسّاطو خلال سنوات الاحتلال الإيطالي الأولى ؛ ثم متصرّف فزّان أثناء فترة الجمهورية الطرابلسية القصيرة.

وسرعان ما وجد محمّد فكيني نفسه في صراع مع الحكومة الإيطالية. وقد رصد الوالي جوفاني أميليو، في سبتمبر 1916، مكافأة مقدارها 10.000 فرنك، لقاء القبض عليه حياً أو ميتاً.[4] لكن مع حلول سنة 1920، حين نكث الإيطاليون بعهودهم، وألغوا القانون الخاص الذي مُنح لليبيين، رفض محمّد فكيني النداءات المتكررة بالخضوع، وتصدّى بصحبة 2500 من رجال المحلة لدخول الإيطاليين إلى منطقة الجبل.

في المواجهات مع البربر، أتباع خليفة بن عسكر، الذين دأبوا على التحالف في أغلب الأوقات مع الإيطاليين، خسر محمّد فكيني، في 13 من سبتمبر 1920 ابنه البكر حسن، الذي كان قد أتم دراسته الثانوية في دمشق قبل أن يلتحق بجامعة تورينو لدراسة الحقوق. وبعد سنتين، في محاولة فكيني اعتراض ومواجهة وحدات غراتسياني المتحرّكة التي تستهدف إعادة احتلال الجبل

---

[3] في الوثائق الرسميّة الإيطالية ورد إسم محمد فكيني تحت تسميات مختلفة. فقد ذكره الجنرال غراتسياني بالحاج محمّد فيفيني؛ وسمّاه الوالي جيوسيبي فولبي فڤيني، كما يظهر اسمه فيكيني والفكيني في أماكن أخرى. وفي وثيقة حرّرها المفتّش فولينو، المقيم في فساطو، بتاريخ 26 نيسان 1915، بمناسبة إقرار محمد فكيني بحيازته لمسدّس أوتوماتيكيّ، وردت المعلومات التالية عن قائد الرجبان : العمر: 65 عاما، الطول 1.66 م، القامة : معتدلة ، لون البشرة : أسمر، لون الشعر: رمادي، العلامات الفارقة : عور في العين اليسرى.

[4] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 1/113. الورقة 4.
انظر أيضا الملحق رقم 15 في أرشيف أنور فكيني الذي يستعيد صفحة "البلاغ الرّسمي بطرابلس الغرب". عدد 12. وقد ورد فيها ما يلي :" تدفع مكافأة بمبلغ 10000 فرنك لكل من ينجح في القبض على أو قتل المدعو الحاج محمد فكيني بن خليفة عبد الله التارديتي الرجباني. طرابلس بتاريخ 11 سبتمبر 1916".

وتسهيل ارجاع القبائل البربرية إليه، حقق محمّد فكيني نصراً مظفراً في آبار الوخيم، لكنه لاقى في الأيام التالية هزيمة ثقيلة على أطراف واحة الجوش وفي مضيق السلامات. في تلك المعارك، سقط ابنه الثاني حسين قتيلاً، ولما يبلغ العشرين من عمره.

بعد أن ارغم على مغادرة الجبل أثناء المواجهات، انسحب محمّد فكيني نحو القبلة، ثم باتجاه الحمادة الحمراء في فزّان. خلال 1930، أجبر على اجتياز الحدود نحو الجزائر، تحت وابل من القنابل لكنه كان يواصل القتال اثناء تراجعه في كل مرة، إثر الهجوم النهائي الذي شنّه الجنرال غراتسياني.

غادر بلده وهو في الثانية والسبعين من عمره فاقداً بصره تقريباً، بعد أن طورد باستمرار طيلة عشر سنوات في أحدى أكثر المناطق الصحراوية القاحلة في العالم، يعاني الجوع من نقص الزاد والمؤونة جرّاء حصار قاس وطويل... لقد حارب مع أنصاره عدواً قوياً متفوقاً عدداً وعدة، منتصراً تارة ومغلوباً تارة أخرى، يسدّد للعدو ضربات موجعة ويتلقي منه ضربات أشدّ قسوة ونكاية.

وكانت أجساد رفاقه ومناصريه تتمزق وتتناثر أشلاء بين ضفاف المتوسط وأقصى حدود ليبيا الجنوبية على مدى ألف وخمسمائة كيلومتر من الجبال الجرداء والهضاب الوعرة والكثبان المجدبة، ولم يغادروا بلدهم إلا بعد أن تقطعت بهم السبل وضيّق العدو عليهم الخناق وشحّ لديهم الزاد والسلاح والذخيرة، فاجتازوا حدود الوطن الصحراوية والدمع يملأ عيونهم والغضب يحتدم في صدورهم.

إتجه محمّد فكيني نحو الحامية الفرنسية في حصن تارات،

تصحبه زوجته عائشة نوير وأربعة من أبنائه الباقين على قيد الحياة ومن تبقى من رجاله المقاتلين الشجعان، وجرّدوا من سلاحهم ليبدوا مسيرة استغرقت زهاء سنتين، هي أشبه بالخروج الموسوي من مصر، في رحلة قاسية مريرة عبر البراري الصحراوية في حمادة تنهارت، وكثبان العرق الشرقي الكبير.

وحين أصبحوا على مستوى مدينة نفطة، انعطفوا نحو تونس، حيث أقام فكيني في توزر والحامّة والمتلوي ودقاش والسقي، ثم تابع طريقه إلي قابس حيث حطّ رحاله وعاش فيها حتى وافاه الأجل في 28 مارس 1950.

كان محمّد فكيني ميسور الحال في وطنه ويملك بعض البيوت وحقول زيتون وبرتقال ورؤوساً من الماشية... ولكنه عند نزوحه لم يكن يملك سوى 16 جملاً وحلي زوجته عائشة، أي ما كان كافياً لسد رمقه فلا يموت جوعاً. ومع هذا كله استطاع أحد أبنائه محيي الدين أن يتابع دراسته بتفوق وأن يتخرج من جامعة السربون ليصبح فيما بعد رئيس وزراء ليبيا في عهد الملك ادريس السنوسي، كما أن ابنه الثاني علي نور الدين انضمّ إلي السلك الدبلوماسي وأصبح سفيراً لبلاده في تونس.

وهكذا، فقد كنت على علم بتقلبات الدهر التي عاشها محمّد فكيني وأفراد عائلته، وذلك من خلال وثائق سجلاتنا، وكنت أدرك أن ما كان بحوزتي من مواد ومعلومات كاف لتدوين سيرة واضحة وتقديم صورة متكاملة عن هذا القائد الوطني الفذّ وشخصيته النضالية المدهشة... لكن ما جعلني أرحب بحماس، بعرض حفيد هذا المقاوم الصلب العنيد، هو تلك الفرصة الفريدة النادرة التي

سنحت لي لإضافة الوثائق العربية التي كتبها وجمعها محمّد فكيني بنفسه إلى مجموعة الوثائق الإيطالية الغنية. ولأول مرة، تسنح الفرصة لمؤرخ إيطالي ليتمكن من الاطلاع على أفكار ومشاعر الآخرين ومعرفة أحاسيسهم وأمالهم بشكل معمّق، وفي الوقت نفسه يستطيع عقد مقارنة بين روايتين للأحداث من الجانبين الإيطالي والليبي المعنيين بهذه المرحلة التاريخية.

ذلك في حد ذاته حظوة وامتياز كبير لا يقدّر قيمتهما سوى المؤرخ الذي يسجّل أحداث التاريخ بموضوعية وعمق. ولا يسعني إلا أن أعبر عن شكري وامتناني لأنور فكيني الذي منحني هذه الفرصة القيّمة الرائعة.

كما أنني مدين بالشكر أيضاً لعمر صاغي الذي ترجم مذكرات محمد فكيني من العربية إلي الفرنسية، وإلي زاهي القائد الذي ترجم الملاحق والوثائق المرفقة من العربية إلى الفرنسية، مما سمح بمتابعة دقيقة للنصوص. كما أشكر أيضاً جان بيار ميلالي الذي أعد نسخة فرنسية رائعة لهذا الكتاب.

وأنا مدين بالشكر أيضاً، على المعلومات القيّمة التي قدّمها لي فاضل ومحمّد فكيني ابنا الأمين فكيني، ولمباركة نصر زوجة الأمين فكيني، ولمريم ابنة محمّد فكيني، ومنوبية بن حميدة الزوجة الثانية لعلي نور الدين فكيني. أخيرا، شكري الجزيل للمؤرخ ماتيو دومينيوني على ما قام به من أبحاث مثمرة في سجلات وزارة الخارجية في روما.

أنجيلو دل بوكا

تورينو، ديسمبر 2006

أنجيلو ديل بوكا أهم مؤرخي الاستعمار الإيطالي وخبير في الشؤون الإفريقية. بصفته صحافيا شهد على مصير الاستقلال العسير والطويل، متابعا عن كثب أحداث مصر والسودان، تونس والجزائر، والمستعمرات الفرنسية الإفريقية كما حضر أكبر المؤتمرات الإفريقية.

لقد ألف تاريخا كاملا للاستعمار الإيطالي بسبعة أجزاء (جزءان عن الإيطاليين في ليبيا، وأربعة أجزاء عن الإيطاليين في إفريقيا الشرقية) وصنف دراسات عن أحداث تاريخية خاصة (إفريقيا في ضمير الإيطاليين في 1992، غازات موسوليني : الفاشية والحرب في أثيوبيا في 1996، هزيمة قصر بو هادي: أكبر فشل إيطاليا الاستعمارية في 2004، على مقربة من المشنقة: محمد فكيني والاستعمار الإيطالي : ملحمة الكفاح والنضال السياسي في 2007.)

الفصل الأول

طرابلس الغرب العثمانية

1. "طلب مني بعض الأصدقاء، مراراً، تدوين أحداث سنوات الاستعمار الإيطالي. وقد قررت القيام بذلك عندما رأيت ما تقترفه يد الاستعمار من أعمال تدمير لبلدي وشعبي. وأنا أتعهد في هذه الرواية، بتوضيح تاريخ تلك الحقبة، والله شاهد على نزاهة كلماتي وصدقها".[1] بهذه الكلمات استهل القائد العربي، محمد فكيني الطرابلسي الرجباني، رواية قصة الاستعمار الإيطالي لليبيا، مستنداً بشكل خاص على الوقائع التي جرت في طرابلس الغرب بدءاً من أكتوبر 1911، وهو تاريخ نزول الحملة الإيطالية إلى طرابلس، حتى فبراير 1930، عندما اضطر آخر معارضي الوجود الإيطالي إلى التخلي عن النضال واللجوء إلى الجزائر. بعد عشرين سنة من الحروب، عشرين سنة من المعاناة لشعب حاول بشتى السبل المحافظة على هويته وثقافته ودينه خلال عمليات التذويب التي اشتدت قمعاً وتدميراً.

بدأ محمد فكيني كتابة مذكراته عن الأحداث المحتوية تجربته المثيرة كمعارض عنيد، بُعيد أسابيع قليلة من الانسحاب إلى الجزائر، أثناء توقف طويل في زاوية سيدي موسي الواقعة في حمادة تنهارت المقفرة، مؤرخاً في الجزء الأول من المذكرات، الفترة الممتدة من

---

[1] محمد فكيني، البدر المنير لحقائق من حوادث طرابلس في العهد الأخير، مذكرات غير منشورة، ص 1.

نزول الإيطاليين على السواحل الليبية إلى بداية الثورة العربية عام 1915. أما الجزء الثاني، فقد أنجزه سنة 1931 في دقاش بجنوب تونس التي استقرّ فيها بعد مسيرة طويلة في الصحراء. كان محمد فكيني يتميز بذهن وقاد رغم تجاوزه السبعين، وبقدرة على تذكر الأحداث في جزئياتها، واستعادة للأسماء والتواريخ بدقة شديدة، حيث ينقل لنا ذكريات تُروى للمرة الأولى، ألا وهي ذكرى الاستعمار الإيطالي لطرابلس الغرب من وجهة النظر الأخرى، أي من جانب المتضررين المُعتدى عليهم. نحن على قناعة تامة أن الأمر يتعلق بوثيقة في غاية الأهمية والصدق، تفوق قيمة يوميات الحرب الليبية،[2] التي كتبها أنور باشا والتي امتدت لأكثر من سنة، عندما كان على رأس القوات التركية العربية في برقة. ليس فقط لأن شهادة محمد فكيني تُغطي عشرين سنة، أي طوال فترة المقاومة الليبية في طرابلس الغرب، بل لأنها تقدم أيضاً صورة دقيقة وصادقة عن شعب فقير أبيّ، قادر على الأعمال البطولية والتطلع نحو أهداف نبيلة، رغم الانقسامات العرقية المستمرة التي أنهكت نضاله.

كان ذهن محمد فكيني، وهو كان يكتب مذكراته، يقظاً بدرجة كبيرة، إلى جانب ما كان يحدوه من حماس المناضل المتوقد، إلا أن بصره كان مصاباً ومحدودا. فقد كانت عينه اليسرى منطفئة كليا، كما يبدو في الصُّوَر التي التُقطت له أثناء فترة منفاه في تونس، في حين كانت عينه اليمنى مصابة جزئيا بغشاوة في العدسة. ومع ذلك لم يركن القائد العربي العجوز إلى اليأس، فقد كان يُجهد نفسه لينتصر على الضباب الذي يرهق عينيه. ففي الجزء الأول من النص الذي دوّنه بخط يده، يمكن ملاحَظة الكتابة

[2] يوميات أنور باشا خلال الحرب الليبية، ترجمة سالفاتوري ديبونو، بولونيا، 1986.

المضطربة والمتعثرة والتصحيحات المتكررة. في حين كان الجزء الثاني أكثر جلاء، ونلحظ فيه خطا مختلفاً ومتناسقا، خالياً من أي شطب. لقد كان محمد فكيني في تلك الأثناء شبه أعمى تقريبا، فاضطر لإملاء هذا القسم على أحد كتبته. ولمتابعة خيط الأحداث، رجع إلى 335 رسالة التي كان قد وجّهها، خلال عشرين سنة، إلى السلطات التركية والإيطالية (العديد منها إلى الجنرال غراتسياني، خصمه العنيد)، وإلى القادة العرب في طرابلس الغرب.

إن هذه المذكرات لا تتضمن فقط الرغبة المشروعة لتوضيح الدور المميز الذي لعبه الرجل على مدى عشرين سنة من المواجهة مع الإيطاليين الغزاة، لكنها تحوي أيضا، وبالخصوص، الحاجة للإعراب عن أن ثورة الليبيين تجد مبرراتها الشرعية في ممارسات العنف المتنوعة، وأعمال الظلم والنهب والمصادرات، ونكث العهود، والاحتقار للأعراف والدين. لقد كلفت الثورة مائة ألف قتيل، وسببت الهجرة القسرية لعشرات الآلاف الآخرين نحو تونس ومصر وتشاد والجزائر والنيجر. لذلك، لا يمكن ولا ينبغي نسيان هذه الثورة، لأنها حددت وطبعت ميلاد الأمة الليبية وشرعية وجودها.

2. رزحت طرابلس الغرب تحت سيطرة الأتراك منذ سنة 1551،[3] وقد كانت مع مطلع القرن العشرين، تعيش في فقر مدقع، إلا أنها لم تكن أكثر بؤساً من بقية بلدان المغرب التي كانت تُعتبر أكثر غنى. فحسب الإحصاء العثماني الذي أُجري سنة 1911، بلغ

---

[3] امتدت السيطرة التركية على ولاية طرابلس الغرب ولواء برقة من سنة 1551 إلى 1911، تخللتها فترات انقطاع بين 1711 و1835، عندما أصبحت السلطة الفعلية في يد ضابط إنكشاري، أحمد القرامانلي، الذي أسّس عائلة حاكمة خاضعة مع ذلك للسلطنة العثمانية.

عدد سكان طرابلس الغرب، باستثناء فزّان، 523176 فرداً، بينهم 14 ألفا من اليهود وبضع مئات من المسيحيين. كان السكان ينقسمون إلى حضر (330 ألفا)، وشبه بدو (115 ألفا)، وبدو (80 ألفا). ويتوزعون بين عرب (وهم الأغلبية)، وبربر (يقارب عددهم ثلث السكان)، وكورغلية، منحدرين من زيجات بين إنكشاريين، جلبتهم الحكومة العثمانية للخدمة العسكرية، ونساء من الأهالي، عربيات وبربريات. ورغم التنوع المركب للشعب، فقد كان التعايش يخيم على مختلف الفئات إلا فيما ندر، بحيث كان يكفي للمحافظة على النظام في الولاية ثلاثة آلاف جندي تركي وبضع مئات من أفراد الشرطة المحليّة.

أفرد محمد فكيني في مذكراته بعض الصفحات لتاريخ ليبيا وجغرافيتها، مما يظهر جلياً ثقافته الواسعة، رغم اقتصار تعلمه على الكُتّاب، بخلاف أخيه أحمد فاضل[4] الذي درس في تركيا والذي كان في سنة 1911، إبان الغزو الإيطالي، ممثلا لمنطقة الجبل في برلمان القسطنطينية. وانطلاقاً من إحساسه الوطني العميق، أراد محمد فكيني تصحيح صورة طرابلس الغرب الفقيرة والصحراوية والخالية من الموارد. فكتب: "طرابلس الغرب هي منطقة مناجم تحوي الزنك والحديد والفحم والملح. لم تستغل السلطات العثمانية هذه المعادن ولم

---

[4] أحمد فاضل فكيني (1875-1965) بخلاف أخويه محمّد ومسعود لم يشارك في المقاومة خلال الحرب الإيطالية التركية سنة 1911-1912 حيث كان في مهمة باسطنبول. أخذ العلم بالاستسلام للإيطاليين سنة 1913 حيث تم تعيينه من قبل الوالي رانيي مستشارا محليا للحكومة. حامت حوله الشكوك لكونه الملهم لمؤامرة منظمة في العجيلات سنة 1914، وفي سنة 1916 تم إعفاؤه من منصبه وتم إعادة تعيينه في منصبه سنة 1919 في فترة اعتراف الليبيين بالنظام. حيث كان تحت مراقبة مستمرة من الشرطة وفي سنة 1922 عندما كان على وشك أن يتم إتهامه بتهمة التعاون مع المقاومة يستطيع أن يصل إلي تركيا عن طريق البحر وفيما بعد انتقل إلي غزة بفلسطين ورفض العودة إلي الوطن حتى بعد أن ألح على عودته ابن أخيه محي الدين وكان في ذلك الوقت رئيس وزراء ليبيا، مات فقيرا حاملاً معه سر منفاه القهري. راجع رسالة الجنرال أميليو رقم 1892 إلى وزارة المستعمرات بتاريخ 16 من سبتمبر 1916, في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية , العلبة 103, الوثيقة 390.

تولها أي اهتمام، وفي المقابل سمحت للخواص باستغلالها". ويتابع: "كانت بمثابة الملتقى التجاري لجيرانها، خصوصاً للسودان. وغالبية سكان تلك الجهة يتكلمون العربية الممتزجة بالبربرية، ما عدا قبيلة نفوسة، التي تعيش في الجبل الغربي وزوارة، فهي تتكلم البربرية فقط وتتبع المذهب الإباضي".[5]

أما فيما يتعلق بعلاقات سكان طرابلس الغرب بالأتراك الذين يحتلون البلاد منذ عدة قرون، فلم تكن علاقات صراع ولكنها في الوقت ذاته لم تكن علاقات ودّية. وقد تتبع هذه العلاقات عن كثب الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي، قيم مكتبة الجامع الكبير بتونس، بعد إقامة قصيرة بطرابلس، إذ يقول: "كل العساكر الأتراك بطرابلس، من العريف إلى الجنرال، ينعمون برغد العيش. فمرتباتهم تُدفع شهريا، مما يسمح لهم بالسكنى في الأحياء الراقية. كما أن أغلبهم متزوجون وملبسهم أنيق ويبحثون عن الملذات. مساكنهم مؤثثة على الطراز الأوروبي، وعملهم قليل حسب ما رأيت. أما حياة الجند فهي متقشفة : فثيابهم رثة ومأكلهم زهيد، ولا يقبضون رواتبهم بانتظام، لذلك تراهم يتصرفون بعنف مع الأهالي، خصوصا إذا كانوا من العرب، لأنهم يكرهونهم".[6]

يبين الشيخ التونسي كذلك "أن مداخيل البلد لا تغطي المصاريف"،[7] ما يفسر سبب إثقال الباب العالي كاهل سكان طرابلس الغرب (ومنطقة برقة) بضرائب عالية. في العقود الأخيرة، جرت بعض التحولات، على الأقل فيما يخص توفير بعض الخدمات

---

[5] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 3.

[6] Mohamed ben Otsmane al-Hachaichi, *Voyage au Pays des Senoussia à travers la Tripolitaine et le Touaregh*, Imprimerie Darantiere, Dijon 1903, p. 278.

[7] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

وتطبيق بعض الإصلاحات. فقد شجع الحكام العثمانيون على استقرار البدو، وسعوا لتطوير الزراعة والتجارة عبر الصحراء. كما شيدوا في المدن المباني العمومية وشجعوا خصوصاً "التعليم المحلي وتكوين نخبة مثقفة تنقل أنماط الحياة السياسية والثقافية الموجودة في إسطنبول".[8]

أصدرت الحكومة العثمانية سنة 1878 قانونا يوجب التعليم الإلزامي على كل سكان الولاية. وبين سنة 1900 و1910 تم بناء سبع وعشرين مدرسة ابتدائية بطرابلس إضافة إلى الكتاتيب الموجودة. وفي المستوى العالي توجد الرشديات، وهي مدارس تحضيرية تسمح بدخول المدارس العسكرية العليا والمعاهد التقنية لتكوين الموظفين الإداريين. زد على ذلك أن الحكومة التركية لم تعترض على تأسيس مدارس أجنبية خاصة، فخلال سنة 1909 تم إحصاء عشرين مدرسة عبرية بطرابلس، وخمس مدارس ابتدائية إيطالية تمولها الحكومة الإيطالية، وواحدة انجليزية واثنتين فرنسيتين. في سنة 1907، كما يذكر محمد الطاهر الجراري، "تم تدشين المدرسة الأولى للمعوقين بطرابلس بتمويل من البعثة الفرنسسكانية الفرنسية لتدريب الصم والبكم والمعوقين عموماً".[9] بالإضافة إلى فسح المجال لعديد من الشبان لإتمام دراساتهم بارتياد الجامعات التركية والأزهر الشهير بمصر والزيتونة بتونس. أمام هذه الصورة التي تشهد على يقظة ثقافية حقيقية لليبيين، بتشجيع من الحكومة العثمانية، تبدو مزاعم حكومة جوليتي بنقل الحضارة إلى

---

[8] أنظر : *Ira M. Lapidus, Storia delle società islamiche, III, I popoli musulmani, Einaudi,* Torino 1995. p. 175.

[9] Muhammad al-Tahir al-Jarrari, *L'istruzione in Libia prima e dopo il 1911*, in *Un colonialismo, due sponde del Mediterraneo* (a cura di Nicola Labanca e Pierluigi venuta, Editrice CRT, Pistoia, 2000, p. 67.)

ليبيا مبنية على الجهل وسوء النيّة.

3. على خطى مشابهة ومع تطوير ميداني التعليم والثقافة، يلوح أيضا مسار آخر يتعلق بالصحافة الإخبارية، ففي طرابلس وحدها يمكن إحصاء ثماني صحف، بين يومية وأسبوعية، في شتى اللغات: العربية والتركية والإيطالية والعبرية. ثم بداية من سنة 1908، عندما أجبرت حركة تركيا الفتاة القومية السلطان عبد الحميد الثاني على إعادة العمل بدستور 1876، الذي لم يكن مطبقاً، استطاع بعض سكان الولايتين من الليبيين التمتع ببعض الحقوق الأساسية. فعلاوة على حرية التجمع وإنشاء الجمعيات، صار بإمكانهم إرسال ثمانية من ممثليهم إلى البرلمان في القسطنطينية، وفي العشرين من شهر مارس سنة 1909، انطلق العمل في مجلس الولاية الإقليمي في طرابلس، الذي يمثل أيضا منطقة فزان الداخلية. وفي طرابلس، حثت موجة التجديد التي أثارتها حركة تركيا الفتاة، والتدخلات الجلية للدول الأوروبية في الشأن الليبي، على نشأة طبقة صغيرة من التجار المحليين، والتي، كما يلاحظ باولو سووافي، انها تندمج "في الجهاز البيروقراطي العثماني الذي ينحو باتجاه التمركز، مساهمة في نفس الوقت في الأجواء الرأسمالية المحمومة التي جلبها المتنفعون الأوروبيون".[10]

وهذا لا يعني أن طبقة الوجهاء القديمة قد فقدت السلطة داخل مجتمع لا يزال يرزح بقوة تحت النظام القبلي. ففي طرابلس، على

[10] Paolo Soave, *Fezzan: il deserto conteso (1842-1921)*, Giuffrè, Milano, 2001, pp. 89-90.

سبيل المثال، يظهر حسونة باشا، الذي حكمت عائلته ليبيا على مدى 124 سنة بتكليف من الباب العالي. وفي مصراتة هيمنت عائلة المنتصر، وكان أفرادها من أوائل الذين تعاملوا مع الإيطاليين، مقابل مكافآت عالية نالوها عن خدماتهم.[11] وفي ترهونة سيطر أحمد المريض بشكل لم ينازعه فيه أحد، وقد لعب لاحقاً دوراً هاماً في مقاومة الإيطاليين. وكان محمد فكيني يتمتع بمنصب القائمقام في فساطو، وكان يفخر بثلاثين سنة من الخدمة الشريفة للإدارة العثمانية، وقد قلده رجب باشا، والي طرابلس الغرب آنذاك، الأوسمة "لأنه دحر غزو الوحدات الفرنسية إلى الحدود التونسية".[12] وفي ورفلة كان عبد النبي بلخير، الذي تعاون مع الإيطاليين عند اجتياح فزان، ثم غدر بهم عبر مشاركة فعالة في الثورة الليبية الكبرى سنة 1915. ولم يكن آل كعبار الموجودون في طرابلس وجبل غريان أقل شأناً؛ ولا آل سيف النصر، الذين كانوا سادة واحات الجفرة، ملتقى القوافل البالغ الأهمية ومدخل لفزان. وكذلك رمضان الشتيوي، الذي كانت مصراتة منطقة نفوذه. وقد سجل رودولوفو غراتسياني يوم نهايته البائس قائلاً: "تلك كانت نهاية المعارض الشرس الكاره للإيطاليين. كانت لحظة سعيدة لنا، لأنه يمتلك ميزات القائد العنيف، تدعمها مقدرة تنظيمية عسكرية ونفوذ ديني".[13] ولا ينسى كذلك وُجهاء البربر، مثل يوسف خربيش وخليفة بن عسكر وسلطان بن شعبان، وخصوصاً سليمان الباروني الذي درس في جامع الزيتونة بتونس وفي جامع الأزهر بالقاهرة، والذي تم انتخابه سنة 1908 نائبا

---

[11] في أرشيف وزارة الخارجية هناك ملف ضخم يحتوي على طلب مكافآت عائلة المنتصر. راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، العلبة 13/150، الوثائق رقم 50،51،53 52،54.

[12] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 32.

[13] Rodolfo Graziani, *Pace romana in Libia*, Mondadori, Milano 1937, p 15. (رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، موندادوري، ميلانو، 1937، ص 15.)

عن جبل نفوسة. لم تكن تنقص أي من هؤلاء القادة جرأة القتال ولا الثقافة العميقة ولا الحماس الوطني. لكنهم للأسف كانوا منقسمين لأسباب دينية وعرقية أو تنافسيّة. وقد استغل الإيطاليون بسرعة تلك الانقسامات، فسعوا، ووفقوا في أغلب الحالات، إلى ضرب بعضهم بالبعض، حتى في الوقت الذي كانت فيه نتائج تلك المناورات حربا عبثية مدمرة بين إخوة أعداء.

4. من بين البلدان الأوروبية التي كانت تنظر إلى ليبيا بعين الاهتمام، نجد في الدرجة الأولى إيطاليا. منذ أن بمقتضى معاهدة باردو في سنة 1881، احتلت فرنسا تونس حيث توجد جالية إيطالية تفوق نظيرتها الفرنسية عددا، تحول اهتمام السياسيين والعسكريين الإيطاليين نحو ولايتي طرابلس الغرب وبرقة، اللتين كانتا جزءا من الإمبراطورية العثمانية. فعلى مدى ثلاثين سنة سعت إيطاليا بكل جهدها للنزول إلى ما سمي بـ "الشاطئ الرابع". بدءاً من الاستعدادات العسكرية لغزو البلاد الإفريقية (1884) إلى الوفاق مع فرنسا (1902) إلى تحضير الرأي العام لحملة استعمارية جديدة، بعد الهزيمة في أثيوبيا التي ما زالت ذكراها المؤلمة حيّة في الأذهان. وقد نهض القوميون الإيطاليون وجزء كبير من الصحافة بمهمة العمل على إقناع الرأي العام بأن غزو ليبيا هو مجرد نزهة عسكرية بسيطة، وأنّ ثروات البلد الهائلة ستغطي أية تكلفة أو مخاطرة.

من هذه الحملة الملحة والهوجاء التي استمرت ما يفوق العام، نكتفي بذكر مساهمة أنريكو كوراديني، الذي يصر في قوله على أن ليبيا ذات الأراضي الخصبة والثروات المنجمية الوفيرة مهيّأة لأن

تكون في الوقت نفسه مستعمرة استيطانية للسكان ومصدراً للكسب. كما يؤكد أن الجميع سيجني نفعاً من تلك العملية : البرجوازية والبروليتاريا والحكومة، وكذلك أهالي الجنوب الإيطالي، لأن "حل مشكلة الجنوب واحتلال طرابلس الغرب لن يكونا عملين متناقضين"،[14] علماً أن احتلال طرابلس ستكون له آثار معنوية أيضا، لأنه سينهي فترة الانطواء المشؤومة (المسماة بالجمع) التي تميزت بـ "صراع طبقي انحط إلى مستوى النفعية الطبقية والذي كان من المفترض أن يشكل نقطة انبعاث الأمة الإيطالية".[15] وكان هناك سبب آخر للذهاب إلى ليبيا - يؤكد كوراديني - ألا "وهو نداء الماضي، نداء روما الإمبراطورية، التي كانت ليبيا إحدى مقاطعاتها الغنية، ومخزن غلالها الوفير".[16]

إلى جانب الاستعداد الدبلوماسي وتعبئة الرأي العام الشعبي، كانت إيطاليا تقوم بأنشطة سرية في ليبيا. وتتركز هذه بالأساس على تجميع المعلومات العسكرية (حيث أُرسِل إلى ليبيا ضباط مدربون بشكل خاص)، والسعي إلى نسج علاقات مع قادة عرب، كما تم مع حسونة القرامانلي وغيره ممن لا تربطهم صلة خاصة بتركيا، وفي نهاية الأمر، إرساء تأثير فعلي في البلد عبر تسرب اقتصادي نشط ومكثف. ومع حلول عام 1907، تم تكليف بنك روما بهذا "التسرب السلمي". وقد افتتح بالفعل خلال أقل من ثلاث سنوات فروعا ووكالات تجارية في سبع عشرة مدينة. وفي الوقت ذاته، كان يرعى أنشطة صناعية هامة: خطوطاً بحرية ومطاحنَ عصرية، ومعاصر للزيت، ومصانع

[14] Enrico Corradini. *L'ora di Tripoli*, Treves, Milano 1911, p. 231.

[15] المرجع نفسه، ص 241.

[16] فيما يتعلق بالأسطورة الرومانية، أنظر :
Massimiliano Munzi, *L'epica del ritorno. Archeologia e politica nella tripolitana italiana*, "L'Erma" di Bretscneider, Roma 2001, pp. 9-30.

للثلج، ومحاجر وشركات زراعيّة ومطابع.

أثار هذا النشاط الجريء لبنك روما الشّك والريبة لدى السلطات العثمانية كما ذكر أنريكو إنساباتو، الموظف بالشرطة والمخبر المُقرّب من جوليتي في تقريره المؤرخ بتاريخ 12 أغسطس 1911 والمرسل إلى رئيس الوزراء : "حسب رأي الأتراك وكثير من العرب، فإن بنك روما هو مؤسسة مقامة ومدعومة من قبل الحكومة الإيطالية للتحضير لاحتلال طرابلس الغرب وليس للقيام بأنشطة مصرفية أو لمجرد توسيع الهيمنة الإيطالية. الدليل الأول على ذلك يقول الأتراك إن القنصليات كانت تقوم بدور محامي البنك حتى ضد رعاياها. والدليل الثاني هو أن البنك يسعى إلى الاجتياح والسيطرة ليحل محل كل المبادرات والمؤسسات والأنشطة. فأعماله موجهة بالأساس لابتلاع ولتدمير التجارة الصغيرة والمؤسسات الصغرى للعرب وللإيطاليين على السواء".[17]

وبرغم القيام بعمليات استخبارية مكثفة، عشية إنزال جهاز الحملة العسكرية بليبيا، فقد كانت المعلومات التي بحوزة جوليتي غير موثوقة بها وأحيانا خاطئة ومحرَفة. فكان مقتنعا مثلاً، بعد قراءة برقيات كارلو غالي، المكلف بالقنصلية العامة بطرابلس، أن العرب يكرهون الأتراك كرها عميقا وأنهم ينتظرون بلهفة التخلص منهم واستقبال الإيطاليين كمحررين. في 19 من أغسطس عام 1911، صور غالي الأوضاع في طرابلس أثناء عملية الإنزال قائلاً: "عندما تضعف مقاومة حامية طرابلس ستسقط بقية الحاميات الصغيرة، وينبغي ألا تخيفنا الدعوة إلى الجهاد. فجماهير الساحل لن تشارك بأي

---

[17] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 3/103، ص 23.

حال من الأحوال، فهي تعرف جيداً ما يمكن أن تفعله دولة أوروبية. أما القبائل التي قد تصغي لمثل هذا النداء فإما فقيرة أو غير مسلحة أو نائية فلا يخشى منها".[18] وفي 9 من سبتمبر، أي قبل أقل من شهر على غزو ليبيا، يؤكد غالي أنه لا يوجد أي "دليل أو مؤشر" على الالتحام بين الأتراك والعرب، ويرجو وزير الخارجية سان جوليانو "ألا يصدق أي قول يتعلق بالأخبار المثيرة التي أرسلها الموفدون الحالمون، هذا إن لم تكن مصنوعة في روما".[19] وكما نعرف، فقد اتخذت الأحداث مجرى آخر، فمع المفاجأة لشارع الشط المريرة التي أظهرت التعاون الكامل بين العرب والأتراك، فهم جوفاني جوليتي في النهاية أن السيطرة على طرابلس لن تكون مجرّد "نزهة عسكرية".[20]

---

[18] راجع في الأرشيف الدولة المركزية، وثائق جوليتي، العلبة 22، الصفحة 59، برقية 449/1059.

[19] Carlo Galli, *Diari e lettere, Tripoli 1911- Trieste 1918*, Sansoni, Firenze 1951, p. 65.

[20] بشأن الإعداد الدبلوماسي والنفسي والسري لغزو ليبيا، انظر :

Angelo Del Boca, *Gli italiani in Libia. Tripoli bel suol d'amore, 1860-1922*, Laterza, Roma-Bari 1986, pp. 3-95.

الفصل الثاني

مفاجأة شارع الشط

1. رفض الباب العالي إنذار جوليتي الأخير[1]، وعلى إثر ذلك، في الساعة الخامسة والنصف من بعد ظهر 3 من أكتوبر1911 فتح الأسطول الإيطالي النيران[2] على قوات الحامية بطرابلس، التي لم يكن بحوزتها سوى مدافع عتيقة، يقل مداها عما تمتلكه القوات الإيطالية. وخلال ساعات، وتحت كثافة القصف، تم إخماد نيران حصني السلطانية والحميدية وبطاريات المنارة والرصيف. وفي انتظار وصول جهاز الحملة الرئيسي، المكون من 34000 عنصر و72 مدفعا، والذي ما زال في نابولي، تولى مهمة احتلال طرابلس التي قد غادرها الأتراك 1732 جنديا من رجال البحرية، بقيادة قبطان البارجة أومبرتو كانيي.

بدأت عمليات الإنزال في الساعة الثالثة ظهرا، في 5 من أكتوبر، وانتهت دون أي حادث يذكر بعد ساعتين. تراجع القائد العسكري للولاية العقيد نشأت بك بقواته نحو العزيزية، على مسافة 70

---

[1] تم تسليم نص الإنذار الأخير إلى الوزير الأكبر حقي باشا، في الساعة 14.30 في 28 من سبتمبر 1911. فكما ذكر ذلك باحث فرنسي، "لا تحوي – الوثيقة - سوى تذمرات عامة، ولا يشكل أي منها سببا لإعلان الحرب". أنظر :
R. L., *La Guerre de Tripoli et l'esprit public en Italie*, "Chronique Sociale de France", marzo 1912, pp. 81-82.

[2] كان الأسطول الإيطالي، بقيادة نائب الأميرال لويجي فارافيلي، متكونا من أكثر من عشرين قطعة بحرية، بين بوارج وطرّادات وسفن مطاردة وسفن حربية. تتفاوت الآلية العسكرية بشكل كبير مع الهدف المزمَع غزوه.

كيلومتراً جنوب شرق العاصمة، حيث أقام مركز القيادة العامة. في حين تولى في طرابلس، مؤقتاً، مهمة الوالي العام عميد البحرية رافائيلي بوريا ريتشي الذي أصدر بيانا للشعب الليبي في 7 من أكتوبر، جاء فيه: "أيها السكان الأعزاء، نعاهدكم على لسان الوالي العام، أننا لن ندخر جهدا في احترام نسائكم وتقديرهن إلى أقصى الدرجات، فإذا ما تجرأ طائش على مس شرفكم فليعلم أنه قد مسّ شرفنا (...) أنتم منذ اليوم أبناؤنا. لديكم ما لدينا من حقوق الإيطاليين، دون أي تمييز بيننا. فلتهتفوا مع أبناء إيطاليا: يحيا الملك، ! تحيا إيطاليا! ".[3]

صيغ البيان بعبارات الاحترام والمودة الأبوية لكن سرعان ما تنبه سكان طرابلس إلى أن الإيطاليين لم يعاملوهم البتة كـ "أبناء" أو كـ "إخوة" ولم يحترموا نساءهم، بل ليست لديهم أيّة نية في تقاسم السلطة معهم، ولا حتى الاعتراف لهم بتولي الوظائف ونيل التعويضات التي حصلوا عليها من الإدارة العثمانية. وهذا ما يفسّر التحوّل العاجل، حتى لفاتري الهمَم والمسالمين منهم، إلى معسكر المتصلّبين، الذين سماهم الإيطاليون خطأ "متمردّين".

تم انتهاك الهدنة الهشّة في الليلة الفاصلة بين 8 و9 من أكتوبر. إذ قادت بعض الفصائل التركية هجوما على آبار بومليانة، في الخط الدفاعي الضعيف الذي أقامه الإيطاليون حول طرابلس وواحتها. لم يكن هذا الهجوم سوى عملية استكشافية، سرعان ما أفشلتها مدافع السفن الراسية. بعد يومين جرى إنزال جهاز الحملة الرئيسي، ففي

---

[3] ذكر النص لدى :

Massimo Adolfo Vitale, *L'Italia in Africa. L'opera dell'Esercito*, tomo III, Istituto Poligrafico dello stato, Roma 1964, pp. 11-12.

13 من أكتوبر نزل القائد العام للقوات الإيطالية الجنرال كارلو كانيفا في القصر التركي القديم، الرمز الدائم لمركز السلطة. وفي الأيام اللاحقة، مع نزول الرجال والمعدات اللازمة، تدعمت الخطوط الدفاعية حول طرابلس بشكل ملحوظ، تعززها خنادق جديدة وعشرات الآلاف من أكياس الرمل.

بدا خمول الأتراك شاملا فيما وراء الخنادق الإيطالية. يذكر تشيزاري كاوزا: "كان البعض في حالة يترقبون فيها من حين لآخر خبر جلاء العدو من طرابلس الغرب ".[4] في إيطاليا أيضا، كان الكثيرون يعتقدون أن الحرب ستكون خاطفة. وهكذا، في 4 من أكتوبر كتب الجنرال لويجي كادورنا إلى ابنه رافائيلي: "أعتقد أنها حملة مثيرة للضحك، وستكون مجرد عمليات تملك تقريباً. وسوف تتراجع تركيا أثناء ذلك للمحافظة على شيء من ماء الوجه".[5] مثله مثل غالبية السياسيين والعسكريين والصحفيين، لم يأخذ كادورنا بعين الاعتبار العنصر العربي الذي سيكون العامل الحاسم في مقاومة الإيطاليين.

2. بلغ محمّد فكيني خبر قصف الأسطول الإيطالي لطرابلس بينما كان في مقرّ سكناه في تاردية، في الجبل الغربي. فقد شغل بال قائد الرّجبان ونغص عيشه الهجوم البحري إذ اعتبره حتماً مقدمة لإنزال وحدات، خصوصا وأن الاعتداء وقع في شهر رمضان[6]. لكن قلق

[4] Cesare Causa, *La guerra italo-turca e la conquista della Tripolitania e della Cirenaica*, Salani, Firenze 1913, p. 188.
[5] Luigi Cadorna, *Lettere famigliari*, Mondadori, Milano 1967, p. 82.
[6] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 8.

محمد فكيني لم يفتَّ في عضده وعزمه على اتخاذ إجراءات فورية. وكتب في مذكراته : "تذاكرت مع أعيان الجبل واتفق الرأي قبل قدوم الاسطول على مخابرة الصدارة ونظارة الداخلية".[7]

في 4 من أكتوبر سنة 1911، وبينما كانت عملية قصف طرابلس مستمرة، تحوّل محمّد فكيني إلى قطّيس بصُحبة المئات من الفرسان، الذين جُمعوا، بمساعدة القائد البربري سليمان الباروني، بين جادو والزنتان. في اليوم التالي نزلت هذه المحلات المؤلفة من سكان الجبل إلى السهل، حتى وصلت جنزور وورشفانة، حيث بلغهم خبر قرار استسلام وُجَهَاء تلك المناطق - القريبة جدّا من طرابلس - للعدو. كما حثت مدينتا الزاوية وصرمان الخطى للإذعان، لما ألم بهما من جزع. يعلّق محمّد فكيني على هذا الأمر قائلاً: "فاجأتنا هذه المواقف المشينة وأحرجتنا لذا قررنا التوجه نحو سواني بني آدم، حيث تجمّع عسكر الأتراك مع قائدهم نشأت بك. لكن مفاجأة مريرة أخرى كانت بانتظارنا. فقد كان الجنود الأتراك وقائدهم قد أعدوا رسالة استسلام لتقديمها للقائد الإيطالي، عبّروا فيها عن رغبتهم في الاستسلام. لذا توجهتُ إليهم بالكلام لأثير حماسهم، محاولا بث الثقة فيهم وحثّهم على المقاومة. في نهاية اللقاء، توصلنا إلى اتفاق يدعو إلى مواجهة الأجانب الغزاة والدفاع عن الوطن حتى الموت".[8]

من جانبهم، تلقى الأتراك أمرا من اسطنبول يدعوهم للانسحاب إلى جبال غريان، التي تُشكّل في حالة اندلاع حرب نقطة استراتيجية هامة. لكن كما رأينا، لم يكونوا متحمّسين. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ نَقْل الرجال والعتاد يحتاج إلى عددٍ هائل من الجمال. وبما أن محمّد

---

[7] المكان نفسه.

[8] المرجع نفسه، ص 11.

فكيني وسليمان الباروني حرضاهم على المقاومة، فقد طلبوا منهما مدهم عاجلا بالجمال اللازمة لهذا الغرض. لم يتردد القائدان لحظة فتركا في سواني بني آدم القسم الأكبر من فرسانهم، وتوجها نحو غريان بصحبة ثلة من الحرّاس، على أمل الحصول على وسائل النقل.

لكنّ المفاجآت لم تنته بعد. فقبل وصولهم، التقوا في الطريق بموظفين لقائمقام غريان، يحملان رسالة استسلام موجهة إلى حسونة باشا، الذي عينه الإيطاليون رئيساً لبلدية مدينة طرابلس، وكانت الرسالة تحمل توقيع قائمقام غريان ووجهاء آخرين. تمّ حجز الموظفين، واقتيدا إلى سواني بني آدم حيث سُلّما إلى العقيد التركي نشأت بك.

وبانتظار إصدار القائد التركي قراره بشأن مصير هذين الموظفين من غريان، دبَّ الخلاف بين سليمان الباروني ومحمّد فكيني. حيث صرّح القائد البربري أنه يرفض التوجه لغريان، التي تعُج حسب رأيه بالخونة والأنذال، واقترح إرسال وفد من الأعيان إلى تونس، ومن ثم إلى فرنسا، لالتماس الدعم من تلك الدولة الكبرى، باعتبار أنّ العرب والأتراك وحدهم يعجزون عن صدّ الغازي. ردّ محمّد فكيني أن فرنسا لن تقدم أي مساعدة، لا لشيء إلاّ لأنها طرف في مجموعة الدول الأوروبية التي تقاسمت القارة الإفريقية في برلين سنة 1885، واقترح الكفاح حتى آخر رمق، والوقوف بكلّ صدق إلى جانب الأتراك، وإلاّ "فإنّنا سنلاقي غضب الله وسخط الناس".[9]

كل من حضر المجادلة التي تعالت فيها الأصوات وافق على

[9] المرجع نفسه، ص 13.

مساندة محمّد فكيني. ومع ذلك، تقرر التخلّي عن مسعى الصعود لغريان والاستعاضة عنه بالالتحاق بيفرن وجادو للعثور على الجمال وتجنيد ما أمْكَن من المجاهدين. وعلى الرغم من موافقة سليمان الباروني بمرارة على خطّة فكيني فقد تلاحقت الخصومات بين الرجلين المتنافرين، ثم تلتها خصومات أعنف، بلغت حدّ القطيعة النهائية سنة 1913.

3. زاد من نجاح عملية تجنيد المحاربين بين أهالي الجبل وُرود دعوة من الباب العالي تحثُّ على خوْض الجهاد. ويروي محمّد فكيني تلك الأحداث هكذا : " عزمت على حشد عموم الناس المطيقة للقاء العدو وجمع كافة الإبل والتجهيزات لمباشرة الحرب مع من رغب في حصول هذه الغزوة من أقاربي كأخينا الحاج أبي بكر فكيني والحاج عمر عراب بك وأهل بلدي وسرت في بجيش عرمرم[10] يوم مشهود لا تسمع فيه إلا دوي الطبول ووقع حوافر الخيول. (...) وقد مررنا بالزنتان فالرياينة فيفرن (...) إلى أن وصلنا سواني بني آدم. "[11]

حسب مختلف التقديرات، وفِق محمّد فكيني وسليمان الباروني والنائب فرحات بي، على مدار خمسة عشر يوماً في حشد وتسليح ما بين ثمانية آلاف وأربعين ألفا من العرب والبربر.[12] تم نقل تلك المجموعة الكبيرة من المسلّحين ليلة 21 من أكتوبر، من سواني بني

---

[10] كثير العدد.

[11] المرجع نفسه، ص 16-17.

[12] يتراوح العدد الأقرب إلى الصحّة بين 8 آلاف و10 آلاف رجل، من ضمنهم الأتراك التابعون لحامية طرابلس.

آدم إلى قرقارش وعين زاره وسوق الجمعة على مَقرُبة من طرابلس، دون أن تستطيع اكتشافها طائرات المراقبة والاستطلاع المعادية من طراز بليريو وفرمان. كانت الخطوط الدفاعية الإيطالية، المنتشرة على شكل نصف دائرة يناهز شُعاعها خمسة كيلومترات، راسية على البحر انطلاقا من جهة اليمين أمام ططالمتوسط، إلى المواقع الرئيسية التالية: قلعة السلطانية على البحر، منفذ الطريق إلى قرقارش، قرية بوමليانة، الثكنة القديمة للخيالة التركية، مزار سيدي المصري، قلعة المصري، تلة الهاني، قرية شارع الشطّ وقلعة الحميدية على البحر. في حين كان من السهل تنظيم الدفاعات بالنّسبة إلى ثلاثة أرباع حشود التجمعات من الغرب إلى الجنوب لأن الخنادق كانت تواجه الصّحراء وخلفها واحات النخيل. أما من ناحية الشرق، من قلعة المصري إلى البحر، فقد كانت الخطوط الإيطالية تمرّ عبر الواحة أي وسط متاهة حقيقية من الممرّات المجوفة بين جدران الطين، علاوة على العراقيل المنتصبة، مثل النخيل وأشجار الزيتون والأدغال والدور والمقابر والآبار.

يروي محمد فكيني: " وقع هجوم من كافة القبائل الجتمعة وهو يوم الخميس من ذي القعدة الحرام (أكتوبر) على هيئة خط منحني من محل يقال له الحمامجي وهو على الشاطئ الغربي إلى الهاني محل بسوق الجمعة مسامت للشاطئ الشرقي، بقلوب قدت من الحجارة[13] غير مباليين بما تقذفه عليهم أفواه المدافع الأسطول الذي يتجاوز الثلاثين (...) لكن لا يخفى على المسامع حال من لم يكن أمره منظم تنظيم الدول فإن العرب لم تدخل في سلك العسكرية قبلا (...) فعمدنا

[13] قاسية كالحجارة.

إلى (...) أن نجعل على كل قبيلة رجلا عاقلا يدير شؤونها".[14]

انطلق الهجوم التركي العربي الأول بعد الساعة السابعة صباحا على ميْمنَة التجمعات الإيطالية، بين قلعة السلطانية والطريق المؤدية إلى قرقارش. لكن الأمر لم يكن سوى عملية تضليل، لأنّه بعد ساعة أغارَت مجموعات هائلة من المجاهدين وبعنف على الخطوط الوسطى، بين آبار بومليانة وقلعة المصري. وقد كان الغرض أيضاً من هذا الهجوم هو تجميد الإيطاليين داخل الخنادق. أما الهجوم الحقيقي، الذي عوّل عليه نشأت بك وسليمان الباروني ومحمّد فكيني، فقد كان يهدف بالأساس لاختراق الخطوط الدفاعية والاندفاع نحو طرابلس. شُنَّ هذا الهجوم في الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة على الجانب الأيسر من خطوط الدفاع، أو بالأحرى في قلب الواحة، بين قلعة المصري وشارع الشطّ، أي على المواقع التي تقع تحت سيطرة القناصة الإيطاليين التابعين للفيلق الحادي عشر.

تم التحضير للهجوم الأخير بعناية فائقة، لأنه استهدف الإغارَة المزدَوَجة على الخطوط الإيطالية، الأماميّة والخلفيّة. ففي شارع الشطّ ما كانت تقاتِل الوحدات النظامية العثمانية المصحوبة بالعرب والبربر المنحدِرين من الجبال، فحسب بل شارك أيضا كل سكّان الواحات وجانب من أهالي طرابلس. يتعلّق الأمر في الحقيقة بانتفاضة عامة طالما استبعدها الدبلوماسي غالي بعناد، مصرّا على أن سكّان طرابلس كما عهدهم، لن يتحالفوا أبدا مع الأتراك. في حين ضمت الثورة الجميع : الرجال والنساء، الشيب والشباب، وقد كانت عنيفة ككلّ الثورات، ليس بسبب الكره للأجنبي فحسب بل أيضاً

[14] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 18-19.

بسبب الحماس الديني. كان العامل الرئيس المفجر للثورة هو السلوك السيئ للقنّاصة الإيطاليين مع النساء العربيات، وهو ما ناقض بشدة الوعود الأبوية التي تضمنتها تصريحات عميد البحرية بوريا ريتشي.

تم صدُّ الهجوم المباشر الأول للعرب والأتراك، بشقّ الأنفس، كما جرَت باكرا مناوشة وَحَدَات القناصة التابعة للفيلقين الرابع والخامس من الخلف. لقد أحاطت بهم النار من الجانبين، مما جعل القناصة لا يستجيبون لأوامر ضبّاطهم، حاولوا عبثا فتح منفذ تجاه طرابلس، حتى تشتتت قواهم وتمت إبادتهم واحداً واحداً. حاولت بعض الوحدَات الاستسلام بَيد أنّ العرب لم يأخذوا أسيراً واحداً. وصف أحد الناجين من المواجهة، فيليتشي بيتشولي، ساحة المعركة بقوله: "موتانا في شارع الشطّ ظلوا جثثا هامدة في العراء غير مدفونين. صلب العديد منهم على جذوع النّخل على هيئة المسيح المصلوب. وخيطت أعين آخرين، كما جرى ردْم البعض منهم في التراب حتى العنق، حيث لا تظهر سوى رؤوسهم، كما تم بتر أعضاء الذكورة للعديد منهم".[15]

يقدر عدد الذين شاركوا في صدامات شارع الشطّ والهاني بخمسة آلاف ليبي على الأقل من كافة قبائل الجفارة والجبل، رغم مظاهر التلكُؤ والخيانة في البدء التي أدانها محمّد فكيني. لم يتحول الاندحار الإيطالي إلى هزيمة ساحقة لأنه في لحظة ما، خمد هيجان العرب وغضبهم. فحوالي السّاعة الخامسة بعد الظهر، توقفت المعارك على كافة الجبهات.

[15] Felice Piccioli, *Diario di un bersagliere*, Edizioni Il Formichiere, Milano, 1974, p. 26.
بلغ عدد القتلى الذي تأكد في شارع الشط 21 ضابطا و482 جنديا.

4. واستمر القتال على أشده في الهاني وقلعة المصري وشارع الشط، ففي طرابلس حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف، عمّ الفزع بسبب أخبار التقهقر والإخفاق الواردة من الجبهة وبسبب عمليات القنص الجارية في شوارع المدينة.

يروي أحد الصحفيين الإيطاليين، ألدو كياريتشي : " إنّ عرب المدينة هم حقاً من يعتدون على الجنود المنعزلين، وهم الذين يطلقون النار عليهم من النوافذ. فقد خرّ صريعاً أمام عينيّ مساعد من الكارابينياري، جرّاء طلقة رصاص في الظهر، كما طعن واحد من باعة الليمون قنّاصاً بينما كان يشترى منه العصير".[16] وخوفاً من انتشار الانتفاضة في كافة أرجاء المدينة، طلب الجنرال كارلو كانيفا، قائد قوات الحملة، من عميد البحرية بوريا ريتشي إنزال عدة أفواج من رماة البحرية.

لم يسترجع الإيطاليون قواهم وانطلقوا في عملية قمع بلا هوادة دامت عدة أيام إلا في ظهيرة يوم 23 من أكتوبر حين خفت حدة الفزع في طرابلس، مما دفع عدداً من الصحفيين المُعتمدين لدى القيادة إلى إدانتها. وحسب إحصاءاتهم، تجاوز عدد الذين قُتِلوا خلال خمسة أيام أربعة آلاف عربي. وتعبيراً عن الاحتجاج على تلك المجازر، سلم بعض المراسلين الأجانب، من بينهم المراسلون الخاصون لـ"وستمنستر غازيت" و"دايلي ميرور" و"دايلي كرونيكل" و"مورنينغ بوست" و"لوكال انتزايجر"، بطاقات عملهم

---

[16] Aldo Chierici, *A Tripoli d'Italia: diario di un corrispondente di Guerra* ; Simonli, Pistoia, 1912, p. 90.

للجنرال كانيفا وغادروا ليبيا.[17]

أما الذين نجوا من عمليات إطلاق النيران أو من المشانق، فقد تم ترحيلهم إلى معسكرات اعتقال في إيطاليا.[18] وقد نفذ جوليتي هذا القرار المتطرف غداة أحداث شارع الشطّ إثر برقية موجهة إلى كانيفا جاء فيها: "فيما يتعلق بالثوّار الموقوفين، الذين لم تُطلق عليهم النار هناك، سوف أقوم بترحيلهم إلى جزر تريميتي على البحر الأدرياتيكي، مع الإقامة الجبرية. يمكن أن تستقبل هذه الجزر أكثر من أربعمئة معتقل. وسوف أرسِل إلى هناك مفتش الأمن العام لترتيب أمر استقبالهم".[19] لكن عدد العرب الذين نفاهم كانيفا عبر البحر بين 25 و30 من أكتوبر، كان يفوق بكثير ال 400. فقد بلغ بالتحديد 3425 فرداً. لذلك تم توزيعهم على خمسة وعشرين معتقلاً، خصوصا في أوستيكا وبونزا وكازيرتا وغايطا وفافينيانا.

لن تتيسر العودة أبدا إلى الديار للعديد من هؤلاء المنفيين ممن ينتمون إلى شتى الشرائح الاجتماعية، وممن تتراوح أعمارهم بين

---

[17] أنظر :
Romain Rainero, *Paolo Valera e l'opposizione democratica all'impresa di Tripoli*, "L'Erma" di Bretschneider, Roma 1983, pp. 97-101.
يتفق أيضا المؤرّخ الليبي حبيب وداعة الحسناوي بشأن عدد القتلى البالغ أربعة آلاف ؛ أنظر دراسته المعنونة بـ
Effetti psico-sociali delle operazioni di deportazione dei libici nelle isole italiane sugli esiliati e i loro parenti in epoca coloniale (1911-1943), in Francesco Sulpizi, Salaheddin Hasan Sury, *Primo convegno sugli esiliati libici nel periodo coloniale*, 28-29 ottobre 2000 Isole Tremiti, ISIAO, Centro libico per gli studi storici, Roma, 2002, p. 29.

[18] بالاعتماد على مراسلات الصحفيين الأجانب، نشر باولو فاليرا كتيّبا في 32 صفحة، مزودا بصور الإعدامات وعمليات النفي، بعنوان :
Le giornate di Sciara Sciat fotografie, Tipografia Borsani, Milano, 1911.
بيعت من الكتيب مئة ألف نسخة، ما يشهد على أنه لم يخدع كلّ الإيطاليين بتلك الموجة القومية والعنصرية.

[19] راجع في الأرشيف الدولة المركزية، وثائق جوليتي، العلبة 22، الصفحة 58، برقية 27979 بتاريخ 24 أكتوبر 1911.

سنة وتسعين سنة. يصف باولو فاليرا، وهو الصحفي الوحيد الذي تمكن من زيارة بعض مواقع المعتقلات، المعاملة غير الإنسانية التي رزح تحتها المعتقلون: "ففي أوستيكا، حيث يوجد العدد الأكبر، المكان عفن وغير صحي. وقد سبب وباء الكوليرا هلاك أكثر من خمسمئة شخص خلال بضعة أسابيع".[20] فالبؤس الذي أكرهوا على العيش فيه ساهم في حصد أرواح العديد منهم. ليست هناك دولة عاملت معتقلي دولة مثلما فعلته إيطاليا. فقد أطعمتهم باعتبارهم سجناء 600 غرام من الخبز وصحناً من الحساء المقرف. كما كانت مضاجعهم من بقايا القشّ القذر، الملقى على أرض أو المنثور على الحجارة أو المرمي على قطع الآجر، كالحيوانات".[21] ما زالت عذاباتهم إلى اليوم وعلى مسافة زمنية تناهز القرن تثير في ليبيا ذكريات مريرة، وصارت تشكّل جانبا من ملف النزاع الليبي الإيطالي.[22]

5. رغم عمليات القتل والنفي التي حدّت بلا شك من قدرة القوات العربية والتركية، قاد نشأت بك وسليمان الباروني ومحمّد فكيني خلال الساعات الأولى من صبيحة يوم 26 من أكتوبر رجالهم تجاه الخطوط الإيطالية وشنّوا هجوما جديداً على الجبهة الجنوبية، بين

---

[20] تتحدث وثائق الأرشيف عن 48 ميتا بسبب وباء الكوليرا خلال شهرين. انظر :
Salaheddin Hasan Sury, Giampaolo Malgeri. *Gli esiliati libici nel periodo coloniale (1911-1916), Raccolta documentaria*, ISIAO, Centro libico per gli studi storici, Roma, 2005, p. 171.

[21] Paolo Valera, *La fine dei prigionieri di Stato*, "La folla", n. 14, 27 octobre 1912, p. 20

[22] في الاتفاقات الإيطالية الليبية سنة 1998، تقرّر إجراء أبحاث مشتركة بشأن مصير المنفيين. تكلف بمهمة الأبحاث المعهد الإيطالي لإفريقيا والشرق ومركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية. نشرت إلى حدّ الآن أربعة أجزاء، عن مناطق الاعتقال التالية : جزر تريميتي وجزر أغادي وفافينيانا وجزيرة بونزا وأوستيكا.

بومليانة وسيدي المصري وتلة الهاني. تم صدّ المهاجمين في البداية على طول الخط، ولكنّ العرب والأتراك وفقوا حوالي الساعة الثامنة إلى فتح منفذ قرب ثكنة الخيالة والاستيلاء على بيت جمال بي، متغلبين على مفارز فوج المشاة 84 . يذكر ألدو كييريتشي، الذي كان حاضراً في ساحة المعركة: " أنّ الأعداء استطاعوا باندفاع رائع وشجاعة فائقة الوصول إلى الخنادق وتجاوزها. انتشر الأتراك والعرب في الميدان على مسافة خمسمئة متر، وهم يطلقون صيحات الظفر والإنتصار".[23] أكد محمّد فكيني رواية الصحفي ألدو كياريتشي إذ كتب في مذكراته: "احتلّ محاربونا (...) قلعة الهاني بعد معركة طاحنة ودماء غزيرة سُكِبت في المعسكرين. مما أجبر الإيطاليين على استعمال القصف المدفعي أثناء الانسحاب".[24] في تلك المواجهات بالسّلاح الأبيض، سقط أربعون من سكان الجبل من قبيلة الرّجبان ممن كانوا تحت قيادة محمّد فكيني.[25] كانت المواجهة شديدة وشرسة، وتمخضت عن خسارة كبيرة من الجانبين، مما أجبر الجنرال كانيفا على الزجّ باحتياطي الفوج 84 في أتون المعركة. لكن نيران المدافع ذات العيار الكبير، المنطلقة من البواخر الراسية على السّاحل وسلاح المدفعية البرية، هي التي تمكنت أخيراً من إيقاف العرب والأتراك. إلا أن الأوضاع كانت حرجة مما دفع كانيفا في 28 لإصدار الأمر بانسحاب كافة عناصر الجبهة الشرقية مُخلفين للمهاجمين حصني المصري والحميدية وموقع الهاني الاستراتيجي. وقد أرسل سليمان الباروني، مفتخراً بما تحقق من نجاح إلى وُجهاء غدامس هذه البرقية: "بعد مواجهات شرسة مع الوحدات الإيطالية،

---

[23] ألدو كياريتشي، المرجع نفسه، ص 105.
[24] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 18.
[25] المرجع نفسه، ص 31.

أجبرناهم على الفرار من الهاني ومن حصن المصري ومواقع ساحلية أخرى. غدا في 29من أكتوبر، سنتقدم نحو طرابلس، وبعون الله، سندخلها منتصرين. بشروا الأهالي بالخبر".[26]

لم يتسنَّ للعرب والأتراك دخول طرابلس يوم 29 من أكتوبر ولا خلال الأيام اللاحقة. لكنّ كانيفا رغم وجود أربعين ألف رجل تحت إمرته، قرّر ألاّ يبذل أي جهد لكسر الطوق المضروب، مُشيعا في طرابلس كما في إيطاليا المفاجأة والخيبة والسخط. وقد لخص كانيفا دواعي جموده الذي طال أكثر من شهر في تقرير أرسله إلى وزير الحرب باولو سبينغاردي في 6 من نوفمبر، مدّعيا أن شراسة العرب لم تكن في الحسبان، وأن تحالفهم غير المنتظر مع الأتراك غيّر إطار الوضع كليا، كما أعرب كانيفا عن موقفه قائلاً: " إنه من الأجدى، في الظرف الحالي، إعطاء الأولوية لـ"المبادرة السياسية بدلا من العسكرية"، مقترحا اغتنام الوقت الضائع، والتحرّك عبر الدعاية الفاعلة، لتحييد العرب عن الأتراك، بغرض تجنب "تعميق هوّة الدماء التي وجدنا أنفسنا للأسف مُكرهين على حفرها بيننا وبين رعايانا في المستقبل". مشيرا في النهاية إلى"وباء الكوليرا الذي بدأ يزحف بين الوحدات العسكرية". كما يوصي الجنرال كانيفا، في الوقت الحالي، بعدم خوض أي هجوم موسع.[27]

كان وباء الكوليرا قد بدأ ينتشر في طرابلس منذ أشهر، خصوصا في آبار الواحات وبين واحات النخيل، وقد أهلك عددا من المنفيين الليبيين أثناء إبحارهم نحو إيطاليا.[28] وبتاريخ 13 من أكتوبر، وقع

---

[26] الأرشيف التاريخي لأركان حرب الجيش الإيطالي, الظرف 2, الورقة 5.

[27] وزارة الحرب، حملة ليبيا، الجزء الثاني، المكتبة الوطنية، روما، 1924، ص225-229.

[28] كما تخبر الوثائق الإيطالية، كانت الجثث تلقى في البحر، وأحيانا قرب السواحل. هذا ما نشرته صحيفة " : " *L'Ora*ليومي 8 و 9 نوفمبر 1911 : "الأوضاع في أوستيكا الآن في غاية الخطورة. بسبب جثث العرب

أحد البحارة في إيطاليا كضحية أولى لوباء الكوليرا. في الأشهر الثلاثة اللاحقة تُوفي بسببه 7 ضباط و369 جنديا. بلغ انتشار الوباء أوجه في شهر ديسمبر وضرب أيضا المعسكرين التركي بسواني بني آدم والعربي بعين زارة.

مع مطلع شهر نوفمبر أصيب محمّد فكيني بالكوليرا أيضاً وهو يروي في مذكراته: "بناء على نُصح الأطبّاء نُقِلت إلى الجبل. تولى ابن عمي عمر عراب مكاني على رأس وحداتنا، للقبائل التالية: رجبان وزنتان وريانية، وتلك التي يقودها سليمان الباروني. بعد سفرة دامت أربعة أيام بلغت صرمان وأقمت لدى الشيخ عبيدة بن زكري أفندي. بعد ثمانية أيام طلبت من مرافِقي نقلي إلى البيت، في ناحية رجبان، حيث مكثت هناك حتى شفيت".[29]

في مستهلّ شهر أبريل سنة 1912، بعدما شفى كليا ، أرسلَ محمّد فكيني رسالة مترجمة إلى اللغة التركية أيضا، إلى العقيد نشأت بك وإلى النواب الليبيين في طرابلس الغرب وإلى بعض القادة. وضع خلاصة تأملاته في عشر نقاط، مما يشير إلي أن فكيني لم يكن قائداً عسكرياً فحسب بل كذلك قائداً سياسياً يتمتع بحنكة عالية. في النقطة الأولى، يكتب مثلا : "يتحصّن العدوّ باستمرار في قلب الولاية خلف قلاعه وفي خنادقه. يتطلب الأمر صبرا واستراتيجيات كفاح جديدة وبالخصوص جندا، علينا السعي للبحث عنهم في كلّ المناطق، حتى النائية منها". في ما يتعلق بالتجنيد اللاحق، رأى فكيني في النقطة الخامسة: "من الضروري إبلاغ كافة المناطق البعيدة بالأوضاع

الملقاة من الباخرة "سان جورجيو" على مقربة من السواحل، فقد توقف بيع الأسماك. (...) دفن عرب آخرين هلكوا بسبب الكوليرا، تحت رمال قليلة، في أراض تابعة للأهالي، يُبقيهم عرضة للكلاب الضالة، مما يشكل خطرا آخر على الصحّة العامّة".

[29] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 19.

الحالية. فممّا يلاحظ أنه لم يفد أيّ مجاهد من فزّان، من ورفلة، من سرت، من الواحات، من الجفارة، من نالوت، من غدامس. أرى أن هذا الإهمال يعود شأنه بالأساس إلى قادتهم. ينبغي إذن إرسال أناس لتجنيد المجاهدين بحسب نِسَبٍ مُقدرَة سلفا".[30]

كتب محمّد فكيني في النقطة السّابعة، متابعا تحليل الأوضاع : "في النهاية، من الجدير إرساء وئام بين المدنيين والعسكريين، إذ ينبغي أن يعيشوا ويتحرّكوا بانسجام تام بينهم، مشكلين بذلك جبهة صلبة موحدة". اختتم فكيني تأملاته بهذه العبارات : "أعتقد أن هذه المقترحات ينبغي أن تأخُذ بعين الاعتبار أوضاع الحرب الحالية من جانب، والواقع العربي في مقاومة الأجانب من جانب آخر. أشكركم مسبقا إذا تفضلتم بعرض هذه النصائح على المسؤولين الكبار في الخلافة. نسأل الله العون في جهادنا وأن يثبّت خطانا على الطّريق المستقيم بجاه نبيّه الكريم".[31]

وهكذا، شخّص محمّد فكيني الحقيقة ووضح مظاهر عديدة للتخاذل والانقسام غير المبرر. فمن خلال الخبرة التي اكتسبها على مدى ثلاثين سنة وفي كافة المستويات التي خدم فيها بصدق ووعي الإمبراطورية العثمانية ورعاياها، يبدو بوضوح إنه لم يكن يخشى أحداً في عرض آرائه ومقترحاته التي لم تقتصر على الإستراتيجيات العسكرية، بل حثت باستمرار على الالتحام المتين بين العسكريين والمدنيين، بشكل "يضمن إشاعة الأمن العام ضدّ اللصوص والمجرمين الذين يزرعون الرّعب في شتى المناطق، بسبب موظفين غير أكفاء، وعناصر درك مهملين وقادة عسكريين أفرطوا في

[30] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 20.
[31] المرجع نفسه، المكان نفسه.

التسامح".[32]

تثبت وثيقة محمد فكيني أن السلطات الإيطالية كانت تنطلق في علاقاتها مع العرب من آراء مسبقة خاطئة ومنحازة، بل كانت على جهل مطبق شامل بمستوى خصومهم الحضاري. وفي الوقت الذي كان يتنامى فيه، في الخنادق الإيطالية في الطرابلس، حقد مفرط ومتناه للعرب والأتراك، يشوه حقيقتهم، ويحولهم إلى وحوش وشياطين، ويستثير غرائز الرغبة في القتل، كان محمد فكيني بالمقابل يسجل في هذه الوثيقة مثالا عليا في الحكمة ودرسا بالغا في التمدن والتقدم الحضاري، ويقدم لنا المقاومة الليبية في وجهها الإنساني الحقيقي المضيء بالنبل والمشروعية.[33]

---

[32] المرجع نفسه، المكان نفسه.

[33] للاطلاع على أحداث شارع الشط وعلى عمليات القتل والنفي، أنظر :
Angelo Del Boca, *op. cit.*, pp. 96-124 ; Lino Del Fra, *Sciara Sciat. Genocidio nell'oasi*, Datanews, Roma, 1995 ; Sergio Romano, *La quarta sponda*, Bompiani, Milano, 1977.

الفصل الثالث

الصراع مع سليمان الباروني

1. لفكّ الحصار العربي التركي المضروب على طرابلس، قام قائد الأركان العامة للجيش، الجنرال ألبرتو بوليو، بإمداد كانيفا بتعزيزات متزايدة بين شهري نوفمبر وديسمبر 1911 تمثلت بإرسال 55 ألف رجل من شتى الصنوف العسكرية، و 84 مدفعاً ميدانياً و 42 لقصف الجبال، و 28 للحصار، و8300 رأس من الدواب للنقل، و1500 مركبة نقل آلية، وأسراب جديدة من طائرات الاستكشاف والقصف، وكمية هائلة من القنابل المعبّأة بالغازات الخانقة التي لم يتم استعمالها. ومع نهاية عام 1911 كان في ليبيا 103 آلاف جندي يصحبهم 24 جنرالا. علماً بأن إيطاليا لم تدفع إلى الميدان بمثل هذا الجيش منذ عام 1866، أي منذ الحرب الثالثة للاستقلال. ومع ذلك، كما لاحظ الجنرال غوستافو بيزنتي، لم يكن هذا الجيش رغم قوته "يتناسب مع اتساع ساحة العمليات. ومع خاصية العدو السريع الحركة، الحاضر والغائب والعَصي في الوقت نفسه، فهو ينتشر على سواحل تمتد على ما يقارب 1800 كيلومتر، ويسيطر على المناطق الداخلية".[1]

مقابل تعزيزات الحملة العسكرية الإيطالية، حصل المعسكر العربي على دعم أيضاً، خصوصا عبر الحدود مع مصر وتونس.

---

[1] Gustavo Pesenti, *Le guerre coloniali*, Zanichelli, Bologna 1947, p. 282.

وحسب المعلومات التي وردت إلى الجنرال كانيفا، تسرب 300 ضابط تركي عبر الحدود التّونسية بين أكتوبر 1911 وفبراير 1912، علاوة على حشد هام من المتطوعين المصريين والتونسيين والمغاربة والسوريين والجزائريين واليمنيين. كما كانت التموينات والأسلحة أيضا تمر من جانبي الحدود، خصوصا من الناحية التونسية. ففي رقدالين على التراب الليبي، تمّ بناء مخزن كبير تمدّه أسبوعياً بالمؤونة القوافل المكونة من 1000 إلى 1500 جمل. وقد سمحت هذه الإعانات الهامة للقائد التركي بتجنيد عدد أكبر من الرجال، ففي نهاية عام 1911 بلغ عدد المتطوعين العرب قرابة 30 ألفا في طرابلس الغرب وبين 20 و25 ألفا في برقة. يتقاضى جميعهم راتبا منتظما، في حين خصّصت لأسر الشهداء مبالغ شهرية. في شهر نوفمبر 1911، تم تشكيل الإدارة العسكرية التركية العربية في طرابلس التي ضمت نشأت بك، الوالي والقائد العسكري الأعلى، فتحي بك الذي كان قد أوفِد سرّا منذ فترة قريبة من اسطنبول إلى طرابلس وهو يشغل مهمة قيادة العمليات العسكرية، وسليمان الباروني وعمر عراب بي، قائدي المحلات العربية والبربرية القادمة من الجبل.[2]

بصراحته المعهودة القاسية أحياناً، يعلّق محمد فكيني في مذكراته على موضوع المساعدات التي ترد إلى ليبيا من تركيا وبلدان إسلامية أخرى بقوله:

"تضاعفت واردات الإعانات وكثرت الإمدادات حتى اقتنع أهالي هذه القطعة الإفريقية بقدرتهم على مقاومة العدو ولو طالت السنون بما توفّر لديهم من العدد والعدة ممن هرعوا من كل حدب وصوب

[2] في برقة كان يدير العمليات ضدّ الإيطاليين العقيد أنور باشا، الذي أصبح لاحقا وزير الحرب في تركيا.

لتحصيل هذه القُربة التي منَّ الله بها عليهم ولصدّ عدوهم. إلا أنه لسوء حظ هذه الولاية، لمّا رمقت أعين رؤساء القبائل ما توفّر للخزينة من واردات وإعانات إخواننا المسلمين مدّوا أيدي الطمع ونصبوا شباك الاختلاس وفي مقدمتهم بعض أمراء العسكرية. وأرأس الرؤساء انحرافاً وقتئذٍ المبعوث سليمان الباروني، وأجرأ على ذلك ساسي خزام، عاملهما الله بسوء فعلهما آمين في الدنيا والآخرة، والناس يظنون سليمان على ديانة وأمانة وغيرة وطنيّة، خصوصاً جيراننا أهل تونس ومصر جازاهم الله بأحسن الجزاء فيما صنعوا مع كل فرد من الطرابلسيين من المعروف وإسداء النعم، وغيرتهم التي حملتهم على إعطاء نفيسهم سواء منهم الغني والفقير ؛ فإن هاته المحمدة لا تُنسى لهم مدى الدهور والأزمنة. فسليمان في حقيقة أمره غير ما يظنون، بل هو في حقيقة الأمر خراب في جيش المسلمين، وبيان ذلك أنَّ الدولة الإيطالية تتمنى أن يكون في جيش المسلمين من يوهنهم بشيء ما. وهذا المذكور ومن نحا نحوه قاموا بهاته الوظيفة الخبيثة التي لا تصدر إلا عن منافق...".[3]

ثم يواصل محمّد فكيني هجومه على حليف الأمس، مبيناً موقف القادة العسكريين الأتراك :

"هذا كله بمرأى ومسمع من أكابر الأمراء الذين حكم عليهم السكوت خوفاً من تفرُق الكلمة. أما أنا فلم يسعني السكوت ولا زلت أحثّ القومندان على إزالة أسباب الفساد وهو يتعلل بما ذكر من خوف تفرُق الكلمة".[4]

وللتعبير عن إحساسه بالمرارة وعن خيبة أمله، يوضّح فكيني أن

---

[3] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 25 .

سليمان الباروني انتهز فرصة علاقاته المتينة مع القائد الأعلى التركي، فتخلص من عمر عراب بي، بتنحيته عن الجبهة وإبعاده إلى فساطو بمهمّة قائمقام. في هذه الأثناء أقنع العقيد نشأت بك كي يجعل من ساسي خزام، وهو من أتباع المذهب الأباضي، أمين مال كافة محلات الجبل، كما دفع ببربري آخر، هو موسى قرادة، كي يُنصَّب رئيس بلدية على قصر يفرن. ويضيف فكيني أن الشكاوى حول الاختلاسات ، إلى جانب التحيز لصالح الجماعة البربرية، قد أساء إلى غالبية المجاهدين، وهم من العرب، فعبروا عن احتجاجهم على ذلك بترك ساحة المعركة.

"عندما اكتشف العدو ما يجري في معسكرنا، أسرع إلى مهاجمة المواقع الضعيفة وأوقع بها الطامة الكبرى (...) وانقلب بسبب ذلك الحال، فبعد أن كان المسلمون يناوشون العدو على أبواب مدينته المحاصرة ويحاولون دخولها، ها هي هزيمة الجيش الإسلامي تقع بسبب خذلان الباروني وخلو الساحة من المجاهدين الذين تركوها بسبب خيبتهم من تصرفاته واحتجاجاً على ممارساته. وتقهقر المسلمون في 24 ديسمبر سنة 1911 يقاتلون منسحبين إلى سواني بني آدم (...) وعلى الرغم من مرضي اجتهدت في جمع وإرسال الرجال والإبل لمنع تردي الأوضاع أكثر فأكثر. ولقد خابرت تلغرافياً أو تحريراً سلطات مراكز القضاء في غدامس ونالوت ونجاد طالباً منهم النفير لخط الحرب على وجه السرعة لمؤازرة إخوانهم المسلمين".[5]

من الصعب، بناءً على الوثائق التي بحوزتنا اليوم، تحميل

---

[4] المرجع نفسه، المكان نفسه.

[5] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 27.

مسؤولية هزيمة جنزور بالكامل إلى مناورات سليمان الباروني الماكرة. فمن المؤكد أن الجنرال كانيفا كان لديه جهاز استخبارات جيداً، ولا يمكن أن يغيب عنه الخلاف المتصاعد بين العرب والبربر في جبهة الخصم بمهاجمة واحة جنزور، الشوكة المؤلمة في خاصرة القوات الإيطالية اليُمنى، كان كانيفا يعوّل على قطع خطّ الإمدادات الواردة من تونس. وأثناء العملية، التي سيّرها الجنرال بييترو فروغوني برفقة قائد أركان جيشه الشاب بييترو بادوليو، الذي سيُرَقى لاحقا إلى ماريشال في إيطاليا، تم الزجّ بـ14 ألف رجل وخمسين مدفعا، علاوة على دعم مدفعية ثلاث بواخر ومساندة الطائرات والمناطيد. انطلقت المعركة في السّاعة الرابعة وأربعين دقيقة، يوم 3 من يونيو 1912، وانتهت السّاعة الرابعة بعد الظهر، عندما أُجبر العرب والأتراك على الانسحاب من كافة الجبهات. تكبّدت القوّات الإيطالية خسارة قدّرت بـ330 رجلاً، بين قتلى وجرحى؛ أما في جبهة الخصم فقد بلغت الخسائر 1130 قتيلا وعددا موازياً من الجرحى.

2. كان الصدام بين محمّد فكيني وسليمان الباروني في بدايته، يغذّيه حقد دفين بينهما توارثه الأبناء عن الآباء. لا يستطيع العرب تحمّل وجود البربر، خصوصا في الجبل. والبربر، من جانبهم، يفخرون بكونهم سبقوا العرب بقرون في الوصول إلى ليبيا. أخمد الاعتداء الإيطالي سنة 1911 الضغائن التي كانت تدبّ بين الجماعتين وهيّأ ظروفا مناسبة للتحالف، لكن ذلك لم يستمرّ طويلاً. كان سليمان الباروني وطنيا مخلصا، علاوة على ما يتمتع به من

ثقافة عالية،[6] لكنه لم يكن يرغب بمشاركة شخصيات أخرى لها صيت في الوجاهة والسلطة. كان معروفا أيضا بأنه لم يكن يردعه أي وازع لبلوغ أهدافه، وفي أكثر من مرة عبر مشوار معارضته الطويل كان متهماً بسوء الائتمان.[7]

كان سليمان الباروني منذ أمد بعيد يتطلّع لإنشاء كيان مستقلّ في ولاية طرابلس الغرب، تحت سلطة بربرية. وبرغم انتخابه نائباً عن جبل فساطو سنة 1908، كانت علاقاته مع تركيا مضطربة بشكل دائم، أودِع ثلاث مرّات السجن لدعوته لتحرر ليبيا من الوصاية العثمانية وحقها في تشكيل جمهورية مستقلة. كان سليمان الباروني يدرك تمام الادراك أن العرب والأتراك ليست لهم القدرة على ردّ الإيطاليين نحو البحر. لكنه كان متنبهاً أيضاً إلى أن إدارته للصراع على أعلى المستويات إلى جانب الترك سيسمح له في نهاية الحرب أن يلعب ورقته بالاتفاق مع الإيطاليين على ذلك الكيان المستقلّ الذي لم يوفّق في الحصول عليه من الباب العالي.

وهذا ما يفسّر بحثه بشتى الطرق للتخلص ممن يحتمل أن يعرقلوا مخططه الطموح. بدءا من محمد فكيني، ومن أخيه نائب الجبل أحمد فاضل، ومن النائب الطرابلسي الآخر فرحات بي. كما رأينا، ما كانت هذه المناورات لتغيب عن محمّد فكيني الذي نبّه القائد التركي نشأت

---

[6] ولد سليمان الباروني في جادو في جبل نفوسة سنة 1870، وانتخب نائبا عن الجبل سنة 1908. وفي السنة ذاتها أصدر في القاهرة مجلة "الأسد الإسلامي". في سنة 1913 بعد معركة الأصابعة وفراره من طرابلس الغرب طبع في اسطنبول، لدى مطبعة جريدة العدل، كتيبا بعنوان مذكرات الباروني، أو رسالة باللغتين العربية والتركية تحوي خطابه الشهير. الوثيقة مستهلة بسيرة موجزة.. "Studi Piacentini", n. 12/1992

[7] سنة 1913، بعد معركة الأصابعة الفاشلة وفراره إلى تونس، فنّد سليمان الباروني الاتهامات التي وجهتها إليه الصحافة الإيطالية بقوله : "لو ثبت أن يدي قبضت درهما من إيطاليا، فلن أتوانى في قطعها. (...) فمبلغ 2767 نابوليوني الذي بلغني إعانة (من بعض الأهالي)، لا يكفي لتسديد أجرة الابل المخصّصة لنقل المؤونة لشهر واحد لمجاهدينا. لقد كان علي أن أدفع من مالي الخاص، وهو ما لا يعلمه أحد، ولو لم أكن مجبرا ما صرّحت بذلك، لأني صرفته لوجه الله والوطن ولا مزية لي في ذلك" (ذكر في : سليمان الباروني، المرجع نفسه، ص 166-167)

بك لكن بلا جدوى. وبالفعل دفع سليمان الباروني بخطّته قُدُما، فأزاح الموظفين القدامى واستعان بالقائد التركي على وضع أعيان من البربر في المواقع الحساسة في الولاية.

جرّاء ما حزّ في نفسه مما اعتبره إجحافا في حق الأغلبية العربية السنّية، بعث محمّد فكيني في شهر مايو 1912 رسالة مطوّلة إلى العقيد نشأت بك، اشتكى فيها مرّة أخرى وبصراحة تامة من مناورات سليمان الباروني الماكرة.

"إلى قومندان الحرب وأركان الدولة حضرة الوالي - مايو 1912

اناشدك الله يا حضرة القومندان أن تكشف الحقيقة حول الأحداث والأشخاص المسؤولين في تلك المرحلة،ومن هو بالفعل قطب الرحى وقائد المسيرة : أنا أم الباروني وعصابته الفاسدة ؟ وأذكرك بما فعله من غشّ وتآمر في انتخابات المبعوثية، وبما سعى فيه لديك للموافقة على تعيين أقاربه وأصدقائه في المراكز المهمة على الرغم من عدم كفاءتهم، وكان يتجاهل أهل الفضل من العرب ويبعدهم عن تلك المناصب... وأخيراً فقد ساعدتموه بنصبه عضواً في مجلس الأعيان... وللأسف فإنه استطاع خداعكم والتأثير عليكم بأكاذيبه، فأهملتم واجبكم بالتزام العدل والإنصاف تجاه العرب، وتجاهلتم مكانتهم الرئيسية ودورهم الأساسي في هذه الحرب المقدسة... واسمحوا لي أن أنبهكم لتلافي هذه الأخطاء وتحقيق العدالة بين الناس ووضع الإنسان المناسب في الموقع المناسب. إنهم الآن في حالة يأس من رؤسائهم وضباطهم تنذر بثورتهم على هذه الأوضاع الجائرة.

أنتم مسؤولون أمام الله والحكومة والمسلمين، ويجب عليكم أن

تضعوا حداً لفساد الباروني وتآمره، وأن تسهروا على حماية مصالح المواطنين ووحدتهم".[8]

يبدو أن محمّد فكيني لم يكن يعول كثيراً على القائد العام للقوات التركية، لأنه بعث في الوقت نفسه برسائل إلى الخليفة، وإلى رئيس الوزراء التركي، وإلى وزيري الحرب والداخلية، وإلى بعض القادة الليبيين، مفصحاً عن اتهاماته ذاتها لسليمان الباروني. في الرسالة التي بعث بها إلى رئيس الوزراء، اغتنم فكيني الفرصة لتوضيح الحالة النفسية الانهزامية للجنود الأتراك، لحظة نزول الإيطاليين:

"- إلى مقام الصدارة العظمى.

- إلى نظارة الداخلية.

- إلى نظارة وزارة الحربية.

إن انتخاب المبعوثية هذه السنة في ولاية طرابلس غرب لم يكن حسب قواعد صحيحة وعادلة، حيث تجب زيادة مبعوث عربي سني لتمثيل الجبل بشكل متناسب مع نسب سكانه، وأكثريتهم من العرب...

.

"يتألف الجبل من سكان عرب بنسبة خمسة أسداس وهم من أصول القبائل القادمة من الجزيرة العربية أثناء الفتوح الإسلامية. وفيه بقية من البربر يسمّون نفوسة وهم إباضية ونسبتهم سدس السكان.

وعندما بدأ الغزو الإيطالي فأنا الذي بادرت أولاً بتحشيد عربان

---

[8] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 31-37.

الجبل، وصاحبني في ذلك الشيخ سليمان الباروني المبعوث على رأس قبائل من نفوسة. وتوجّهنا جميعاً إلى سواني بني آدم لنجدة القومندان نشأت وعساكر الدولة الذين كانوا في حالة قلق وخوف ويأس، فشجّعتهم على الصمود والمقاومة وعدم التسليم، واستنفرنا عموم القبائل وعموم عربان الولاية لتحشيد المقاتلين وجمع الإبل وإرسال الجيوش إلى ميدان المواجهة...".[9]

رغم تصرفات سليمان الباروني، التي أضعفت ولا شك الجبهة العربية التركية، بقي الإيطاليون مجمدين في مواقعهم على الساحل. وفي نهاية يوليو 1912، أو بالأحرى بعد عشرة أشهر من عمليات الإنزال بطرابلس الغرب، لم يتمكن الجنرال كانيفا إلا من إقامة بعض رؤوس الجسور المتواضعة: في طرابلس والخمس ومصراتة وبوكمّاش وسيدي سعيد. كما لم يتجاوز الاختراق، في أي قطاع، خمسة عشر كيلومتراً. من جانبها لم تُبدِ تركيا أي وهن، ولم تحرجها الغارات البحرية على البحر الأحمر، ولا الهجمات على مضيق الدردنيل الحسّاس ولا حتى احتلال رودوس والجزر الأخرى بدوديكانيزو في مايو عام 1912.

رغم أن جوليتي دفع في ليبيا بجيش قوامه 100 ألف رجل وكلف البحرية بمهمة ضرب تركيا في عقر دارها وأراضيها، فهو قد تنبه مبكرا أن السلاح وحده لا ينهي الصراع. كان مقتنعا بذلك إلى درجة دفعته في نهاية شهر مايو إلى السماح للخبير المالي جوسيبي فولبي، الذي أصبح والي طرابلس الغرب لاحقاً، وربما هو الخبير الأدرى بشؤون الإمبراطورية العثمانية حينئذ، للتحوّل إلى اسطنبول. رسمياً وظاهرياً، توجه فولبي إلى تركيا لرعاية مصالحه الخاصة، باعتباره

[9] المرجع نفسه، ص 45.

رئيس شركة المشرق التجارية، لكن في الحقيقة كان مكلفاً بمهمّة بدء "المحادثات الجادة" مع الوزراء المتنفذين في تركيا،[10] مثل وزير الحرب محمود شوكت باشا، ووزير الشؤون الخارجية حازم بك، والوزير الأعظم سعيد باشا. بعد هذه المحادثات، اتفقت الحكومتان على بدء مفاوضات سرية في سويسرا باعتبارها دولة محايدة.

في الحقيقة، كانت كلّ من إيطاليا وتركيا متحمّستين لوضع حد لهذلك الصراع. فقد بدأ العرب والأتراك في ليبيا، الذين يواجهون خطوة خطوة التقدم الإيطالي على جميع الجبهات، يعانون من نقص الأسلحة والمؤونة، وصاروا مجبرين على إعادة تعبئة الذخيرة المستعملة. في 21 من يوليو، أرسل القائد العام للقوات العربية التركية في طرابلس الغرب، نشأت بك، برقية إلى قادته في اسطنبول جاء فيها : "نفتقد في الوقت الحالي إلى الذخيرة والمؤونة لإتمام مستلزمات الدفاع. بحوزتنا 17 ألف بندقية من مختلف الأنواع. (...) أعتقد أننا لو حصلنا فوراً، وفي نطاق الممكن، على ذخائر وعلى 50 ألف بندقية من طراز موزر، لن يتمكن العدو من التقدم خطوة واحدة خارج الساحل. وبدون ذلك، أرى أنه من الأحسن الانطلاق في حلّ المسألة دبلوماسيا، حقناً لدماء الأبرياء"[11].

كانت الأوضاع في برقة أفضل بقليل ويعود ذلك إلى المقدرة العسكرية العالية لأنور باشا وإلى التعزيزات المستمرة القادمة من مصر. في 25 من نوفمبر سنة 1912 سجّل أنور باشا في مذكراته: "في النهاية كان خيار التفاوض ! ها أنا أترك مملكتي في برقة

[10] Giovanni Giolitti, *Memorie della mia vita*, Treves, Milano 1922, vol. II, p. 416.
[11] ذكر لدى:

Paolo Maltese, *La terra promessa*, Sugar, Milano, 1968, pp. 297-298

العزيزة على قلبي والموقعَ الذي تمتع باستقلالية نوعاً ما، لأعود إلى اسطنبول ولأستأنف العمل هناك كعقيد. وحسب الرسالة الرّسمية الأخيرة الواردة من اسطنبول، لا يبدو أني سأستمر هنا طويلا. (...) كانت الأوضاع ستأتي بثمارها، ومحصول سنة من النّشاط كان ينبئ بنتائج طيبة. وكان الشعب ورائي، من الفلاحين إلى الشّيخ الأكبر، ينتظرون إشارة مني لبذل أيّ تضحية".[12]

حتى وإن كان بمقدور برقة الاستمرار في المقاومة لمدّة أطول، فإن الباب العالي قد حثّ الخطى للتفاوض مع إيطاليا ووقع في 28 من أكتوبر في مدينة أوشي معاهدة سلام. فما كان قد بدا لجوليتي مجرّد "نزهة عسكرية" تطلّب من إيطاليا سنة من الحرب، وكلّف مبلغا يقدّر بحوالي 1700 مليون ليرة ، وخسائر بشرية بلغت 3421 جنديا. لقي 1483 منهم حتفهم في المعارك وقضى 1949 منهم بسبب الأمراض. ولا حاجة للقول إنّ ليبيا كلها ستكون عرضة للغزو مجدّداً بعد رحيل الأتراك، خاصة وأن العرب - كما كان يخشى - هم الذين سيتابعون الحرب بحوافز أعمق.

لم يتحقّق الاحتلال الكامل للأراضي الليبية فعلياً إلا بعد عشرين عاماً، أي سنة 1932.

[12] أنور باشا، المرجع نفسه، ص 71.

الفصل الرابع

فاصل السلام

1. في ليبيا كان وقع خبر توقيع معاهدة سلام بين الإيطاليين والأتراك في أوشي، يوم 18 من أكتوبر 1912 ، بمثابة الصاعقة، فهو كما لاحظ مصطفى حامد رحومة تسبب "بوقوع الاضطراب والفوضى في صفوف المجاهدين وشقّ الجبهة الداخلية. بالإضافة إلى ذلك، فإن انسحاب الوحدات العسكرية والجهاز الإداري التركي وجّه ضربة قوية لحركة المقاومة العربية".[1]

مناخ الشك والتردد المطلق الذي ساد في طرابلس الغرب بعد إعلان السلام أكده محمّد فكيني إذ يقول في مذكراته: "انسحب القائد العثماني مع قواته إلى الزاوية الغربية مما سبب اضطراباً كبيراً بين الناس، فاجتمع الأعيان في العزيزية لمناقشة الوضع والوصول إلى حلّ مناسب".[2]

قبل مغادرة طرابلس مع 2600 من جنوده،[3] دعا العقيد التركي نشأت بك، أهمّ القادة العرب والبربر وألقى فيهم الخطاب التالي: "لقد تمّ توقيع السلام، وبشكل رسمي لا تستطيع الحكومة التركية مدّ يد

---

[1] مصطفى حامد رحومة : "المقاومة الوطنية الليبية للغزو الإيطالي"، ص 3. محاضرة ألقيت في ملتقى : تاريخية العلاقات الإيطالية الليبية من 1900 إلى اليوم، بإشراف قسم العلوم التاريخية بجامعة بيروجا، (11-13 مارس 1985).

[2] محمد فكيني، المذكرات، ص 51.

[3] غادر نشأت بك طرابلس في 8 من ديسمبر 1912، مبحرا مع جنوده على متن الباخرتين "فيرونا" و"سانيو".

العون للاستمرار في الحرب، لكن هناك من يقدِر على ذلك، وهي جمعية الاتحاد والترقي. أستطيع أن أضع بين أيديكم المؤونة التي طُلِبت و20000 ليرة تركية، علاوة على مبالغ أخرى ستَرد من جمعيات أخرى في تونس ومصر. أما الذخائر فلا أستطيع مدّكم بها، ولكني سأترككم تأخذونها، وكذلك البنادق، وسأقول إنكم استوليتم عليها".[4]

بعد استماعهم لكلمة الوداع التي ألقاها نشأت بك، اجتمع القادة والأعيان في العزيزية، وناقشوا طويلا مقترحات الوالي العثماني والخطوات الواجب اتخاذها، لكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق. يوضح محمّد فكيني: "فكان رأي أهل السواحل وغريان وترهونة التسليم، أما رأي أهل الجبل، عرباً وبربراً، وعربان القبلة (وأولاد يوسف وقسم من ورفله) فقد قرروا على العكس التراجع إلى الرابطة على مسافة يوم من العزيزية، بهدف متابعة المقاومة".[5] كان سليمان الباروني من أكثر المؤيّدين لمواصلة الحرب، فقد كان متيقنا من مساندة الحكومة العثمانية ومن تضامن العالم الإسلامي معهم. كما أشار أيضا إلى أنه حتى وإن كانت المقاومة مجبَرة على التوقف في النهاية، "فسيكون لها الأثر المعنوي الذي لا يخفى، وستمهّد الطريق لامتيازات مادية أوفر".[6]

وكما نعرف، كان سليمان الباروني منذ سنوات يحلم بإمارة بربرية في طرابلس الغرب، وكان يرى في الأوضاع التي حلت برحيل

---

[4] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 14/150, الورقة 55. من تقرير الوالي أوتافيو رانيي إلى وزير المستعمرات (19 يونيو 1913) معنون : مسألة الجبل, الوضع السياسي.

[5] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 51 .

[6] Francesco Corò, *Suleiman el-Baruni. Il sogno di un principato berbero e la battaglia di Asàbaa*, "Gli Annali dell'Africa Italiana", anno I, n. ¾ dicembre 1938, p. 960.

الأتراك أن الفرصة سانحة لتحقيق خطته الطموح. حاول محمّد فكيني إقناعه بلا طائل، مذكرا إياه في لقاء لاحق بقصر يفرن، أن سكان طرابلس: " فقراء وعزّل من السلاح فكيف تستطيع شرذمة من أهالي الجبل أن تحارب وحدها دولة كبرى كإيطاليا بعد أن عجزت تركيا أمامها".[7]

ما كانت كلمات فكيني الرصينة لتثنيه عن عزمه، فقد انطلق الرجل في تحقيق مشروعه، ولم يترك أية وسيلة أو سبيل لتحقيق ذلك. فهو يفوق بالتأكيد، لثقافته وتمرسه بالمناورات السياسية وخصوصاً مخيلته الواسعة كافة القادة الليبيين الآخرين المنطوين على عالمهم القروي الصغير. وهو يتجاوزهم أيضاً بسفاهته ووقاحته إلى حدّ تقديمه ـ كما يذكر محمد فكيني ساخطاً ـ، "رجلاً يدّعي أنه شيخ المتصوّفة في الأناضول، وأنه يحمل معه سرّا أمراً من السلطان بتعيين الباروني قائداً أعلى لجيوش الجهاد ".[8]

تقوّى الرّجل بهذا الارتقاء وبقدرته على التصرف بمبلغ 20000 ليرة تركية و 12 ألف كيس من المؤونة المخزونة في بن قردان، تركها له القائد التركي. اندفع القائد البربري بتهور في ذلك المسار، مقتنعا بإمكانية جر البربر والعرب إلى الجهاد من جديد. لم ينخدع محمّد فكيني بذلك ولم يرهب، وبخلاف ذلك، عارض الأمر وأطلق نداءً إلى كافة سكان الجبل يدعوهم فيه للتريّث قبل استئناف الحرب وانتظار رد السلطات الإيطالية حول" الرغبة في البقاء مستقلين بنظام حكم ذاتي، كما الشأن في تونس ومصر".[9] في هذه الأثناء كتب

---

[7] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 52.
[8] المرجع نفسه، ص 53.
[9] المرجع نفسه، ص 56.

فكيني إلى نشأت بك مستحلِفاً إياه ألاّ يمكّن سليمان الباروني من وضع يده على المال أو على المؤونة، لكن العقيد الذي كان على أهبة الرحيل بعث برده الحاسم في 18 من نوفمبر: "لقد تركنا لأبناء الشهداء شيئا من المال والمؤونة مما لم نستطع حمله. لا نعلم شيئا عن الأمتعة التي بقيت في بن قردان كما أننا لم نهد شيئاً لأحد".[10] لا بد وأن نشأت بك كان يدرك تماماً أن هذا الكلام كاذب، لكن لتبرئة ذمته علينا أن نقر أنه لا بد وقد سئم من الخلافات المستديمة بين الليبيين.

رغم تدخلات محمّد فكيني وحلفائه، تمكن سليمان الباروني من وضع يده على كافة الممتلكات التي خلفها الأتراك وتراجع فوراً مع أتباعه إلى مرتفعات قصر يفرن بانتظار تبدّل الأحداث. هكذا يصوّر القائد البربري تحقق حلمه: "بعد إرساء السلام بين الإمبراطورية العثمانية وإيطاليا وبعد أن بلغنا رسميا خبر من الحكومتين أن جلالة السلطان منح سكان طرابلس الغرب حكماً ذاتياً إدارياً جامعاً وشاملاً،[11] قررنا التعهد بما سمي بالحكم الذاتي بالاتفاق مع الأهالي، الذين دعونا إلى قبول رئاسة تشكيل الحكومة. قُدِّمت إليّ طلبات عديدة موقّعة من الأهالي وقد قبلتها وأسرعت لهذا الغرض بإرسال برقيات إلى القوى العظمى وإلى الصحف ذات المصداقية. وأسست بالتالي حكومة على أساس القانون واللوائح المدنية، وقمت بتسمية متصرفين وقائمقامين ومديرين وقضاة ومفتين وموظفين آخرين. وشكلتُ فيلقاً من الجنود، يتألف من المشاة والخيالة والهجانة ببدلات عسكرية أوروبية. كما نظّمتُ البريد في كلّ مكان وأحدثت مكاتب

---

[10] المرجع نفسه، ص 62.

[11] يسمح فرمان السّلطان إلى ولايتي ليبيا بحكم ذاتي شامل. في تعليقه على الوثيقة، التي قبل بها الإيطاليون، كتب المستعرب الكبير كارلو ألفونسو نالينو في" L'Unità " لا يسجّل التاريخ أي أنموذج آخر لمعاهدة نوقشت وختمت بتجاهل تام لمؤسّسات الخصم".

للبرق والهاتف تمتدّ إلى مشارف الحدود التونسية. وأسستْ كذلك خطّ حرب في مواجهة القوات الإيطالية".[12] على رأس هذه الدولة الواهية، نصّب سليمان الباروني نفسه أميراً، مثيراً سخط الجنرال رانيي والي طرابلس، الذي كان قد بدأ التوغل في طرابلس الغرب بنجاح، محتلاً سواني بني آدم والعزيزية وفندق بن غشير التي كانت تشكّل أركان الدفاع الثلاثة العربية التركيّة أمام طرابلس.

2. في الوقت الذي كان فيه سليمان الباروني يبني دولته الواهية والمؤقتة، التقى محمّد فكيني بأتباعه وناقش معهم الأوضاع الطارئة بعد رحيل الأتراك. يقول فكيني في مذكراته " أصابني الحزن من هذه التصرفات ومن ألاعيب الباروني، فقررت الهجرة إلى بلاد الشام، لكن عدداً كبيراً من أعيان الرجبان والزنتان قرروا منعي من الهجرة وعاهدوني على إتباع رأيي، وحرروا مضبطة بذلك في 12 حجة الحرام سنة 1332".

وهذه صورة حرفية عن المضبطة :

"لا يخفى على العموم أننا قبل نشوب الحرب وأثناءها، حاولنا دوماً الحفاظ على الوطن والدين وتوحيد الجميع وراء أوامر الدولة، وحصل لنا التوفيق التام بواسطة دولتنا وإعانات المسلمين، إلى أن عجزت الدولة التركية وأبرمت الصلح وقطعت علاقاتها بالولاية، فاضطربت الناس، وتذاكرت الأعيان مع المتصرف موسى بك قرادة، فاتصل بالقومندان مطالباً إياه بإبقاء الأرزاق لأولاد الشهداء والفقراء... وبانتظار وضوح الأمور، تقوم كل ناحية أو منطقة أو

[12] سليمان الباروني، المرجع نفسه، ص 156.

لواء بتشكيل نوع من حكم ذاتي مستقل وإدارة محلية حسب الأمر السلطاني." وحضر ممثل عن كل ناحية في الجبل، وتذاكروا مع هيئة الطليان، وأبلغوهم تمسكنا بالاستقلال وبإدارة ذاتية مختارة، على غرار مصر وتونس... واتفقوا على ألا يعلن أي موقف حربي أو استقلالي بانتظار موقف الحكومة الإيطالية، وبانتظار موقف متفق عليه في الشطوط وغريان والشرق... وأما الآن فنحن، ومن هو على رأينا، مخالفون لرأي الباروني ونرفض رياسته، وعليه ألا يعمل شيئاً إلا باتفاق العموم والهيئات الحاكمة.

لم يكن أمامنا سوى خيارين وإمكانيتين: فإما القبول بالدولة المحتلة الجديدة، أو الهجرة من الوطن.

وإذا اخترنا الحل الأول، فليس أمامنا سوى الذهاب إلى طرابلس، كما فعل ممثلو الولاية الآخرون. وأخيراً اتفقنا على إرسال أربعة ممثلين عن كل قضاء إلى طرابلس. وهكذا ذهبت إلى طرابلس مع أربعة مندوبين عن فساطو".[13]

فيما سبق حل محمّد فكيني بالعاصمة طرابلس الغرب مئات المرّات، بدعوة من الولاة العثمانيين. لم تكن الرحلة مرهِقة لمن اعتاد الركوب على ظهر الخيل أياماً بأكملها. لكن هذه المرّة كان الأمر مختلفا، فهو ذاهب إلى طرابلس كي يعلن خضوعه إلى السلطات الإيطالية. وقد ملأته كلمة "الخضوع" وحدها غمّا وهمّا وكان يأمل ألاّ يذيقه أعداء البارحة طعم الإهانة. تطلّع الرّجل إلى مصالحة كريمة، حتى وإن كان يشار إليه في طرابلس كخصم عنيد، وكواحد من مدبّري أحداث الهاني وشارع الشطّ.

---

[13] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 63 .

لم تكن المراسم مهينة، إذ أعلنت السلطات الإيطالية "اتّفاق مصالحة"، ويبدو أنها قررت احترامه.[14] تم استقبال محمّد فكيني ورفاقه بحفاوة في الزاوية الغربية التي تمثل النقطة العسكرية الأماميّة الإيطالية، من قِبل الجنرال كليمنتي ليكويو، نفس الضابط الذي سيزيل بُعيد أشهر دولة سليمان الباروني الوهمية المؤقتة. وفي الغد، تابعوا طريقهم باتجاه طرابلس، حيث استضافهم أحمد المنتصر، وقابلوا في محل سكناه النواب الليبيين : فرحات بي، ومختار بي كعبار، والمريض بي، وعشرات من الأعيان الآخرين.

في هذه الأثناء، كانت التحضيرات جارية في قلعة طرابلس لحفل سيشارك فيه وزير المستعمرات بييترو برتوليني، وممثل السلطان شمس الدين بي، ووالي طرابلس الغرب الجنرال أوتافيو رانيي الذي كما يذكر محمّد فكيني أكدّ: "أن معاهدة الصلح قد وقّعت، وأنّ إيطاليا جاهزة لإعمار البلد ولإجابة كافة طلبات الأعيان الذين يكنّ لهم كل اعتبار ومودة".[15]

بالتالي، يبدو أن كلّ شيء كان يجري على ما يرام، لكن عندما أرسل أعيان الجبل إلى الوالي رانيي عريضة يطلبون فيها تكليف محمّد فكيني بمهمة متصرّف الجبل، أجاب الجنرال: "أنّ الدولة الإيطالية قد ألغت وظيفة المتصرفية "،[16] مكتفياً بتقليده لقب قائمقام فساطو. بالنسبة لفكيني، كان ذلك بمثابة تقهقر جلي، فقد كُلّف في

[14] على أساس البند الرّابع من معاهدة السّلام، "تلتزم الحكومتان بإصدار عفو عام (...) . بالتالي لا يمكن أن يحاكم أو يضايَق أحد، مهما كانت الفئة التي ينتمي إليها، في شخصه أو في ممتلكاته أو في ممارسة حقوقه، بسبب أنشطته السياسية أو العسكرية، أو بسبب أفكاره المصرّح بها أثناء فترة الصّراع". يوجد النصّ الكامل لمعاهدة أوشي لدى :
Francesco Malgeri, *La guerra libica (1911-1912)*, Edizioni di Storia e Letteratura, Roma, 1970, *op. cit.*, pp. 402-05.

[15] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 66 .

[16] المرجع نفسه، المكان نفسه .

الفترة العثمانيّة بمهمة متصرف، وهو أعلى امتياز لليبي. ومع ذلك لم يحتجّ، وإن بدا واضحاً أن السلطات الإيطالية لم تكن تنوي التعاون مع العرب إلا على مستوى الكلام فقط. بالتالي، لم يكن هذا هو التّمييز الوحيد. فعلى الرغم من أن معاهدة السلام كانت تنص على أن "الأفراد المعتقلين والمنفيين سيطلق سراحهم في الحال"،[17] فإنه، حتى يوم الواحد والثلاثين من ديسمبر 1912 لم يُطلق سراح أي ليبي ولم يرجع واحد منهم إلى أرض الوطن. ففي المعتقلات الإيطالية تواصلت المعاناة كما استمرت حالات الوفاة. بهذا الخصوص، نتذكر ما كتبه الشاعر حسين فضيل حسين الشلماني، الذي كان محكوماً بخمس وعشرين سنة سجن في مُعتقل فافينيانا :

في حَجف نازل في تسابيع الوطا

مَظلّم علينا ما الشّمس تبان

مْسَكر بباب حديد واقفاله قوّا

واللّي تنظره عيني الكل طليان.[18]

لم يعلّق فكيني آمالاً كبيرة على ما حدث فوعود رانيي لا تختلف كثيراً عن وعود بوريا ريتشي. ولكن في الوقت الحالي، ولافتقاد البديل، فإن حسن التصرف كان يلزمه التريّث. مرّة أخرى، كأن يحاول تخفيف مرارة خيبته بالسعي في خدمة مواطنيه من خلال عمله الإداري، وقد عيّن فعلاً لكل ناحية في قضاء فساطو قاضياً

---

[17] فرانتشسكو مالجيري، المرجع نفسه، ص 403

[18] حبيب وداعة الحسناوي، المرجع نفسه، ص 45 .

ومفتياً ومدرسين، كما قرر تطبيق الشريعة بحزم في كافة أنحاء المنطقة.

وقد شعر القادة والأعيان الآخرون في الجفارة والجبل بالريبة والحيرة ذاتها تجاه الإيطاليين. ومع ذلك سلك الجانب الأعظم منهم وإن على مضض الطريق اتجاه طرابلس لإعلان الخضوع. انضم إليهم 6054 من الموالين. لكن هناك أمر كان يقلق الوالي رانيي، فقد كان عدد الأسلحة التي تم تسليمها 778، بينها 459 سلاحا حربيا. فهناك إذن من كان يرى أن الأسلحة الفعّالة لا يجب أن تُسلم، لأنّ الهدنة قد تنتهي من لحظة إلي أخرى.

3. في الوقت الذي كان يجري فيه هذا التوافد التعس على قلعة طرابلس التي كانت رمز السلطة التركيّة وأصبحت رمز السلطة الإيطالية، حاول سليمان الباروني تدعيم مواقعه في المناطق الجبلية بغريان. ففي مستهل عام 1913، كان تحت إمرته 3500 مسلح، موزّعين على ثلاثة معسكرات: 1000 مسلح في الرابطة الغربية، و2000 في الأصابعة و500 في بئر الغنم. لم يكن القادة الذين يدعمونه أعيان البربر فقط، مثل موسى قراده وساسي خزام وخليفة بن عسكر ويوسف خربيش، بل كذلك شخصيات هامة من العرب مثل محمّد بن عبد الله ومحمّد سوف المحمودي وأبو بكر بن قرزة وعلي الشنطة، الذين أذعنوا لقوّة شخصية سليمان الباروني، الذي رفع راية الثورة الحمراء والخضراء، وقد كتبت عليها الآية القرآنية : "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها".

كان الباروني يدرك أنه كان يلعب الورقة الأهمّ في حياته، فلم

يكتف بتوسيع الوفاق حول عمله واحتكار الأسلحة والمؤونة، بل أرسل أيضا إلى روما وفداً يتكون من موسى قرادة وعلي الشنطة، لتقديم مجموعة من المطالب لوزير المستعمرات برتوليني، يمكن تلخيصها كالتالي: (1) الحكم الذاتي للجبل وللسهل السّاحلي الغربي، وعاصمته زوارة الغربية، المقرّ القديم للبربر؛ (2) في حالة تعذر الحصول على الحكم الذاتي، يمكن القبول بشكل من الحماية شبيه بما أقرّته بريطانيا لمصر؛ (3) في حال رفض هذا المقترح أيضاً، يجب على الأقل انتزاع امتياز خاص لمنطقة البربر وقدر أكبر من الحرية لها، مقارنة بالمناطق الأخرى في طرابلس الغرب.

بتأكده من الإمساك بالأوضاع، حاول سليمان الباروني إقناع قادة عرب آخرين بالاتحاد معه، سواء بمضاعفة المعونات المعيشية اللازمة، في عام ضربه الجفاف والقحط، أو باللجوء إلى أعمال العنف. وقد استغل إقامة محمّد فكيني الطويلة بطرابلس وبعض القادة الآخرين من الجبل، فدمّر بيوتهم وسلب قطعانهم. وفي الأيام اللاحقة شدد الحصار على قرية تاردية، حيث تحصن فكيني مع 600 من رجاله، ولولا أن تدخل بينهما بالحسنى زعيم أولاد بوسيف ذو المكانة العالية، محمّد بن عبد الله، لكان الصدام حتميا.[19]

التجأ سليمان الباروني إلى حيلة أخرى، ألا وهي إرسال مجموعة من رسائل التهديد للقادة العرب الذين شاركوا في اجتماع المصالحة الذي انعقد في طرابلس. فكتب مثلا إلى النائب السّابق بغريان، الهادي بي كعبار: "أنت عبرت من السلطة الدينية والشرعية للأتراك إلى نير شعبٍ لا تشترك معه سوى في صفة الإنسانية، وهي خاصة أشك في أنهم يعترفون لك بها، لأنك بالنسبة إليهم لست سوى بائع في حين

أنهم المشترون لا بل إنك تمثل في نظرهم عبدا وهم السادة (...) إعلم أن بين الإيطاليين أناساً متنوّرين، يقدرون الناس بأعمالهم. وتعرف أنه بالنسبة إليهم ليس هناك جريمة أكبر من جريمة بيع الوطن بالمال".[20]

لكن ما لا يعرفه سليمان الباروني، في هذيان العظمة الذي سيطر عليه، أن مغامرته توشك على الانتهاء. فإن كان صحيحاً أن وزير المستعمرات برتوليني قد استقبل في روما وبحفاوة عالية مبعوثي القائد البربري، معترفا بأن مطالبهما معقولة ومقبولة، فقد كان صحيحا أيضاً أن الوالي رانيي ورئيس الحكومة جوليتي، يعارضان بشدّة أيّ وفاق مع البربر. فبالنسبة لرانيي "إن الباروني مصاب بحق بهوس العظمة، وهو ليس رجل حرب. (...) إلى حدّ أنه انتحل لقب أمير الجبل، وأعلن موسى قرادة متصرفا، وسوف وزيرا للحرب، ثم أرسل البلاغات المتضمنة هذه التعيينات إلى القنصليات الأجنبية".[21]

كان جوليتي شديد المعارضة لفتح مفاوضات مع الباروني وردّ على الوزير برتوليني، الذي ألحّ على الموافقة للبربر لإنشاء ولاية بحكم خاص بقادة منتخبين، برسالة صارمة اللهجة تبخر على إثرها نهائياً مشروع الحكم الذاتي. ويجب أن نلاحظ أنه أرسل هذا الردّ إلى برتوليني مباشرة بعد أن أصدر أمرا للجنرال رانيي بمهاجمة مواقع

---

[19] محمد فكيني، المرجع نفسه، الصفحتان 149 و210.

[20] سليمان الباروني، المرجع نفسه ص 164: الرسالة من 16 مارس 1913. عندما كان الباروني يتكلم من بيع الوطن بالمال يلمح إلى أن السلطات الإيطالية منحت لمختار بي كعبر مبلغا سنويا من 000 12 ليرة.

[21] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 14/150، الورقة 55. من اتصال رانيي بوزارة المستعمرات، بتاريخ 19 يناير، يقول (ص4.) : " في ظل السلطة التركية كان يتعاظم متخذا مظاهر السلطان. لذلك لوحق واعتقل من قبلهم. الآن عبر أوهامه، بالثقة في علوّ مكانته بين جموع العرب، لثقافته ولعراقة أسرته، اعتقد لفترة أنه الأمر الناهي على الجبل. [...] معنويا كانت له عيوبه أيضا. تبين أنه استولى على الأموال والحبوب التي تركها الأتراك لأيتام العرب الذين سقطوا في الحرب. وما كان هذا السبب الأوحد الذي من أجله رفض الزعماء العرب أية علاقة معه وفضلوا التفاهم مع الدولة المسيطرة."

القائد البربري. تضيف الرسالة أيضا : "أعتقد أنه من الأفضل الشروع بعملية حازمة ضدّ الباروني، لأنها الوسيلة الوحيدة لإقناع ذلك المتهور بأن تأسيس مملكة مستقلة هو احتمال ضعيف جداً".[22]

في 23 من شهر مارس، يوم عيد الفصح، في السادسة صباحا، غادر سبعة آلاف رجل بقيادة الجنرال ليكويو مواقع تبدوت وتوجهوا رأسا نحو منطقة الأصابعة، حيث تمركزت قوات سليمان الباروني. دافع العرب والبربر ببسالة، وفي الساعة الثامنة والنصف شنّوا هجوما مضاداً محاولين الالتفاف على الجبهة اليسرى للقوات الإيطالية. لكن التصدّي للهجوم تم بيسر من طرف العساكر الإرتريين والكتيبة الخاصة. وفي الساعة الحادية عشرة والربع، ولتجنب المحاصرة، انسحب العرب والبربر تجاه قصر يفرن، مخلفين وراءهم في ساحة المعركة 257 قتيلا، ومن الجانب الإيطالي 36 قتيلا و205 جرحى.

حسب محمّد فكيني، لم يشارك الباروني في معركة الأصابعة والرابطة التي كان يقودها من الطرف الليبي المحارب المتمرس محمّد بن عبد الله، الرجل الذي سيدافع بعد عدّة أشهر عن منطقة فزّان ضدّ هجمات رتل أنطونيو مياني. وحسب رواية فكيني التي لا تتناقض مع رسالة سليمان الباروني إلى الجنرال ليكويو،[23] لم يفعل القائد البربري شيئا للدفاع عن مملكته الزائلة، بل فرّ تجاه نالوت ثم لجأ إلي تونس برفقة أهله مع بعض الثروات التي خلّفها الأتراك.

---

[22] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية ،ليبيا، الموقف 14/150، الورقة 55.

[23] في الوقت الذي كان متّجها نحو تونس، كتب سليمان الباروني رسالة إلى الجنرال ليكويو وضح له فيها أن اختراق الهدنة ما كان بسببه، بل بسبب أولاد بوسيف ومحمّد بن عبد الله و" بعض المتنفذين الآخرين. " لم أود أن يحدث أي عمل عدائي، لأني أنتظر نتيجة عملية موفديّ. لكن القدر لا يمكن ردّه". نص الرسالة لدى : F. Corò, *op. cit.*, p. 967.

باحتقار كبير يتحدث محمّد فكيني عن تصرفات خصمه الأخيرة : " ولما اجتمع حوله أهل بلده، أخبرهم أنه جاءهم مبشراً بالاستقلال الذي تقرّر عند الدول، وأن عليكم أن تحتفلوا بهذا اليوم كعيد للاستقلال. واستعان بأخيه لترحيل النساء بشكل خفي. ثم طلب من أهالي نالوت أن يجمعوا له 400 بعير لنقل الأرزاق التي خلفها الترك والمخصصة لأبناء الشهداء... وبكل هذه الحيل استطاع الإفلات والتسلل سراً إلى خارج البلاد. وبمجرد وصوله إلى تونس باع هذه الأرزاق وقبض ثمنها".[24]

4. تشتت العرب والبربر في الأصابعة، وفي الأيام اللاحقة استأنف الجنرال ليكويو توغله في الجبل، دون أن يلقى مقاومة ذات شأن. احتل ككلة في 25 من مارس، وقصر يفرن في 27 منه، وفساطو في 6 من أبريل، والجوش في 10، ونالوت في 13 من الشهر، وواحة غدامس النائية في 27. وهكذا لم تدم دولة سليمان الباروني الصغيرة الجبلية سوى خمسة أشهر.

بالانتهاء من احتلال الجبل من ترهونة إلى نالوت، تم ضم سيناون وغدامس دون أية صعوبة. بدأ الوالي رانيي العمل على مشروع احتلال فزّان لبلوغ الحدود الطبيعية لليبيا قبل أن يختلق الفرنسيون ادّعاءات ترابية بشأن الأطراف النّائية للمستعمرة. يبين رانيي في تقاريره إلى وزارة المستعمرات سبباً آخر لاحتلال فزّان، ألا وهو

---

[24] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 140-143. ترك سليمان الباروني تونس في مستهلّ شهر مايو سنة 1913 وانطلق في رحلة طويلة قادته إلى باريس وبرلين وفيينا وبوخارست والقسطنطينية. أينما حلّ ترك تصريحات لشرح نشاطه في ليبيا ولردّ اتهامات الفساد الموجّهة إليه. شرّفته تركيا بتعيينه في مجلس الأعيان.

الحاجة لمنع السنوسي الكبير[25] الناشط في برقة، وباقي قوات الثوار في طرابلس الغرب، من استعمال فزّان كقاعدة تنطلق منها الهجمات المضادة على الأراضي التي احتلتها إيطاليا.

عهد الوزير برتوليني إلى المقدم الركن أنطونيو مياني بمهمة احتلال فزّان، وكان هذا الأخير قد أبدى في أريتريا مقدرة على تسيير وقيادة الوحدات الأهلية.[26] في 9 من أغسطس عام 1913 غادر جهاز الحملة بقيادة مياني مدينة سرت الواقعة على المتوسط وتوجه نحو الصحراء عبر واحة سوكنة كهدف أوّلي، ونحو مرزق وغات كهدف نهائي. تشكل الرتل من 1100 جندي (108 من الإيطاليين والباقي من الإرتريين والليبيين)، 10 مدافع، 4 مدافع رشاشة ثقيلة، 4 شاحنات و1756 جملاً محملة بالمياه والمؤونة والعتاد، على الرغم من تصويره لوزير المستعمرات بأنه "مرعب"، فقد كان في الحقيقة، غير ذي شأن، فلا يمكن تكذيب الجنرال لويجي كادورنا عندما دوّن في كتاب له عن فزّان "كانت العملية الأكثر تهورا وطيشا في تاريخ الاستعمار أينما كان".[27]

علاوة على ما يتراوح من ألفين إلى ثلاثة آلاف مجاهد تحت قيادة محمّد بن عبد الله، الذي قرر أن يواجه بكل وسيلة ممكنة تقدّم مياني نحو فزّان، كان على الفيلق أن يواجه فيما واجه من عراقيل، الجبال السّوداء الوعرة، سرير بن عفين الشاسع والقاحل والخالي من الآبار.

---

[25] بعد رحيل أنور باشا إلى تركيا، تولى مهمّة قيادة الجهاد ضدّ الإيطاليين أحمد الشريف، زعيم السنوسية، الجماعة الدينية القوية التي كانت تتباهى بمليوني نفر من الأتباع وأكثر من 146 زاوية.

[26] فيما يتعلق باحتلال فزّان وخسارتها لاحقا، بآثاره الفادحة على التواجد الإيطالي في طرابلس الغرب، أنظر : Angelo del Boca, *La disfatta di Gasr Bu Hadi. 1915: il colonello Miani e il più grande disastro dell'Italia coloniale*, Mondadori, Milano 2004

[27] Luigi Cadorna, *Altre pagine sulla Grande Guerra*, Mondadori, Milano 1925, p. 48

فقبل إطلاق أي طلقة، كان مياني مجبرا على مدّ خمسين كيلومترا من الطرقات، بين الصخور الوعرة للجبال السوداء، بغرض تسيير الشّاحنات. بالإضافة إلى ذلك، حتى وإن وُفق لاحقا في إلحاق الهزيمة بخصومه في ثلاث معارك في الشب وإشكدة ومحروقة، وقتله في ساحة الوغى أثناء المعركة الأخيرة، محمّد بن عبد الله نفسه و 600 من أنصاره، فقد كان من المستحيل على مياني، بصحبة عدد يكاد لا يزيد عن ألف نفر، وبعيدا جدّا عن قواعد التموين، إدارة وقيادة منطقة واسعة لها مساحة إيطاليا نفسها.

بعد أن طلب بغير جدوى الحصول على تعزيزات من طرابلس وروما، اضطر العقيد مياني في ديسمبر 1914 إلي ترك فزّان والاندحار بسرعة نحو الساحل، مخلفا وراءه "كرامة وطنية مجروحة، وبنادق ومدافع ومواد مختلفة، وملايين من الخراطيش".[28] وكان اندلاع الحرب العالمية الأولى صفعة حاسمة ونهائية لبنى الحضور الإيطالي الهشة في طرابلس الغرب. حتى وإن لم تدخل إيطاليا الحرب إلاّ في مايو 1915، فقد اعتبرتها تركيا والإمبراطوريات الوسطى طرفا في الحرب وسعت بالتالي لإشعال الثورة في ليبيا بإنزال الجنود الألمان والنمساويين والأتراك، علاوة على الأسلحة والعتاد ومحطات الراديو على سواحل سرت بواسطة الغواصات. وبفضل هذه التحركات، كانت الثورة العربية على وشك أن تندلع بين لحظة وأخرى.

5. خلال سنتي الهدوء النسبي، بين 1913 و1914، وفي الوقت

[28] Istituto Coloniale Italiano, *Atti del Convegno nazionale coloniale per il dopo guerra delle colonie*, Tipografia dell'Unione Editrice, Roma, 1920, p. 286
من مداخلة فينشنزو جوفاني دي ميو.

الذي كانت تجري فيه معارك متقطّعة في فزّان البعيدة، تخلّى محمّد فكيني عن البندقية، وانشغل كليّا بعمله الإداري، بنفس الحماس والحكمة اللذين ميّزاه على مدى ثلاثين سنة في خدمة الإمبراطورية العثمانية. عينه رانيي حاكما لفساطو وكافة الجبل الغربي، وقام هو بدوره فوراً بتعيين قائمقام ومفتي لكل قضاء، يسندهم موظفون إيطاليون. بفضل ما يتمتع به من سمعة طيبة، ليس فقط لمآثره الماضية ولكن أيضاً لصدقه ولنزاهته في التعامل مع السّلطات الإيطالية، استطاع أن يحصل في طرابلس على الحكم حسب الشريعة الإسلامية، وإلى إمكانية اختيار موظفين من الشعبين العربي والبربري. وتمكن أيضاً من الحصول على عفو لصديقه محمّد بن عبد الله، وعلى معاملة خاصة لعائلته. لكن كما نعرف، فقد لقي قائد أولاد بوسيف حتفه في معركة المحروقة.

في صيف عام 1914، مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تبدلت الحالة جذريا في طرابلس الغرب، خصوصا جرّاء أعمال السّنوسية، التي استغلت تنظيمها المتشعب المنتشر في كافة أنحاء ليبيا، لتكثيف أنشطتها ولإثارة الفتن. في نهاية شهر يوليو كانت علائم الثورة العربية حاضرة في كلّ مكان. ففي 23 مثلا، في زيدان بسرت، سُلِبت قافلة مكونة من 500 بعير من قِبل بدو متمرّدين. كما تجرأ السّنوسي صالح الاطيوش على محاصرة الحامية الإيطالية في النوفلية. وفي 26 من أغسطس، اعتُرضت قافلة محمّلة بالتموينات آتية من فزّان في بئر الفاتية وقُتِل حرّاسها. لكن أحداثاً أشد خطورة وقعت خلال شهر نوفمبر في فزّان عندما هاجم ضباط تابعون لممثل السّنوسية محمّد مهدي السنّي الحامية الإيطالية في سبهة وأوباري فأبادوهم، مما أجبر العقيد مياني، كما رأينا، على مغادرة فزّان بأكملها.

وقد أشار محمّد فكيني في مذكراته، إلى الغارات المتتالية للوحدات السّنوسية في غدامس، لكنه وضّح أن المناطق التي كانت تحت إمرته: "كانت محترمة ومحمية ضد الهجمات لأن علاقته بالسنوسيين كانت معروفة وقائمة على الاحترام والتأييد".[29] ثم دعته حكومة طرابلس لتشكيل وحدة عسكرية لصدّ هجمات القادة المعروفين من السّنوسيين، مثل أحمد السنّي وأحمد البدوي، لكن جاء ردّ محمّد فكيني أن كل ما يستطيع عمله هو إسداء النصح، وأنه يرفض إذكاء نار الاقتتال الداخلي.

تنبه محمد فكيني إلى مؤشّرات الثورة العربية الكبرى التي توشك أن تندلع كما أشرنا سابقاً، وتبين له أن موقفه لم يعد مريحاً وقد آن الأوان للخيارات الدقيقة. وكان من السهولة بمكان معرفة الجهة التي سينحاز إليها. لم يكن لدى أحمد الشريف القائد الأكبر للجماعة السّنوسية أدنى شكّ في اختيار فكيني. ففي 6 من ديسمبر 1914 أرسل له رسالة ذكر فيها: "نحن الآن في السلوم (...) ونحن مصممون على القدوم إلى طرابلس للقاء قبائل الجهة الغربية وتشجيعها على الدفاع عن الوطن والدين، وتنظيم المعركة. ولأجل هذه الغاية، وجهنا المجاهد البطل الشيخ سوف بك ورفاقه، الذين سيتقدموننا للعمل على استنهاض همم الأهالي وحشدهم في معركة الجهاد، وإن شاء الله سنتبعهم قريباً".[30]

جرى تكريم محمّد فكيني بصفته أحد قادة طرابلس الغرب الذين نبّهوا مباشرة إلى القدوم المتوقع للزعيم السنوسي الكبير. لكنه كان

---

[29] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 147.

[30] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 2. نص رسالة مشابه يوجد أيضا في راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 6/122، ص 47.

الفصل الخامس

الثورة العربية الكبرى

بقدر ما كان تأثير إندلاع الحرب العالمية الأولى جليا في تأجيج "الثورة العربية الكبرى"، مع عودة الأتراك إلى ليبيا، وجدت دوافع أخرى لتفجير العنف، منها الفظاظة والقوانين البغيضة وعمليات النفي والإستخدام المتواصل للمشنقة الذي مارسته السلطات الإيطالية، سواء في طرابلس الغرب أم في برقة.

لقد ندد الاشتراكي فيليبو توراتي أثناء جلسة للبرلمان يوم 18 ديسمبر 1913، بعمليات الشنق باعتبارها وسيلة للقمع، قائلا " :إني سمعت في الأيام الماضية الملك يقول إن حصول إيطاليا على ليبيا يخولها القيام بمهمة حضارية كبيرة، وأن هدفنا الأول هو إكتساب صداقة هذه الشعوب، مع إحترام قيم الدين والملكية والعائلة لديهم، وإشراكهم في منافع الحضارة، لكني أرى في كل مكان ظل مشنقة منتصبة يخيم على مهمتكم !(...) فكل جندي ينجز مهمة الجلاد النبيلة يتسلم عبر قوات الكاربينياري منحة بخمسة فرنكات. (...) أنا أتساءل إن كنا في إيطاليا، وإن كانت الحكومة تعلم أن تشيرازي بيكاريا ولد في إيطاليا"[1].

لكن محنة الليبيين لم تقتصر على مئات حالات الإعدام التي نفذت شنقا أو رميا بالرصاص. بل كان النفي إلى المعتقلات الإيطالية، في

جزر ذات مناخ وخيم هو السلاح الآخر الرهيب الذي سلط على رقابهم. كانت جزيرتا بونزا وأوستيكا مكتظتين بالمعتقلين الليبيين. في مارس 1916، بلغ عدد العرب المنفيين إلى أوستيكا وحدها 1360 معتقلا. وكان هناك من يقضي في السجن بضعة أشهر وهنالك من يمكث عدة سنوات. كما أصيب آخرون بأمراض خطيرة، ولم يرسلوا إلى بيوتهم إلا ليقضوا هناك، فمن لا يموت بسبب المعاناة أو الأمراض، بفنيه التفكير في البيت البعيد، وفي العائلة التى خلفها وراءه بدون عائل في أغلب الحالات. فسجلات وزارة المستعمرات مليئة بالتضرعات وطلبات العفو والشكاوى والإحتجاجات الواردة من جزر المنفى.[2]

بين الذين دفعوا العرب إلى التمرد العام خلال 1914-1915، كانت بدون شك عائلات الذين حكم عليهم بالشنق أو الرمي بالرصاص، وكذلك عائلات السجناء السياسيين، لكن مما أدى إلى الثورة، كما يذكر العقيد أرتورو فاكا ماجوليني، كانت أيضا الأخطاء والهفوات الأكثر قدما" : إن كانت الثورة قد وجدت أرضية مناسبة حتى إمتدت بسرعة في كافة أرجاء المستعمرة، فلأنه مند عام 1911 ولاحقا، لم نفعل شيئا لكسب ود الأهالي وتقديرهم، و لشدهم إلينا بروابط المصلحة المتينة. كان الخطأ الأخلاقي والسياسي الفادح الذي ارتكب، هو الوعود الرسمية التي أعطيت للعرب والتي تكررت باستمرار دون أن يوف بها، بدءا من أول يوم نزلنا فيه. (...) على

[1] مجلس النواب، الأعمال البرلمانية، تشريع XXIV، الدورة الجلسة العامة 18 ديسمبر 1913، ص : 555-557.

[2] عن أوضاع المنفيين كتب المفتش العام للأمن العام، أدلفو لوتراريو بنفسه، على إثر دورة مراقبة في فافينيانا : "تقلصت وجبة الأكل للعرب إلى كمية كم الخبز والحساء فقط، الأمر الذي جعل قواهم خائرة. وحسب ما يراه الأطباء لن يستطيع العرب تحمل تدهور صحي أكثر, فأجهزتهم العضوية لك تعد قادرة على مقاومة الأمراض، خصوصا إذا كانت طويلة الأمد ومن النوع الخطير " . ذكر في : المنفيون الليبيون إلى إيطاليا خلال فترة الإستعمار الأيطالي (1911-1916) ، إعداد صلاح الدين حسن السوري وجامباولو مالجاري، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية – المعهد الإيطالي للإفريقيا والشرق، روما 2005، ص 195.

هذه الأرضية الملينة بالشكوك والأحقاد، عمل الألمان والأتراك بشكل فعال أثناء الحرب في أوروبا، فقادوا حملة نشيطة وناجعة قوضت آخر بقايا هيبتنا وأججت ضدنا التعصب الأعمى والكره المقيت. حتى صرنا لدى عرب طرابلس الغرب أكثر الناس دناءة بين البشر، وممن يحق ويجب إستئصالهم وطردهم من أرض الإسلام المقدسة.[3]

2. لقد تابعنا دواعي الثورة العربية الكبرى والآن نتابع من كان يمسك بخيوطها. من وثائق الأرشيف الإيطالي ومن مذكرات محمد فكيني، يبدو جليا أن من أجج نار الثورة في المرحلة الأولى، كان مجمل قادة السنوسية. ففي برقة، تحرك أحمد الشريف، وفي سرت كان ينشط أخوه محمد صفي الدين، بينما كان أخ آخر لأحمد الشريف، محمد العابد، يسيطر على فزان مع وكيله محمد مهدي السني. وعت الحركة السنوسية قوتها، حتى أنها انتهت في لحظة ما إلى مقاومة الإيطاليين والإنجليز والفرنسيين معا وفي نفس الوقت في كل من ليبيا ومصر ووادي وبوركو.

أختتمت سنة 1914 بحصيلة إن لم تكن كارثة بعد للإيطاليين كانت مقلقة وأليمة، فقد ضاعت فزان كليا، كما أن منطقة القبلة يمكن أن تعد في عداد المناطق المفقودة، بعد إنسحاب حامية القريات من مزدة. وكانت سرت شكليا - ولفترة قصيرة - لا تزال إيطالية. أما نفوسة فقد كانت رهن قبضة القائد البربري خليفة بن عسكر، الذي كان في خدمة الإيطاليين، قبل أن ينضم إلى التمرد بسبب إهانة ضابط إيطالي له بفظاظة.[4] في الخلاصة، مازال والي طرابلس الغرب، لويجي

[3] Arturo Vacca Maggiolini, La situazione in Tripolitania, « Rivista Militare Italiana », gennaio 1922, pp. 41-45.
[4] Generale Gherardo Pàntano, Ventitrè anni di africana, SATET, Torino 1943, p. 274.

درواتي، يمسك بثبات بخط الجبل الهامشي، بين الخمس وفساطو، وببعض الحاميات المواجهة لنالوت ومزدة وبني وليد.

جاء إنهيار القوات الإيطالية الكامل في أبريل 1915، عندما هزم العقيد جانيناتزي مرتين من قبل المجاهدين بقيادة أحمد السني، في خرمة الخدامية ووادي مرسيط. بعد ثلاثة أسابيع، في 29 أبريل، تشتت قوات أنطونيو مياني في قصر بوهادي في سرت، المعركة المعروفة في ليبيا اليوم بالقرضابية، التي قادها وانتصر فيها محمد صفي الدين وأحمد التواتي. أثناء المعارك والإنسحاب نحو المعسكر المحصن بسرت، تكبد الإيطاليون خسائر فادحة فاقت خسائرهم في أي معركة أخرى في ليبيا منذ 1911. فمن مجموع 84 ضابط قتل 19 وجرح 23. ومن مجموع 900 جندي إيطالي، قتل 237 وجرح 127. ومن جملة 2175 جندي أريتري وليبي، قتل 242 وجرح 290. وكما يذكر رفائيلي تشاسكا، إلى جانب الألف رجل الذين حيدوا من المعركة، ينبغي إضافة التخلي للخصم عن" كل الإحتياطي المتكون من 5 آلاف بندقية، وبضعة ملايين من الخراطيش، ومدافع رشاشة، وست وحدات من المدفعية، وقافلة بأكملها محملة بالتعزيزات، ومؤونة الحملة وحتى الخزينة العسكرية[5] ".ترسانة هائلة، وظفت لتكوين محلات جديدة ولإذكاء نار الثورة العربية وتوسيع رقعتها.

في بداية شهر مايو، إمتدت الثورة تقريبا على كافة الأراضي

يرجح أن خليفة بن عسكر تصرف في تلك الفترة بتحريض من سليمان الباروني، الذي حط رحاله في ذلك الوقت في السلوم، مع أحمد الشريف.

[5] Raffaele Ciasca, *Storia coloniale dell'Italia contemporanea*, Hoepli, Milano 1946, p. 436.

فيما يتعلق بالمعركة، أنظر :

Angelo Del Boca, *La disfatta di Gasr Bu Hàdi*, *op.cit.*, pp. 9-16

الطرابلسية التي كانت لا تزال خاضعة للهيمنة الإيطالية. فقد دارت رحى مواجهات عنيفة حول مصراتة وزلتين وتاورغاء. وفي العمق باتجاه الجنوب، في ناحية أورفلة، إنضم عبدالنبي بلخير، الذي عمل مستشارا للعقيد مياني أثناء عملية غزو فزان، إلى التمرد وهاجم، بصحبة ألف رجل، حامية بني وليد وضيق عليها الحصار. نفس المصير ألم بترهونة، فقد تولى أمر ذلك الساعدي بن سلطان، الذي كان مياني قد أعدم شقيقه رميا بالرصاص في 2 من مايو في سرت، مباشرة بعد هزيمة قصر بوهادي. كانت محاولات نقل المعونات للإيطاليين المحاصرين بدون جدوى، كما كانت مساعي كسر الحصار مشؤومة ومفجعة.

في رسالة إلى وزير المستعمرات فرديناندو مارتيني كتب رئيس الحكومة سالاندرا : إن " الخسائر المادية والمعنوية تساوي أو تقارب ما حصل في هزيمة عدوا. [6]"

في الحقيقة، لقد فاقت ذلك، إذ قدرها الجنرال لاتيني ب 5031 رجلا. وأما فنشينسو جوفاني دي ميو، الشاهد على الأحداث، فقد بين أن " الكارثة حصدت 5600 من الأرواح، وكبدت آلاف الجرحى، وقرابة ألفي أسير. [7] "بالنسبة لموشيو رويني، الذي سيتولى لاحقا مهمة وزير المستعمرات، "خلف الإنسحاب عشرة آلاف قتيل في الصحراء المستعمرة[8]". كانت أعداد الآليات الحربية التي فقدت فادحة : فقد إستولى العرب على 37 مدفعا و20 مدفعا رشاشا و9048 بندقية، و28.021 عبوة مدفع و6.185.000 خرطوشة

---

[6] الرسالة مذكورة لدى :
Ferdinando Martini, *Diario*, 1914-1918, Mondadori, Milano,1966, p. 462
[7] Instituto Coloniale Italiano, *op. cit.*, p. 288
[8] Meuccio Ruini, *L'Islam et le nostre colonie*, Il Solco, Città di Castello 1922, p. 77.

بندقية ورشاش، و37 شاحنة نقل و14 محطة إرسال.

أمام انتشار الثورة العربية والتي عززتها غنائم الأسلحة، أمرت الحكومة الإيطالية بالانسحاب من كافة الحاميات الداخلية. بين 15 يونيو و8 يوليو، طلب من كافة حاميات الجبل ترك مواقعها. ولاحقا أخليت الجفارة بأكملها أيضا، أي السهل المتاخم لطرابلس. وبالفعل، بين 6 و17 يوليو، إنسحبت نحو العاصمة، تحت وطأة وملاحقة المجاهدين حاميات فندق بن غشير وسواني بني آدم والعزيزية والزاوية وجنزور. في نهاية شهر يوليو قرر الجنرال أميليو، مباشرة بعد تولي إدارة ما تبقى من طرابلس الغرب، سحب حامية زوارة وميناء مصراتة، وبقيت طرابلس والخمس فقط في قبضة الإيطاليين، كما كان الأمر في عام 1911 لحظة عمليات الإنزال.

في الوقت الذي جرت فيه هذه الأحداث وشهدت فيه طرابلس تبدل سادتها، وجد محمد فكيني نفسه في أوضاع غير مألوفة، يراوده من الجانبين السنوسيون والإيطاليون. أورد في مذكراته : "وفي تلك الظروف صار كبار السنوسية يراسلون الحاج محمد فكيني حيث أنه الحاكم في قضاء فساطو وله نظارة الجبال، وهو المسؤول عن الزنتان والرجبان والرحيبات... وحتى الطليان طلبوا منه المساعدة على إنسحاب عساكرهم نحو طرابلس من مراكز زوارة والحوض وكابا والجوش والزنتان ويفرن واعدين إياه بالتخلي له عن الأرزاق والأسلحة الموجودة في قصر حكومة فساطو، لكن سكان هذه المراكز إستولوا عليها كلها بعد إنسحاب الطليان."[9]

بعد أشهر قليلة، في 4 من ديسمبر سنة 1915، تلقى محمد فكيني رسالة مطولة من محمد صفي الدين، ورد فيها : " إنه من عبد ربه

[9] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 154-155.

سبحانه محمد صفي الدين بن السيد محمد الشريف السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي. إلى حضرة الإبن الصادق والأخ الموافق الحاج محمد بك قائمقام فساطو دام موفقا محفوظا آمين.

وقعت معركة بين جيش الشقي السويحلي وبالخير عبد النبي (عدو النبي) وبرفقتهما شرذمة من أوباش مصراتة وكافة إخواننا ورفلة معنا مخلصين باذلين جهدهم مع الحق(...) وكانت الهزيمة عليهم فولوا على أدبارهم وانقلبوا خاسرين، ونحن ومن بمعيتنا في غاية السلامة والعافية بقصر الحكومة في ورفلة، غير أننا محتاجون في الأرزاق والجبخانة، وأسرعوا بإرسال ذلك لنا في أقرب مدة، بارك الله لناك فيكم، وحيث أن الأشقياء فروا لجهة مصراتة ومرادنا اللحاق بهم لأجل الانتقام منهم.

فأنتم، عجلوا بإرسال ما احتجناه منكم بلا تأخير، ولكم العون من الرب القدير(...) وأجروا كامل سياستكم فيما هو موكول لعهدتكم وعرفونا عن سائر ما يقع وما يتوقع، ونظرنا شاملكم وكما نعرف فيكم أهلية لما كلفناكم به فعليكم بسرعة الإنجاز... والسلام. 4 ديسمبر 1915." [10]

- تشير طلبات المعونة والوساطة المتواصلة مع الخصوم في مصراتة، التي كلف بها محمد صفي الدين فكيني، إلى أن جماعة السنوسية، رغم قوتها وتجذرها في كافة أرجاء البلاد، لم تحصل على موافقة الجميع. بعد تفحصه لمخطط العمل الواسع للسنوسية، كتب والي طرابلس الغرب، الجنرال جوفاني أميليو، في تقرير له بتاريخ 23 ديسمبر 1915،" تبدو - السنوسية - العنصر الأساسي في إثارة

---

[10] ارشيف أنور فكيني، الملحق رقم 5.

العداوة ضدنا، والخصم الشرس والعنيد تجاهنا وتجاه القوى الصديقة في إفريقيا الشمالية. فلو لا النشاط التوحيدي والتحريضي للسنوسية، لكانت نتائج التفتيت السياسي الذي مارسته الحكومة أعمق أثرا بالتأكيد مما هي عليه الآن." [11]

ويتابع أميليو، مستندا إلى معلومات كثيرة وصحيحة مستقاة من معسكر الخصم قائلا إن السنوسية لم تبلغ في طرابلس الغرب كافة أهدافها بل إنها عانت من خيبات كبيرة. مثلا، في إجتماع القادة الليبيين، الذي التأم في مطلع شهر أكتوبر بترهونة، لم يتم وضع أي تنظيم إداري لطرابلس الغرب، لسبب بسيط هو أن أغلب الأعيان لم يحبذوا الاعتراف بصفي الدين ممثلا لحكومة تمتلك الوسائل الكافية للوقوف في وجه نظيرتها الإيطالية.

أبدى بعض القادة، مثل رمضان الشتوي وعبد النبي بلخير، عداوة جلية لصفي الدين. فالأول، كما لاحظ أميليو، لا يخفي سعيه لعودة الدور الإداري العثماني: " طموح ومتحمس وعديم الوجدان والذمة، فهو أكثر من أبدى امتلاك القدرة والهيبة مقارنة بغيره من القادة العرب، بالإضافة إلى طموحات بالاستقلال (...). وأغلب الظن أن ولاء رمضان الشتيوي للأتراك، أثناء خلافه مع صفي الدين (...)، لم يعبر سوى عن رغبة شخصية في تلك اللحظة، لمحاولة، إن لم يكن لهزيمة السنوسية في طرابلس الغرب، فللحصول على الأقل على إعترافها به، ثم السيطرة كقائد مستقل، على منطقتي مصراتة وزلتين الغنيتين". [12]

ما عقد الأمور وعمق الصراعات وأجج نار العداوة، كان إخوة

---

[11] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 9/112، الورقة 76. التقرير رقم 2286، سري، ص 2.

السنوسي أحمد الشريف. يخبرنا محمد فكيني أنه قد وصلت إلى أحمد السني، الذي كان يقيم مؤقتا في الجبل الغربي، في نهاية ديسمبر 1915، رسالة من محمد العابد يعلن له فيها حصوله على لقب سلطان طرابلس، ويكلفه بمهمة الوالي على المدينة. وفي الرسالة ذاتها يأمر محمد العابد أخاه صفي الدين بمغادرة طرابلس الغرب في الحال والعودة إلى برقة.

إستدعى أحمد السني فورا كافة قادة الجبل الغربي لإحاطتهم علما بمضمون الرسالة. وأثناء اللقاء نصحه محمد فكيني تفادي التصريح العلني بالمهمة، لتجنب مواجهات وانقسامات جديدة لكن أحمد السني لم يصغ إليه وشرع في التصرف كوال على المنطقة موزعا المهام ومنشأ التحالفات مما أثار، كما تنبأ بذلك الحكيم محمد فكيني، عداوات جديدة.[13]

عند هذه النقطة صار الوضع في البلاد في غاية التعقيد، لما لقيه من تناقض وتداخل، ولإعطاء فكرة دقيقة عما يجري قام محمد فكيني بتلخيص الأحداث. خلاصة قوله :

- ما زال الإيطاليون محاصرين في بعض المراكز على ساحل الولاية
- تقبع نالوت تحت سيطرة القائد البربري خليفة بن عسكر.
- كان أحمد السني ومحمد العابد واثقين من سيطرتهما على فساطو، لكنهما أخطأ في تقدير ذلك.
- توحدت قبائل الزنتان والرجبان مع فكيني ضد أحمد السني.
- خضع قصر يفرن لسيطرة ساسي خزام الذي زعم أنه يحالف

---

[12] المرجع نفسه، ص 7- 8.

[13] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 163.

السنوسية، لكنه إستمر في التعاون سرا مع الأيطاليين في زوارة.

- تواصلت خصومة محمد سوف المحمودي مع سلطان بن شعبان، قائمقام زوارة، الذي يتمتع بدعم القطع البحرية الإيطالية.
- إستمرت معارضة صفي الدين لرمضان الشتيوي وعبد النبي بلخير ولكنه لم يتسن له إخراجهما من مصراتة.[14]

بالتأكيد، كان الوالي أميليو على دراية بهذه الحالة المعقدة العبيثة، فلا يمكن له إلا أن يغتبط بما يدب من إنقسامات في صفوف خصومه، وإلا أن يبتهج بما أنجزه من أعمال تفكيك للجبهة العربية السنوسية. ومع أنه كان لا يزال تحت إمرته في طرابلس والخمس، 33.664 جنديا، وفي حوزته 133 مدفعا، بعضها متحركة والأخرى ثابتة، و28 مدفعا رشاشا من النوع الثقيل، و9 طائرات بين فرمان وكابروني، فهو يدرك إدراك اليقين أن العرب لو امتنعوا عن التنازع فيما بينهم، ووجهوا كافة قواهم، ومنها 37 مدفعا غنموها من الإيطاليين، ضد دفاعات طرابلس، فلن تثبت هذه أمامهم طويلا.

لكنه كان مقتنعا أن العرب لن يعرفوا طريق الوفاق بينهم في القريب، وأنه لا يزال يتمتع بهامش واسع في عملية تفكيك جبهة الخصم. ولتأكيد صرامته الثابتة، أعلن الجنرال أميليو في صيف 1916 رصده مكافآت عالية مقابل رؤوس معظم رجالات التمرد تدفع "لقاء المساهمة في القبض عليهم أو قتلهم." رصد مبلغ عشرين ألف ليرة لكل من رأسي رمضان الشتيوي ومحمد سوف المحمودي، وعشرة آلاف ليرة على كل من رأسي محمد فكيني وسليمان الباروني.[15] في تلك الأثناء، كان محمد فكيني ينشط كرجل سلام لا

---

[14] المرجع نفسه، ص 161-162.

[15] كان قرار المبلغ الذي صد لرأس محمد فكيني بتاريخ 11 سبتمبر 1916. أنظر النص الكامل في أرشيف أنور فكيني.

كمتمرد، إلا أنه حشر في القائمة السوداء للمعارضين المتصلبين، ولم يخرج منها بعد ذلك.

4- كان محمد صفي الدين الضحية الأولى البارزة للخصومات المشتعلة بين القادة العرب. فبعد إجتماع أكتوبر بترهونة، الذي وضعه في موضع الأقلية، لم يمد له أي من الأعيان يد المعونة، ولا حتى الذين يتظاهرون بحكم بلدانهم باسم "السنوسية المباركة". بدا لأميليو أن الشاب اليافع صفي الدين، لم يتجاوز العقد الثاني من عمره، إرتكب أخطاء سياسية، خصوصا من خلال إفراغ برنامجه الإسلامي والعربي من محتواه الأساسي، وتبنيه أساليب فردية في الحكم لا تخلو من مصالح مادية.

أدرك صفي الدين أنه لا يستطيع أن يعول على دعم أخيه محمد العابد، الذي حضه على مغادرة طرابلس الغرب، وقد اقتنع بإخفاقه أمام رمضان الشتيوي حتى صار على قاب قوسين من الهلاك. ففي 7 من يناير سنة 1916، أي بعد ستة أشهر من دخوله المظفر إلى القلعة التركية ببني وليد، غادر صفي الدين القلعة على وجل، ومع قلة من أتباعه اتجه صوب سرت، حيث كان يعول على دعم صديقه الوفي صالح الاطيوش. في حين لم تتيسر النجاة لنائبه أحمد التواتي.

"جرد الرجل من لباسه الحريري ومن عمامته المحلاة بضفائر الذهب والفضة، وألبس قميصا بسيطا - كما ذكر الملازم إتوري ميراليا، الشاهد على الحادثة [16] - وكان يمشي بخطى بطيئة، يعيقه أثناء التحرك قيد حديدي غليظ يحيط بكعبيه. (...) إستجوب رمضان الشتيوي التواتي على الفور، وبعد الإستنطاق العسير، أنزل في خزان

---

[16] سقط إتوري ميراليا مع ألفي عسكري، بين إيطاليين وإريتريين وليبيين، في 9 من يوليو سنة 1915 أثناء إندلاع الثورة العربية الكبرى.

القلعة، حيث شدت يداه إلى الخلف، بشكل يعيقه عن الأكل كالآدميين ويرغمه على إدناء فوه، مقربا وجهه إلى الأرض كالكلاب".[17]

إن فرار محمد صفي الدين العاجل من بني وليد والنهاية المأساوية لوكيله أحمد التواتي وضعا حدا للوصاية السنوسية الخاطفة على طرابلس الغرب، من ذلك الحين فصاعدا لم يتجاوز تأثير الجماعة وادي زمزم في سرت، وحل محل السنوسيين في قيادة الثورة ضد الإيطاليين، جمع غفير من الضباط الأتراك كانوا قد وصلوا إلى مصراتة مع نهاية عام 1915.

كان يبدو أن تركيا معنية فقط بمساندة كافة القوى العربية التي تتطلع لمحاربة الإيطاليين، موكلة إياها بتسيير العمليات العسكرية، لكن منذ بداية 1916 غيرت موقفها جذريا وحاولت أن تتولى بنفسها مقاليد الصراع، حتى وإن تطلب الأمر رمي السنوسية في البحر، وإن كانت هذه قد خدمت الباب العالي بتفان وإخلاص. في البداية، أبلغت تركيا الحكومة الإيطالية، عبر إسبانيا البلد المحايد، أن "حالة الحرب ألغت كافة الإتفاقيات والمعاهدات مع إيطاليا، ومنها أيضا معاهدة أوشي التي فقدت صلاحيتها، ولذلك تريد تركيا التمسك بحق السيادة على ولاية طرابلس وعلى لواء بنغازي، لذا فهي لن تلتزم بالإمتناع عن إرسال الأسلحة والعتاد، الجنود والضباط إلى الأراضي المعنية".[18]

خلال أشهَر قليلة تحولت مصراتة بسرعة إلى بؤرة سياسية

---

[17] Ettore Miraglia, *Tra le quinte della rivolta libica*, documento inedito, in DLPA, pp. 74-75.

في مارس 1916، جرى شنق أحمد التواتي مع اثنين آخرين من قادة السنوسية من قبل رمضان الشتيوي في مصراتة.

[18] ذكر التنبيه التركي لإيطاليا في المؤلف الحاوي لكتابات : Gaspare Colosimo, Edizione fuori commercio, Scuola Tipografica Pontificia Bartolo Longo, Pompei, 1959, p. 54.

وعسكرية للثورة وتم ربطها بالقسطنطينية عن طريق محطة إرسال قوية. "بدأت الغواصات في الوصول بمعدل مرة كل خمسة عشر يوما، بانضباط مثير- يذكر الملازم ميراليا، الذي لا زال أسيرا لدى رمضان الشتيوي في مصراتة. كان الضباط الأتراك الذين ينزلون من الغواصات وقادمين من قبل نوري باشا، يوزعون على كافة المراكز ويكلفون بمهمة التنظيم العسكري[19]، وكان يتم توزيع الأسلحة على كافة الجهات"[20] وحسب المعلومات التي بحوزة الوالي أميليو، كانت الغواصات التركية تنزل كل مرة مئات البنادق والمعدات والأموال، وحتى المدافع الصغيرة ذات عيار 37 و57 ملم. وكل هذا، يذكر أميليو في تقريره إلى وزارة المستعمرات، بسبب تدهورا جليا للأوضاع في طرابلس الغرب وبرقة".[21]

5. لمواجهة الهجمة السياسية العسكرية الجديدة للعرب والأتراك، عزز الوالي أميليو برنامجه لزرع الفتنة بين المجاهدين، مثيرا العداوة بين البربر والعرب، وبين العرب والسنوسيين. وقد حقق نجاحا ملحوظا مع قائدين بربريين، ساسي خزام ويوسف خربيش، إذ رفض الإثنان الاعتراف بسلطة السنوسية وأبديا عداوة خاصة لبعض ممثليها مثل محمد سوف المحمودي ومهدي السني ومحمد فكيني.[22] ما روجته الحوليات الإستعمارية الإيطالية كصراع عرقي بين العرب والبربر، كان في الحقيقة، نتيجة عملية ماكرة للجنرال أميليو والذي كان قد إتصل بساسي خزام ويوسف خربيش بواسطة متصرف

---

[19] كان نوري باشا جنرالا شابا على رأس فرقة عسكرية، وهو أخو وزير الحرب أنور باشا. كان مكلفا في مصراتة بمهمة قيادة القوات التركية.

[20] Miraglia, *op. cit.*, p.143.

[21] الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية ,ليبيا، الموقف 1/1101، الورقة 1، التقرير رقم 1667 بتاريخ 18 أغسطس 1916.

[22] Raffaele Rapex, *L'affermazione della sovranità italiane in Tripolitania*, Chihli Press, Tientsin, 1937 1937, pp. 73-74.

زوارة سلطان بن شعبان، أحد أتباع المذهب الأباضي، الذي قدم خدمات جليلة للحكومة طرابلس، واعدا إياها بالسلاح والعتاد والمؤونة والمال، وبمساندة الوحدات الإيطالية، مقابل فتح جبهة ضد العرب في الجبل.

رحب القائدان البربريان فورا بمقترحات الوالي أميليو، كان ساسي خزام يتولى الحكم لصالح السنوسية في يفرن ذات الأغلبية الإباضية. وكان يوسف خربيش، من جانب آخر، يراقب مع رجاله المسلحين وسط فساطو. إن قصة هذه الشخصية تستحق أن تروى لأنها تلخص بجلاء العداوة الوراثية المفترضة بين العرب والبربر : برحيل والده، وجد يوسف خربيش نفسه في أزمة مادية خانقة، فقد أوقفته السلطات العثمانية بسبب عدم تسديد الضرائب. تدخل محمد فكيني لإطلاق سراحه ولم يكتف بدفع الضرائب المتخلفة عن الشاب البربري بل وفر له عملا. ولما لاحظ فيه من أهلية في الميدان الإداري، كلفه بلدية فساطو. كان يوسف خربيش مدينا إذن لمحمد فكيني الذي إستقبله في بيته كابن له، وربما لذلك السبب لم يخفه سرا بقراره تغيير المعسكر. يذكر فكيني :"ذات ليلة، أتاني قائلا " :هؤلاء السنوسية لا قيمة كبيرة لهم، ومن الأفضل العمل لصالح الحكومة الإيطالية.[23]"

وسرعان ما بلغ محمد فكيني نبأ إشهار خزام ويوسف خربيش العداوة ضد الأهالي في الجبل، فحسب المخطط الذي رسمه الوالي أميليو. في 28 أبريل 1916، مثلا، تسلم رسالة من سعيد بوبرنوسة، يتوسل إليه فيها التدخل الفوري كما جاء في أرشيف فكيني ":... أكبادنا صارت دماء مما جرى بين المسلمين من معاملات الكفار ومنهم الباشا يوسف خربيشة وأعوانه الذين لا دين لهم ولا أمل في

[23] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 164.

الحكومة على هيئة السفر، وأنت أجر واعمل حزم، وكلما انتظرنا ما رأينا خروج الحكومة لا من جهة الشرق ولا من جهة الغرب. تضايقنا من العربان... وعلى كل حال إنسدت الطرق علينا. يا حضرة الأخ : إن عند خروج عرفونا واخرجوا، وإن لا في هذا الوقت غير ممكن خروج الحكومة عرفوني بالحقيقة لنجعل مخلص حسن ما يصير لنا مثل فساطو." [1]

إتخذ الجنرال أميليو بعض التدابير لإنقاذ ساسي خزام، لكن فرقة التعزيزات، بقيادة النقيب ستريفا، لم تستطع بلوغ الجبل وأجبرت على الإنكفاء بسرعة نحو زوارة. في نفس الوقت هاجم أتباع محمد فكيني قصر يفرن، وفي 20 أكتوبر استولوا عليه. أعتقل ساسي خزام وتمت مقاضاته من قبل العلماء، حكم فيها عليه بالإعدام وكلف مهدي السني بمهمة التنفيذ، وأعدم رميا بالرصاص في قرية ككلة. لم تنته عملية إميليو الملتبسة لزرع الفتنة بين بربر الجبل والعرب فقط بخيبة شاملة على المستوى العسكري، بل إن الدماء المهدورة عبثا سلبت الإيطاليين تعاطف العديد من العرب. بدءا من الإخوة كعبار، الذين قد قدموا خدمات جليلة لحكومة طرابلس ثم تحولوا مع أنصارهم إلى معسكر المتمردين.[2]

---

[1] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 6.

[2] تعتبر عائلة كعبار من أهم عائلات جبل غريان. كان محمد بي كعبار نائبا على غريان في البرلمان العثماني، وكان الحاج كعبار قائمقام قصر غريان أثناء الهيمنة التركية. مع أحمد راسم كعبار، أصغر الإخوة الثلاثة، انضموا لخدمة الإيطاليين مباشرة إثر انتهاء الحرب الإيطالية التركية. بعد تحول عائلة كعبار إلى معسكر الثوار، حرم راسم من قيادة عصابة غريان ولاحقا، سنة 1917، نفي إلى أوستيكا. أطلق سراحه في 4 من نوفمبر سنة 1918 بتدخل من وزير المستعمرات كولوزيمو.

الفصل السادس

نشأة الجمهورية الطرابلسية

1. باءت محاولات إشراك البربر وتشجيع تطلعات الحكم الذاتي بينهم بالفشل كليا، إلا أن الجنرال أميليو تمكن من تحقيق مكسب في 18 من مايو 1916 بإعادة احتلال ميناء زوارة وبلداتها الذان بدونهما يتعذّر توفير المساعدات لبربر الجبل. كان للإنزال بزوارة مدلول مزدوج، عسكري ومعنوي، لأنه قلب الاتجاه نحو التنازل المستمر عن الأراضي. وبالتالي، من زوارة هذه استطاع الجنرال لاتيني في شهر أغسطس تشتيت المحلات المتمرّدة التي تمركزت في الواحات القريبة من العجيلات وصرمان.

في خريف 1916، حظيت حركة المقاومة العربية، التي بدت في حالة من الركود والخمول، بدفع جديد، بفضل الجنرال الشاب نوري باشا وبفضل سليمان الباروني ذي النشاط الذي لا ينضب. فهذا الأخير رغم التكهنات المستمرة بفشله واتهامه بالغموض والخيانة، استطاع العودة إلى طرابلس الغرب منتصراً بعد تسلّمه من يد السلطان محمّد الخامس فرماناً ينصّبه والياً وقائداً عسكرياً على طرابلس الغرب. بعد أن وضع جانباً حلم تكوين دولة بربرية، عاد النائب سليمان الباروني إلى ليبيا وكيلاً للسلطان، تسنده سلطات واسعة، مُكلفاً بمهمّة تأجيج الثورة في كلّ من تونس والجزائر.

مع نهاية شهر أكتوبر سنة 1916، حلّ سليمان الباروني بميناء مصراتة على متن غواصة تركية، وانهمك مباشرة في حل الخلافات وإخماد المنافسات التي تضعف الجبهة الليبية. وزّع المهام وقبل نصائح محمّد فكيني بتجنب مهاجمة تونس التي حصل الليبيون منها على مساعدات كبيرة أثناء الحرب الإيطالية التركية.[1] نسي الباروني، أو تظاهر بتناسي الخصومات العنيفة مع فكيني، لا بل وأولاه اهتماماً وأثنى عليه عاطر الثناء، يبدو هذا في رسالة بتاريخ 24 من ديسمبر 1916، يخبره فيها بنية تضييق الخناق على زوارة :

"الوطني الغيور المجاهد بحق، أخينا الحاج محمد بك فكيني، وفقه الله، السلام عليكم. ورد إليَّ جوابكم، وسرّني جداً اجتهادكم، بارك الله فيكم. وهكذا كان أمل الملة والدولة في رجالها".[2]

في اليوم ذاته، أي في 24 من ديسمبر، أرسل سليمان الباروني رسالة ثانية إلى فكيني ضمّنها هذا الطّلب الغريب: "الشيء الهام في الظرف الحالي، سرعة عملكم. عليكم إرسال مستلزمات المدافع كي نتمكن من استعمالها لمدفع العزيزية، لأنّ المدفعَيْن من نفس النوعية والعيار. أرسِلوا إلينا أيضا كمية كافية من القذائف لهذه المدافع لأننا ننوي تطويق المدينة وقصفها من كلّ صوب".[3] بعد أربعة أيّام أخبر الباروني فكيني بوصوله مع كافة عناصر جيشه إلى العجيلات، وأعلمه أنه سيتخذ في الغد مواقع مقابل زوارة، لذا يرجوه الانضمام إليه. لبى محمّد فكيني النداء بسرعة مصحوباً بمئات الفرسان من الرجبان والزنتان.

---

[1] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 191-190.
[2] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 16.
[3] المرجع نفسه، الملحق رقم 17.

في الأيام اللاحقة، اجتمع سليمان وفكيني ومجموعة من الضباط الأتراك والألمان في واحة الجديدة لمناقشة الوضع. وفي نهاية اللقاء تم الاتفاق على أن يهاجم جيش المجاهدين زوارة من الناحية الجنوبية. لكن حدث في الليل ما لم يكن في الحسبان، وهدد بفشل العملية برمّتها. علمت المخابرات التركية باجتماع بعض الجواسيس من أتباع المذهب الأباضي في زوارة بسليمان الباروني، فتم القبض عليهم، وعُثِر مع احدهم على رسالة من الباروني لقائد الجماعات البربرية يوسف خربيش، تحوي كافة تفاصيل الهجوم المقرر تنفيذه.[4]

رغم هذا الحادث الخطير، لم يُؤجل الهجوم. لكن في هذه الأثناء، اتخذ الجنرال أميليو احتياطاته اللازمة، فحشد على طريق البحر في زوارة 5700 جندي من المشاة و200 من الخيالة و14 مدفعا. وفي ليلة 15 من يناير 1917، خرج الجنرال لاتيني من المدينة وشن هجوماً لأجل تحقيق هدفين: إعادة بناء الاتصالات بين زوارة وطرابلس وتفريق المحلات المحتشدة في واحات الجديدة والعجيلات. لكن الجنرال لاتيني كان يجهل عدد المتمرّدين، الذي جاوز 5 آلاف، كما كان يجهل أيضا التفافهم حول أهم قادة الثورة، من سليمان الباروني إلى محمّد فكيني، ومن مهدي السني إلى خليفة بن عسكر.

بدأ الاقتتال فجر 16 من يناير، غرب الجديدة، أثناء هبوب عواصف رملية تعيق الرؤية وتحدّ من مدى قصف المدافع. مع ذلك استمرّ القتال على أشده وامتدّ حتى ساعات الليل، في معركة لا يمكن التنبؤ بنتائجها. وفي الغد كذلك، تعذر على الجنرال لاتيني اقتحام واحة الجديدة، مما أجبره على التراجع نحو زوارة ليلا، فتبعه

---

[4] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 194.

المجاهدون ولاحقوه حتى الميناء. كان بين المجاهدين العرب أحد أبناء محمّد فكيني الشاب اليافع حسين، الذي لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره.[5]

رغم النصر الذي أحرزه المجاهدون في المرحلة الأولى من المعارك، إلا أنهم اضطروا إلى مغادرة زوارة والتراجع نحو واحة سيدي بوعجيلة، تحت وابل من القنابل ألقت بها الطائرات وجرّاء قصف مدافع البواخر الراسية. لكن الجنرال لاتيني أخفق في تحقيق هدفيه وتكبّد خسائر ثقيلة : 76 قتيلا و235 جريحا.[6] وما كان يُرجى أن يكون اختباراً للقوّة، لم يوفر في الحقيقة أيّة نتيجة ملموسة، إذ لم يتبعه أيّ احتلال لأراض. بالإضافة إلى ذلك، فقد شعر لاتيني بخطر فقدان زوارة مما استوجب إعادة تحميل جهاز الحملة على متن السفن بشكل سريع وعاجل.

2. في مذكراته عرض محمّد فكيني وقائع اللقاء السرّي بين سليمان الباروني وجواسيس يوسف خربيش في ما لا يتجاوز العشرة أسطر، ومن الغريب أنه لم يذيله بأيّ تعليق. واستناداً إلى معرفتنا بعداوة فكيني الشديدة لغريمه البربري، فإن الصمت حول هذه الحادثة الكبيرة يتركنا في حيرة. فالأمر يتعلق إمّا بزيفٍ اختلقته المخابرات العثمانية للنيل من سمعة سليمان، أو أنه يجيز لنا التساؤل عن سبب دمج فكيني ذلك في مذكراته وإن كان بشكل مقتضب، أو لأنّ اللقاء جرى فعلاً، وأنّ فكيني فضل عدم التعليق بانتظار أن يتخذ ممثل

---

[5] المرجع نفسه، ص 195.

[6] حسب التقديرات الإيطالية، وهي غير دقيقة، قتل من الجانب العربي 820 فردا وجرح 1200.

السّلطان نوري باشا إجراء ما. مهما كان من الأمر، فإن هذا الوضع لم يكن معقولاً. لقد كشف قائد العمليات في الجيش للخصم مواقعه وخططه قبل الهجوم، عبر بعض الوسطاء. فما هي الثنايا الشّائكة المضللة التي كان يسلكها سليمان الباروني، ذلك الماكر الذي لا يأفل نجمه ؟

ما هو مؤكد وما تثبته الوثائق الرسمية الإيطالية والتركية، أن الرجل لم يعكّر صفوه أيّ شيء وواصل أداء مهامه العليا. بعد عشرة أيام من معارك الجديدة وزوارة، استلم محمّد فكيني هذا الإعلان المؤثر عبر رسالة موقعة من نوري باشا وسليمان الباروني:

" المجاهد المحترم الحاج محمد بك فكيني وفقه الله .

اقتضى رأينا تعيينك مفتشاً عمومياً للقسم الغربي من الولاية لما علمناه من صداقتك للدولة العثمانية وإخلاصك للوطن وحسن اقتدارك ووقوفك على أحوال البلاد وأخلاق الأهالي. فباشر مأموريتك بالتوجه إلى الزاوية وجنزور والنواحي الأربع وترهونة والعزيزية وغريان والجبل. وأرشد الناس إلى الاتحاد لخدمة الوطن وحبّ الدولة العثمانية حامية الخلافة العظمى. وقدّم لنا تقريراً في كل ما تطّلع عليه من أفكار العامة والخاصة وما فيه صلاح الوطن وأصلِح بين المتنافرين من القبائل والأعيان إذا أمكن بدون أن تتدخل في شؤون المأمورين ومأموريتهم. والله الموفق.

(والي وقومندان طرابلس الغرب: نوري باشا - سليمان الباروني)".[7]

---

[7] أرشيف أنور فكيني، المرجع نفسه، ملحق رقم 18.

في المجال العسكري كذلك، واصل سليمان الباروني تولي مقاليد تسيير الأمور على مستوى عال، كما تثبت هذه الرّسالة المرسَلة إلى فكيني في 24 من فبراير 1917: "قررنا مهاجمة المدينة (يعني طرابلس) بالمدافع التي ثبتت قوتها وفاعليتها. وأمرنا أن يُوجَّه مدفع الزاوية إلى سواني بني آدم. من الضروري إرسال مدفعي غريان الآخرين بأسرع ما يمكن، وخلال أسبوع إن تيسر ذلك".[8] بالفعل تواصل حصار المجاهدين للمدن الثلاث الأخرى التي ما زالت بأيدي الإيطاليين بلا كلل، رغم تعدّد المنافذ ومحاولات توسيع رؤوس الجسور.

مثلا، في 5 من أبريل سنة 1917، غادر الجنرال كاسينيس زوارة على رأس فيلق متكوّن من 5110 من الجنود النظاميين، و 4259 من غير النظاميين، و 550 من الخيالة، و 16 مدفعا. وفي الغد جرى الاشتباك مع الخصم في الدورانية، جنوب العجيلات. دامت المعارك خمس ساعات، انسحب على إثرها المجاهدون. لكنَّ كاسينيس لم يسيطر بشكل ثابت على المواقع التي كان قد احتلّها سابقا، وبعد أن بات في قصر تليل، عاد في الغد إلى زوارة. كما فشلت المحاولة التي قام بها كاسينيس في سبتمبر، باحتلال المواقع الساحلية لمرسى زواغة وسيدي بلال، وأخفقت كذلك خطة استعادة العزيزية، التي صارت في هذه الأثناء مركز الاتصال والدعاية الرئيسي لسليمان الباروني. بالفعل، لم يتسن للجنرال كاسينيس حتى احتلال فندق بن غشير، الذي يقع في منتصف الطريق. وقد اشتبك لمدّة خمس ساعات مع الثوّار، الذين حاولوا الالتفاف عليه من الجهة اليمنى، مما أجبره بعد ظهر 20 من سبتمبر على التراجع نحو طرابلس.

---

[8] المرجع نفسه، الملحق رقم 19.

في 2 من مايو سنة 1917، تسلم محمّد فكيني مهمّة أخرى ونال ترقية جديدة. فقد جلب له نوري باشا وسليمان الباروني فرماناً من السلطان ورد فيه: "بناء على ما عرفت به من حسن السيرة والاقتدار على إدارة شؤون ما يُعهد إليك من الأمور، وصراحتك للدولة العثمانية أيدها الله، ووقوفك على أحوال الأهالي، قد رأينا تعيينك متصرفاً للواء الجبل الغربي... فعليك بالاجتهاد في تنظيم شؤون خدمتك، وإزالة ما كان يقع فيه من التعدي والظلم، وإجراء العدل بين الأهالي، وإعلاء شأن الدولة في تلك الجهات، وقطع دابر السرقات، وتأمين الطرقات، وسدّ باب الرشوة، وإظهار شعائر الدين المطهّر، والجدّ في كامل ما فيه إقامة الجهاد المقدّس وقهر الأعداء، وأرجو لك من الله التوفيق. - 2 أيار 1917) والي طرابلس الغرب سليمان الباروني، والقومندان: نوري باشا ".[9]

3. نظراً لما ضُرب حوله من حصار في الساحات الرئيسية الثلاث، طرابلس والخمس وزوارة وعجزه عن احتلال مواقع أخرى بشكل ثابت، لم يذعن الوالي أميليو لضغط وزير المستعمرات كولوزيمو، الذي كان يطالبه بنشاط أهم من قِبل جنرال بمستواه، وثأر لنفسه بتطبيق سياسة الأرض المحروقة على مستوى واسع. في شهر أبريل أمر طائراته بإلقاء 1270 كيلوغراماً من السوائل الحارقة و3600 كيلوغرام من العبوات الشديدة الانفجار على حقول الشعير بجنزور وزوارة. وبين مايو وأغسطس استخدم كافة الطائرات الموجودة في طرابلس الغرب في سلسلة من الغارات، على حقول

[9] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 199.

سواني بني آدم وجنزور وفندق بن غشير والجديدة وصرمان والعجيلات والزاوية والعزيزية. بإحراق كافة محاصيل الجفارة. كان أميليو يأمل في إجبار المتمرّدين على الانسحاب نحو الجبل وفكّ الخناق المضروب على المدن الساحلية الثلاث. ورغم الخسائر الجسيمة والجوع الذي بدأ يفتك بالأهالي العرب، فقد تواصل الحصار على أشدّه.

وعلى الرغم من أن العيش كان عسيراً في الأماكن التي يسيطر عليها المجاهدون فإن بقاء الأهالي على قيد الحياة كان رهناً بالقوافل المحملة بالمؤونة الوافدة بشكل غير منتظم من تونس. لم يكن الوضع أفضل في طرابلس رغم وجود حزام من التحصينات الدفاعية وخطوط من أسلاك الكهرباء ذات الضغط العالي.

فكما يذكر الجنرال جيراردو بانتانو، "ليست للدفاعات الحصينة قيمة إن كان يقبع خلفها أناس خائرو العزم. لقد تراجعت معنويات الجنود: فالإخفاقات المتتالية على مدى أشهر، والجهود الكبيرة المبذولة بلا جدوى، والانسحاب المؤلم والكارثي، والخسائر الفادحة الحاصلة، كلها مجتمعة هزّت الأنفس".[10]

وضح بانتانو الذي يدافع بثلاث كتائب عن الجزء الشرقي من واحة طرابلس، أن المدينة ليلا كانت مشلولة فعلا من جرّاء ما يدبّ من رعب: "كلب ضال، أو قطّ يطارد قطّة، أو خرقة تهزّها الرّيح، أو ظلّ نخلة متحرّك، كان يكفي لبثّ الذعر الذي ينتهي دوماً بطلقات نيران عشوائية على طول خطّ الأسلاك الشائكة".[11]

---

[10] Gherardo Pàntano, *op. cit.*, p. 286.

[11] المرجع نفسه، ص 288.

دفع التوجس والريبة من العرب بأميليو إلى نفي الكتائب الليبية إلى صقلية، حتى تلك التي أبدت ولاءها المطلق. بخصوص هذه الأحداث، كتب شاهد غير منحاز مثل بانتانو : "لا يدور الحديث في المقاهي والمطاعم سوى عن الشنق والإعدامات والحاجة الماسة للتدمير لإتمام الغزو النهائي لطرابلس الغرب. بالفعل، يتعلق الأمر بشنق وإعدام وتدمير العرب الذين بقوا طوعاً أو كرهاً محاصرين معنا بين الدفاعات، علماً أن المتمردين استطاعوا أن يضعوا أنفسهم بمأمن من أي إجراء تعسفي".[12]

في حين تراجع القتال بشكل ملحوظ، كان الجوع هو المنتصر الوحيد في المعسكرين بلا منازع. "كان أفراد الوحدات منهكين بشكل لا يصدّق - يذكر بانتانو- تراجعت نوعية وجباتهم بشكل لافت حتى انتهى الأمر بالجنود البائسين إلى أكل القطط والكلاب الموجودة في الواحة وبلغ ببعضهم الجوع إلى درجة منازعة البهائم البرسيم، لطبخها وتتبيلها كالسلطة. تراجعت حصتهم من اللحم إلى 200 غرام أسبوعيا".[13] وإذا كانت مسؤولية نقص مواد التموين في المعسكر الإيطالي ترجع إلى كثافة أنشطة الغواصات الألمانية والنمساوية التي تهاجم قوافل التموين، ففي معسكر المتمرّدين كانت المسؤولية كلها تقع على عاتق الوالي أميليو وسياسة الأرض المحروقة الخاطئة التي كان ينتهجها. "يأتي الشيوخ والنساء والأطفال من الداخل يدفعهم الجوع، ليلقوا حتفهم على الأسلاك الشائكة" كتب العقيد أوتورينو

---

[12] المرجع نفسه، ص 289. كان سليمان الباروني أيضا على علم بما يجري في طرابلس. في رسالة بعث بها إلى محمّد فكيني، كتب: " الذين خرجوا أمس من طرابلس لجهة ترهونة أخبروا أن العدو في حيص بيص من جهة حرب أوروبا، وأن روما تحت المحاصرة، والبحر مقطوع عن طرابلس، وأنهم ضبطوا جميع المأكولات الموجودة في بيوت الأهالي في المدينة، ومنعوا أصحاب السواني من حصاد زرعهم، ولا قوة لهم إلا الفرقة الضالة من أقسام الوطنيين الذين معهم".(أرشيف أنور فكيني، المرجع نفسه، الملحق رقم 19.)

ميزيتي، قائد جهة زوارة. "إن الإمكانيات غير متوفرة لاستقبالهم، إما لأن الأهالي خاضعون لنظام الحصص أو لأن هناك تعويلاً على تجويع الداخل المحاصر تقريبا، بغرض دفع المتمرّدين للاستسلام".[14]

4. في الوقت الذي خيّم فيه الرعب على طرابلس وهلك الناس جوعاً في الجفارة، وضع الجنرال نوري باشا مخططاً طموحاً لطرد السّنوسيين من فزّان. فبفضل نشاط الألباني محمّد الأرناؤوطي بن خليفة الزاوي وبعض الأعوان الأتراك الآخرين، استطاع إشعال فتيل الثورة في فزّان ضدّ الجماعة السّنوسية. في أغسطس 1917، أثناء صدام وقع في سبها، ألقي القبض على محمّد علي الأشهب، خال السّنوسي الأكبر، وتم شنقه. في حين أُجبر محمّد العابد، شقيق زعيم الجماعة، على ترك الوادي الكبير واللّجوء إلى الكفرة البعيدة. تلك كانت نهاية هيمنة السّنوسية في فزّان.

في نهاية 1917، حصل تحوّل في قمة هرم القيادة التركية. فقد تخلى نوري باشا عن مهمته بعدما هاجم رمضان الشتيوي في سرت إحدى قوافله المحمّلة بالسلاح والعتاد والمؤونة والمال، والتي كان يحرسها أربعون رجلاً وبعض الضبّاط الأتراك، والتي كانت مُرسلة إلى المجاهدين في برقة. تملك نوري السخط جرّاء الحادثة وخصوصاً ما حلّ بالحرّاس، فطلب من أخيه أنور باشا العودة للوطن.[15] ولتعويضه، عين الباب العالي الجنرال إسحق باشا نائباً للسلطان وقائداً عاماً، الذي استبدل بعد أشهر قليلة بابن السلطان

---

[13] المرجع نفسه، ص 332.

[14] Ottorino Mezzetti, *Guerra in Libia*, Cremonese, Roma, 1933, p. 11.

[15] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 200.

السابق مراد، الأمير عثمان فؤاد. وقد قام حال وصوله على متن غوّاصة إلى مصراتة بزيارة للأسرى الإيطاليين. وصفه الملازم ميراليا قائلا : "شاب يافع، قويّ البنية، نزل من فوق فرسه وترجّل نحونا لتحيّتنا بحفاوة وبشاشة، كما مكث معنا قليلا. (...) يرتدي زيّا أبيض كليّاً، مع عمامة موشاة بضفائر الذهب والفضة، لا يمكن للأمير إلا أن يثير التعاطف الحار (...) حتى وإن كان أكثر شبهاً بمغني أوبرا هزلية".[16]

إصطحب عثمان فؤاد معه المصريّ عبد الرحمان عزّام بوصفه وزيراً مستشاراً، والذي سيصير لاحقاً الأمين العام لجامعة الدول العربية. انطلقا معاً في جولة تفقدية طويلة على الجبهتين الشرقية والغربيّة. أثناء الرحلة جمع المصري بعض الآراء السلبية عن سليمان الباروني، مما دفعه لإطلاع رؤسائه وحكومة اسطنبول عليها. هكذا أنشئت لجنة التحقيقات التي كشفت بلا أدنى شك، التواطؤ المستمرّ للقائد البربري مع أتباع المذهب الأباضي الذين لجؤوا إلى زوارة. ولأن الجريمة المقترَفة تصنف في باب الخيانة العظمى، حكمت اللجنة على الباروني بالإعدام. إلا أن هذا الأخير لم ينتظر صدور الحكم، إذ قبل ساعات من إعلانه، التجأ إلى ترهونة، لدى صديقه أحمد المريض، وبقي في حمايته حتى انتهاء الحرب واستسلام الدولة العثمانية.[17]

تبقى شخصية سليمان الباروني، التي درسها بعض المؤرخين الإيطاليين،[18] من بين أكثر الشخصيات غموضاً وإثارة للجدل. فبعد

[16] Ettore Miraglia, *op. cit.*, pp. 227-28.

[17] مع توقف النزاعات، اجتاز الأمير عثمان فؤاد ومرافقه الحدود التونسية ومن هناك التحقا باسطنبول.

[18] أنظر مثلا من بين الدارسين الإيطاليين الذين اهتمّوا بالقائد البربري سليمان الباروني :

أشهر قليلة من اللقاء السري مع مبعوثي يوسف خربيش، تلك الحادثة التي تكفي لتثبيت حكم الإعدام عليه، أرسل سليمان الباروني إلى شيخ المذهب الأباضي وإلى أعيان آخرين ممن اختاروا العيش في زوارة تحت حماية الإيطاليين والتعاون معهم، هذه الرسالة العجيبة، التي تظهره وكأنه ينفي أي تورط له، والتي تبرز موهبته الأدبية. فبعد أن عرج على مزاياهم واستقامتهم أثناء الحرب الإيطالية التركية خلال1911-1912، طرح سليمان عليهم سلسلة من الأسئلة الحرجة:

"استحلفكم بالله، هل ترضَون ـ وأنتم أذكى أناس في هذه المنطقة ـ أن تظلّ بلادكم خراباً ينعق فيها البوم، ويسكنها قطّاع الطرق، بعد أن كانت محطّ أنظار السواح، وبعد أن كانت موطن أناس ومحاربين بواسل وحكماء مشهورين ؟

هل ترضَون أن تظلَّ هذه المساجد الطاهرة التي شُيدت باسم الله منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، أطلالاً فارغة لا يُذكر فيها اسم الله؟ هل ترضَون أن تستمعوا إلى النساء والعذارى العفيفات، ذوات الأجساد الرقيقة، وهن يقفن على قارعة الطريق حافيات، يستجدين عون الرجال في كل قرية وفي ظلّ كل شجرة، وقد شوّه أجسادهن الجوع وأنهكهن السير في العراء تحت لفح الريح وحرارة الشمس ؟ هل ترضَون أن تعيشوا في بلد آخر، غرباء مهانين، وفقراء بائسين،

Francesco Corò, *Suleiman el-Baruni. Il sogno di un principato berbero e la battaglia di Asàaba*, «Gli annali dell'Africa Italiana», anno I, n. 3/4, dicembre 1938, pp. 957-69.

بعد أن تتخلوا عن وطن يشع بأنوار المجد والعظمة؟"[19]

لكن من هو سليمان الباروني الذي يخون والذي، في الوقت ذاته، يحثّ رجاله على التضحية والثأر للكرامة المهدورة ؟ كان على الأرجح حرباء حقيقية، مستعدا للتأقلم مع أيّة حالة ومع أيّ طارئ. فقد لاحقته الحكومة العثمانية قضائيا أربع مرّات، كما سلّطت عليه عقوبة الإعدام، لكنه كان يعاود الظهور بعد كل فضيحة أكثر قوة وأشد صلابة مما مضى. ففي عالم ريفي تخيم عليه الأمية، كان سليمان يوظف ثقافته وبيانه ومراوغاته التي لا تعرف حدّا، سلاحا قاطعا، حقق له الغلبة مرارا.

إن الوثائق العربية، التي تيسر لنا الاطّلاع عليها أخيرا، أثبتت بشكل عام الأحكام السلبية الصادرة ضدّه من قِبل السلطات الإيطالية المحتلة كما رأينا.

5. ما إن وضعت الحرب أوزارها في أوروبا حتى أعلنت في القصبات، أثناء مؤتمر للقادة الليبيين، الجمهورية الطّرابلسيّة، أي جمهورية طرابلس الغرب. كانت الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر يوم السبت في 15 من نوفمبر 1918 عندما تُلي في الاجتماع الإعلان المهيب :

"في الساعة الرابعة من يوم السبت المبارك 12 من شهر صفر الخير سنة 1337 الموافق 15 نوفمبر سنة 1918 ، قررت الأمة الطرابلسة استقلالها وإعلان حكومة الجمهورية باتفاق رأي علمائها الأجلاء وأعيانها ورؤساء مجاهديها المحترمين الذين اجتمعوا من كل

[19] في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 14/150، ص 58.

محالّ البلاد. وقد تمّ انتخاب أعضاء "مجلس المبعوثان" الطرابلسي، وانتخاب أعضاء مجلس الجمهورية، وافتتح أعماله بتبليغ إعلان الجمهورية إلى الدول الأخرى والدولة الإيطالية. أما الآن فالأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة على استقلالها الذي اكتسبته بجهاد أبنائها وقواتها منذ سبع سنوات، وتعدّ نفسها جديرة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي أشرف ما تصل إليه الأمم، وهي تهنئ أبناءها بتمام نجاحها ونجاح الجهاد في سبيل دينها والدفاع عن وطنها وحكومتهم الجمهورية الجليلة، والتوفيق من الله.

السادس من أكتوبر سنة 1334 هجرية
عضو الجمهورية : رمضان الشتيوي السويحلي
عضو الجمهورية : سليمان الباروني
عضو الجمهورية : عبد النبي بالخير
عضو الجمهورية : أحمد المريض".[20]

كان الأعضاء الأربعة لمجلس الجمهورية في الحقيقة سادة طرابلس الغرب الجدد: أحمد المريض الذي يمثل جبل ترهونة، عبد النبي بلخير الذي يسيطر على جهة أورفلة وجانب من فزّان، رمضان الشتيوي المتنفذ في مصراتة. أما العضو الرابع، وهو أمر لا يُصدق، فكان سليمان الباروني، الذي بُعث مرة أخرى وتسلّق أعلى درجات الدولة الطرابلسية. هكذا يبرر محمّد فكيني دخول سليمان الباروني ضمن اللجنة الرّباعية:

" لقد وقع هذا الاجتماع في مسلاتة، ولأجل جلب الإباضية

[20] أرشيف أنور فكيني، المرجع نفسه، الملحق رقم 7.

وتأنيسهم قررت الأعيان الطرابلسية تعيين سليمان الباروني عضواً في هذه الجمهورية، لعلَّ إخوته المتطلبين في زوارة يعودون إلى جامعة الدين الإسلامي والوطن الطرابلسي، والإسلام يقبل من رجع إليه ".[21]

كان من ضمن التدابير الأولية التي اتخذتها الحكومة الليبية الجديدة، تعيين محمّد فكيني متصرفاً على لواء فزّان:

"بناء على الثقة بك، واعتماداً على ما عرفت به من حب الوطن والإخلاص في خدمته، والجهاد في سبيل استخلاصه من أيدي الأعداء، قد تقرّر لدى مجلس حكومة طرابلس الغرب الجمهورية تقليدك متصرفية لواء فزّان. فعليك بتقوى الله ومراعاة جانب الشرع الشريف، وإجراء العدل وبسط الأمن والجدّ في كل ما هو عائد لتأييد شوكة الجمهورية وإعلاء شرف الدين والوطن، واحذر كل الحذر ما يوجب العقاب والعزل، من الظلم والارتشاء والتهاون في أمور الجهاد المقدس وغير ذلك، ونرجو لك من الله التوفيق. أول مارس 1919".[22]

ومن المهام التي كلّف بها كان العمل على نشر الأمن في الصحارى التي يقطنها العرب والطوارق والتبو؛ وكذلك حثّ المجاهدين ومراقبة الحدود مع تونس. قبل محمّد فكيني التكليف شكليّا، لكنه لم يكن مقتنعاً به كليا. فهو يعرف يقيناً أن المهمة التشريفية التي أوُكّلت إليه لم تكن سوى وسيلة لإبعاده إلى منطقة فزّان النائية، مما يتيح لسليمان الباروني، الذي كان بالتأكيد من أوحى بهذه التسمية، مواصلة حياكة دسائسه.

---

[21] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 207.
[22] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 17، بتاريخ 1 مارس 1919.

لم يكن محمّد فكيني أقل دهاءً من الباروني، فهو، بدل التوجه لفزّان، عيّن محمّد الأرناؤوطي بن خليفة الزاوي وكيل متصرف على الجهة. وكان هذا الأخير قد شغل سابقا وظيفة مساعد للمتصرف التركي، قبل أن يتحول بسرعة مع جمع من المجاهدين على مقربة من العزيزية لدعم خطّ الجبهة. كانت المرحلة عسيرة وحرجة فعلا. إذ كانت التوقعات تنبئ بقرب حصول هجوم موسع من الجانب الإيطالي الذي كانت تصله التعزيزات باستمرار منذ انتهاء الحرب في أوروبا. ذكر المخبرون أن البواخر كانت تُنزل فرقا عسكرية ومدافع وطائرات لم يشهد لها مثيل منذ إنزال كانيفا سنة 1911. كان محمّد فكيني ينتظر هادئ البال، كما فعل دائما. وبنفس الصّرامة، تصدى لسليمان الباروني، الذي كان يعرف تمام المعرفة أن الصدام معه لم ينته بعد.

الفصل السابع

إيطاليا تُقر قوانين خاصة

1. خلّف إعلان تشكيل الجمهورية الطرابلسية مع نيّة الحكومة الطرابلسية مواصلة الحرب حتى طرد آخر إيطالي، ردود فعل أوّلية في روما تميّزت بالحيرة والسخط. فقد أصدر وزير المستعمرات، غاسباري كولوزيمو، تعليماته في الحال إلى والي طرابلس الجديد، الجنرال فنشنسو غاريوني، بألا يردّ على رسالة حكومة الأربعة الطرابلسية، ومن جانب آخر أحاط وزير الخارجية، سيدناي سونّينو، السفراء علماً، في كلّ من لندن وباريس وواشنطن، أن إيطاليا "تتمسّك بقوّة بمبدأ سيادتها على ليبيا، المعترف به دوليا ؛ وبالتالي نعتبر الذين رفعوا السلاح ضدّنا من الأهالي متمرّدين".[1]

يقول الوالي غاريوني في منشور مرسَل إلى ضبّاط طرابلس، بتاريخ 11 نوفمبر 1918 : "لا يُلمِّح المتمرّدون إلى التنازل عن السلاح، وبعض المؤشرات تشير إلى عزمهم على المقاومة وتكثيف أنشطتهم. تعوّل إيطاليا علينا لأنّ حقها ثابت حتى في مستعمراتها المتوسطية. يجري التحضير هنا لحملة جديدة".[2] فبدلاً من الإصغاء إلى مقترحات الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون، بالاعتراف للمستعمرات بحقّ تقرير مصيرها، تبدو إيطاليا مصرّة مرّة أخرى على استعمال سياسة القوّة عبر إرسال تعزيزات هائلة من الرجال

---

[1] وثائق ديبلوماسية إيطالية، النظام A6، الجزء الاول، الوثيقة 570، بتاريخ 16 ديسمبر 1918.
[2] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 113/1، ص 15.

والعتاد إلى طرابلس الغرب.

في الأشهر الأولى من سنة 1919 أنزل بطرابلس عشرات الآلاف من الجنود، و300 مدفع، و1000 مدفع رشّاش، و40 طائرة، ووحدات للمناطيد، والكهرباء الضوئية، والغازات المسيلة للدموع والغازات الخانقة، كما أعدّ مرآب للسيارت يتسع لـ700 شاحنة. هكذا يتيسر تشكيل ثلاث وحدات، واحدة منها للهجوم، بقيادة الجنرال غايطانو زوبي. "هذه الفرق الحربية، تشحذها عزيمة متوقدة، وبحوزتها أسلحة ومعدّات وفيرة وتدعمها مدفعية قوية - كما لاحظ الجنرال بانتانو، الذي يقود إحدى الوحدات الثلاث وتحمل الرقم 81 "تشكل آلة حرب هائلة لم يسبق لها مثيل في طرابلس الغرب".[3]

رغم التفوق الساحق للإيطاليين فقد فشل الهجوم الأوّل ضدّ المتمرّدين. بدت معارك جنزور وقرقوزة والزاوية عقيمة، ولم يتحقق حتى الهدف الأول المتمثل في العزيزية. لم تكن أسباب الفشل حسب العقيد ميزيتي، ذات طابع عسكري بل سياسي. فكما يذكر في مذكراته: "نضجت اتجاهات سلمية مغالية، واقتراحي، الذي يطمح إلى خوض حرب فاصلة، لم يلقَ ترحيبا. جددت في فبراير التعليمات بعدم مهاجمة المتمرّدين. كانت الوحدات الأهلية تنتظر على أحر من الجمر، كما أبدى العديد من القادة بين أصدقائنا أو من الذين خضعوا مؤخّرا وكانوا في معسكري قلقاً كبيراً أزاء تريثنا الذي لم يفهموه، في الوقت الذي كانوا يرون فيه انتشار قوات ضخمة. (...) لقد كان وضعنا كقادة وضبّاط شائكا جدّا. أحسسنا كيف بدأ الأهالي يدركون ضعفنا السياسي الذي يختبئ خلف الآلة العسكرية".[4]

---

[3] G. Pàntano, *op. cit.*, p. 313

[4] O. Mezzetti, *op. cit.*, p. 36.

لم يكن الجنرال بانتانو يرى خلاف ذلك. فقد كتب: "لست أدري لماذا لم يتم انتهاز ظروف مناسبة لإعادة احتلال المستعمرة ولفرض شروط على العدو، ولماذا تم تفضيل عملية سلمية غامضة تميزت بالبطء والصعوبة وكانت غير مشرّفة، مما حفّز المتمرّدين وأجبر إيطاليا لاحقا على خوض حرب مريرة ومكلفة دامت عدة سنوات ؟ (...) نظراً لتطوّرات الأحداث، ولعدم رغبتي بالمشاركة في إرساء حلّ سلمي على قدم المساواة مع المتمردين (...) طلبتُ العودة لإيطاليا".[5]

لكن قبل مغادرة طرابلس، أُلزِم الجنرال بانتانو من قِبل رؤسائه على إرسال هذه الرسالة إلى قادة المتمرّدين : "إن الحكومة الإيطالية مستعدّة عسكريا، كما هو الحال من جانبكم، لفرض النظام بالقوة. لكن قبل بلوغ ذلك، رأت أنّ من واجبها ومن واجبكم أيضا السّعي لإيجاد حلول للمشاكل العالقة لتفادي الحرب. أعتقد أنه ينبغي علينا طرح كافة المشاكل ومناقشتها بحضور الطرفين بكل حرّية. ذلك هو السبب الذي يحدو بي لطلب عقد هذا الاجتماع، تاركاً لكم تحديد التاريخ والمكان الذين تودون اقتراحهما جوابا على هذه الرسالة. أكرر هنا ما كتبه الجنرال تارديتي إليكم، وإليه ينبغي إرسال الرد، في طرابلس".[6] بإتمامه هذه المهمة الأخيرة مرغماً، خرج الجنرال بانتانو من المشهد.

2. تقريباً في نفس الأيام ظهرت على الساحة الطرابلسية شخصية جديدة، أثارت أملاً في المعسكرين، لكن سرعان ما غيبتها المنية.

[5] G. Pàntano, *op. cit.*, pp. 313-14.

[6] الرّسالة بتاريخ 26 فبراير 1919، مرسلة إلى رمضان الشتيوي وأحمد المريض وسليمان الباروني ومختار بي كعبار وعبدالنبي بلخير والهادي بي كعبار ومحمّد فكيني وعلي بي بن تنتوش. أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 25.

لخّص حضور تلك الشّخصية القصير في نصّ "مذكرة" للإدارة العامة لوزارة المستعمرات، جاء فيها: "حسن فكيني، البالغ من العمر قرابة 24 سنة، ابن محمّد فكيني، أحد أعيان طرابلس، زاول تعليمه زهاء السنتين في المدرسة التركية بطرابلس، ثم التحق ولمدة سنتين بالقسطنطينة، كما تابع تعليمه أيضا لمدة أربع سنوات في دمشق سنة 1914. بعد طلب من الأب، جرى قبول حسن فكيني للالتحاق بمعهد إيطالي، هو المعهد العالمي بتورينو. في الوقت الحالي، إن الشاب حسن مسجّل في الصفّ الثالث في قسم الحقوق في جامعة تورينو. أثناء سنوات الإقامة بإيطاليا، لم يبد حسن فكيني أي موهبة أو كفاءة مميزة. كانت مكانته نابعة فقط من عراقة الأسرة التي ينحدر منها".[7]

ستُغير لاحقاً وزارة المستعمرات ذاتها هذا الحكم المتسرّع بصورة جذرية. وبخلاف ذلك سيتم التعويل على حسن بصفته إنسانا ليبيا جديدا وواعدا، تجاوز بفضل الدراسة في إيطاليا العقلية القبلية. بالفعل، وظّف حسن دراساته القانونية، متميّزاً على أقرانه، كما كسب ود بعض العائلات في تورينو وروما. كان عالم الاجتماع غايطانو موسكا، العضو في مجلس الشيوخ يستضيفه في بيته كل مرّة يأتي فيها حسن إلى روما ، فقد لفتت مواهبه انتباهه، واعتبره بمثابة واحد من أبنائه. لسوء الحظ، لا نملك إلا القليل من كتابات حسن لتقييمه بشكل شامل، لكن بعض الرسائل التي أرسلها إلى والده محمّد وإلى عمّه فاضل لها دلالة هامة وتوحي أن الشاب كان مولعاً بإيطاليا وكان مستعداً للتدخّل لمدّ جسر بين البلدين.

في 29 من سبتمبر 1918، قبل أيام قليلة من نهاية الحرب العالمية الأولى، كتب حسن رسالة مطوّلة إلى والده، خصص الجزء الأول

---

[7] الأرشيف التاريخي لأركان حرب الجيش الإيطالي, العلبة 103, ورقة 390. وثيقة مخطوطة بدون تاريخ ولكن من المحتمل أنها كتبت في 1920 ،ص 1.

منها لبعض الملاحظات عن الكارثة الكبيرة التي تدمي أوروبا. أما في الجزء الثاني فقد عالج أمور بلاده، مع تلميحات تشير إلى ثقته الكبيرة في التدابير المستجدّة التي اتخذتها إيطاليا في سياستها الاستعمارية: "أبي العزيز. لقد آن الأوان لبذل الجهد لإعادة السلام إلى طرابلس الغرب المنكوبة. ولكي يتوقف الذين يزرعون الفتنة عن شرورهم. فالحكومة الإيطالية عازمة على إيلاء تلك الجهات الاهتمام، بإشفاق صادق وبنيّة خالصة. وأيّ دليل على ذلك أكبر من دعوة أناس كبار لذلك العمل، مثل الجنرالين تارديتي وغاريوني؟ أنا متأكد أنه بوصُولهما ستتغير الأمور هناك. أنتم أكثر من غيركم تعرفونهما، تشهد بذلك نواياكم الطيبة وإخلاصكم، فخدماتكم التي قدمتموها للحكومة مشهود بها لديهم. لقد عبر لي صاحب المعالي الجنرال تارديتي عن صداقته الخالصة لكم وثقته الكبيرة فيكم. فهو يجلّ بصدق بلدنا وأهله. يحدوه أمل لوضع حدّ لسفك الدّماء ووضع البلد على نهج الرقيّ. لذلك فهو يستند على أصدقاء إيطاليا الحقيقيين. عليكم مدّ يد العون له، كما أدعو الله أن يوفق مسعاكم ".[8]

في "مذكرة" لوزارة المستعمرات تم التنويه إليها سابقاً، يتضح أن "الشاب حسن فكيني، الذي كان يُعتبر بمثابة الرهينة لدينا، تم إرساله في فبراير 1919 من تورينو إلى طرابلس، إذ كان يُعتقد أن حضوره سيمهد طريق التقرّب من عائلته".[9] لكن حسن، كما نعرفه، فعل أكثر من مصالحة عائلة فكيني مع حكومة طرابلس. فقد أقنعهم بالتعاون مع

---

[8] في التاريخ نفسه، أي في 29 سبتمبر 1918، كتب حسن أيضا إلى عمّه فاضل موجّها إليه النداء ذاته الذي وجّهه لأبيه للتعاون مع الإيطاليين. في الرّسالة وضّح أيضا أن الجنرال تارديتي " شرّفه بزيارته ".

[9] المرجع نفسه، المكان نفسه، ص 3. بتاريخ 18 فبراير 1919، أرسل والي طرابلس الغرب، الجنرال غاريوني، برقية إلى وزير المستعمرات أكد له فيها أن إرسال الشاب حسن إلى طرابلس قد خلف نتائج إيجابية : "وصول الشاب فكيني خلف انطباعا هاما كحجّة ملموسة على سياسة مبنية على النوايا الخالصة. لقد كتب والده إلى الحكومة وهو منشغل الآن بعملية السّلام. حضور الابن هنا، الذي تطوّرت أحاسيسه الإيطالية ومعرفته باللغة الإيطالية، سيشكل سندا إلى عمل الأب وسييسّر بالتأكيد سير العلاقات وتنقية العديد الصعوبات.

الجنرالين غاريوني وتارديتي لبناء السّلام بين الشعبين وهو ما يترقبه الجميع. بكلمات أخرى، كذب الحكم التعسّفي الذي أصدره وزير المستعمرات. انضمّ الشاب حسن بقوّة إلى تلك الثلّة من الشخصيّات التي تعمل على إخراج طرابلس الغرب من الفوضى، مختارة طريق التفاوض لا طريق المواجهات.

3. لأسباب عديدة، توصل وزير المستعمرات كولوزيمو ووالي طرابلس الغرب غاريوني إلي قرار إرجاء أي هجوم عسكري، رغم حشد ثمانين ألف جندي في طرابلس الغرب، وإلى اختيار طريق التفاوض. تنامى وعيٌ أن الحرب، حتى وإن كانت من حيث المبدأ رابحة بسبب التفوق السّاحق عدّة وعدداً، فإنها لن تكون سهلة ولا خاطفة. كما تبين أن اتفاقية عكرمة مع السّنوسية كانت مجدية وأنها قد جلبت السلام إلى برقة.[10] بالتالي أدرك كولوزيمو، شأنه شأن غاريوني، إستحالة تشتيت شمل من منحوا الجمهورية الطرابلسية الحياة، فهي ليست هيئة عابرة أو عديمة الأهمية، بل هي نتاج حقيقي للقوميّة العربية، التي تتجلى بأشكال مختلفة في كافة بلدان المغرب العربي.

على هذا الأساس وعلى أساس بعض المؤشرات الأخرى، سمح كولوزيمو وغاريوني للجنرال جيوسيبي تارديتي ببدء مفاوضات مع ممثلي الجمهورية.[11] انعقد اللقاء الأول بين الجانبين في 9 مارس

---

[10] مثلت اتفاقية عكرمة، التي وقعت في 17 أبريل 1917، مثلت هدنة دائمة بين الإيطاليين وقوات محمّد إدريس السّنوسي، التي انضمّت إليها بعض القوّات. لفّ الاتفاقية شيء من الغموض الجوهري، لأن إيطاليا لم تتخلّ عن ادّعاء سيادتها على برقة، كما لم تتخلّ السّنوسيّة عما ترنو إليه أيضا.

[11] علاوة على الجنرال تارديتي، شارك في المفاوضات من الجانب الإيطالي، المحامي لوشياني والملازم العقيد سيرولي. لرواية دقيقة لمفاوضات خلة الزيتون, أنظر : Ottone Gabelli, *La Tripolitania dalla fine della guerra mondiale all'avvento del fascismo*, Airoldi, Intra, 1937, vol. 1, pp. 208-237.

1919 في خلة الزيتونة، على بعد أربعين كيلومتراً من طرابلس، في موقع يقع تحت سيطرة العرب. حضر اللقاء بالإضافة إلى الوفدين الابن البكر لمحمّد فكيني الشاب اليافع حسن، وأحمد ابن رمضان الشتيوي. كان الاثنان مُعتقلين كرهينتين من قِبل الإيطاليين، منذ فترة وجيزة واحتُفِظ بهما في إيطاليا، وقد شكل إطلاق سراحهما علامة انفراج أولى.

يذكر فكيني: " صار نصب خيام لسكنى الطليان والعرب وابتدأت المذاكرة." [12] ويروي في مذكراته: " وصاروا يأتون إلى المحل المقرر الذي به الخيام في الأسبوع مرتين أو ثلاثا يدرسون في كافة الأمور مع التروي والمحاولة ومراجعة والي طرابلس ومركز روما بنهاية المذاكرات، وطلب المسلمون أن ينصب لهم أمير مثل تونس بطرابلس فلم ترض مراكز روما لكون تونس سلمت حماية أما طرابلس أخذوها بالحرب من الدولة التركية."[13]

منذ البداية، لم تكن المفاوضات سهلة. فقد كان حاضرا ضمن الوفد العربي، الشّاب المصري القومي عبدالرحمان عزّام، الذي مثّل التيّار الأكثر تصلبا. فقد كان يسعى لإقناع القادة الآخرين للمطالبة باستقلال طرابلس الغرب والحفاظ على النّظام الجمهوري، مع التنازل لإيطاليا عن حقّ غامض في الحماية. في حين طالب بعض الأعيان الآخرين، بتشكيل دولة مستقلة في طرابلس الغرب، يقودها أمير مسلم، لكن خاضعة لحماية إيطاليا.

---

[12] حضر المفاوضات أيضا : محمّد فكيني ورمضان الشتيوي ومحمّد الصويعي الخيتوني والهادي بي كعبار وأحمد المريّض وعلي الشنطة وأحمد البدوي وسليمان الباروني.

[13] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 211.

4. كانت تلك المطالب غير مقبولة بالنسبة لكولوزيمو وغاريوني، فقد كان الاثنان مستعدّين فقط لمنح الحرية المدنية والسياسية لأهالي طرابلس الغرب، التي وعِدوا بها في عدة مرّات ولم يوف بها، منذ 1911. لذلك بعد اللقاءات التي جرت في 9 و 31 مارس وفي 10 أبريل، والتي كانت عاصفة ولم تؤدّ إلى نتيجة، أرسل الوالي غاريوني إلى رمضان الشتيوي رسالة أخيرة لفت انتباهه فيها إلى أن الإيطاليين ما زالوا مستعدّين للقاء الطرف المقابل شريطة التطرق إلى التنازلات المنصوص عليها في البرنامج الحكومي. وكلّ طلب مغاير يعني انتهاء المفاوضات. كما أن الموعد الأخير الذي حُدد من قبل طرابلس جعل قادة الجمهورية أكثر حيطة وتفهّماً. عشية 15 من أبريل، رد رمضان الشتيوي على غاريوني بقبول لقاء حاسم صبيحة 16، في الساعة العاشرة، حسب الشروط التي أُمليت عليه.

كما يذكر محمّد فكيني في مذكراته، تميزت الساعات الأخيرة قبل اللقاء بأنشطة حثيثة: "ولما فكر أعيان عرب طرابلس تخابروا مع السادة السنوسية الذين ببرقة بانت راي جملتهم على أن بعقدوا صلحا بقانون أساسي به ضمام حقوق المسلمين."[14] وبالفعل في 16 أبريل، وصل أعضاء الوفد العربي وفي الوقت المحدد وبعد ثماني ساعات من المشاورات المغلقة بلغ الاتفاق شاطئ السلام. "كان النقاش طويلا وجادا - يذكر غاريوني إلى الوزير كولوزيمو في بلاغ بتاريخ 18 من أبريل- لكن تم التوصل إلى الاتفاق النهائي، بعد تعديلات وإضافات صغيرة لا تمس الجوهر العام لبرنامج الحكومة، بالمحافظة وبشكل تام على مفهوم سيادتنا المطلقة وبتأكيد منح جنسية نوعية، خاصة ومحلية، مما يكفل للأهالي حقّ المشاركة بشكل فاعل في

[14] المكان نفسه, ص 212.

إدارة البلاد".[15]

في انتظار لقاء كافة قادة طرابلس الغرب بفندق بن غشير لتوقيع الاتفاق، لم يتوان الجنرال غاريوني عن إصدار أمر إلى جهاز الحملة للتأهب لشنّ هجوم، بنية واضحة ألا وهي الضغط على القادة العرب الذين ما زالوا متردّدين. في 17 من أبريل أصدر أوامره إلى الوحدات بالتقدّم مسافة 50 كيلومتراً على إحدى الجبهات عند إشارته. كان هدف الفرقة 18 التي تحركت من قواعد جنزور والزّاوية هو سواني بني آدم وبئر ترينا؛ أما الفرقة 38 فكانت مكلفة باحتلال فندق بن غشير، مكان اجتماع القادة العرب ؛ في حين بقيت الفرقة 1 الهجومية رهن الاحتياط بين فندق التوغار وواحة جنزور.

ليلة 17 من أبريل - يذكر العقيد الشاب وقتئذ رودولفو غراتسياني، الذي تحوّل مبكراً إلى خصم شرس لمحمّد فكيني- "في الوقت الذي كان يتأهّب فيه القادة ومجمل فصائل الهجوم ليوم الثأر العسكري المرجوّ والمرتقب انتقاماً لكافة التعديات ولعمليات الإذلال التي لحقت بنا منذ 1915، أشيع خبر الاتفاق الذي عقد مع المتمرّدين وما يتبعه من توقف لأعمال الاقتتال. هكذا كان، في ما يشبه السخرية، ما سمي بسلام خلة الزيتونة، بدا وكأنه وارى نهائياً كلّ ظلّ لسيادتنا الفعلية على طرابلس الغرب ومهد الأرضية إلى أشكال أخرى من الإذلال، بانتهاج سياسة تنازلات ماثلت تلك التي أرسيت سنة 1919 في الوطن الأم ".[16]

---

[15] أرشيف الدولة المركزي، وثائق غراتسياني، الظرف 1، الورقة 2، تلغرام 424، سري. حصل العرب على امتيازات لها صلة بالتعليم والقضاء وكذلك ما اتصل منها بهيكل مجلس الحكومة.

[16] رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، موندادوري، ميلانو، 1937، ص 7.

5. في ظهيرة يوم 11 من أبريل، تحت خيمة رمضان الشتيوي في خلة الزيتونة، وقع الإيطاليون والعرب على نص قانون، سوف ينشر لاحقاً في غرّة شهر يونيو بتعديلات بسيطة من قِبل وزارة المستعمرات. هكذا يصف العقيد فاكا ماليوني، الشاهد على توقيع الوثيقة، أجواء اللقاء وموقف القادة العرب:

"أقنعني حينها الحماس المتوقد والصراحة التي هللت بها إيطاليا، المنتصرة والأبية والقوية والحرة، أن نواياهم كانت صادقة للعيش في وئام مع الإيطاليين، ومما يوجب اعتبارهم إخوة".[17]

في مستهل شهر يونيو، كما ذكرنا، أعلن الوالي غاريوني لأهل طرابلس امتياز الوضع الخاص الذي أقر لهم : "بفضل هذا القرار اكتسب سكان طرابلس الغرب كرامة معنوية وسياسية كمواطنين ضمنت لهم حقوقا معترف بها هنا للمواطنين الإيطاليين، فهم مدعوون للمشاركة في تسيير الشأن العام والإدارة المحلية بشكل واسع وفعلي، في ظلّ نظام حرّ وتقدم مدني، مما يضمن لهم التطلع إلى مستقبل آمن ومستقر".[18]

بالأساس، تم إقرار الاتفاق الأساسي أو القانون الليبي، كما سيتم تسميته، بمقتضى القانون 931، والذي تحوي فقراته الإحدى والأربعون هذه المستجدّات: (1) إلغاء صيغة التبعية الاستعمارية والاعتراف للأهالي بـ"الجنسية الإيطالية في طرابلس الغرب"، المختلفة عن الجنسية في البلد الأم ؛ (2) الخدمة العسكرية الإلزامية،

[17] Arturo Vacca Maggiolini, *La situazione in Tripolitania*, « Rivista Militare Italiana », gennaio 1922, p. 60.
[18] Cit. in Luigi Goglia, Fabio Grassi, *Il colonialismo italiano da Adua all'Impero*, Laterza, Roma-Bari, 1981, p. 189.

واستبدال التجنيد بالتطوع في القوات العسكرية المحلية ؛ (3) تشكيل برلمان محلي من ممثلين منتخبين من الأهالي ومن أعضاء قانونيين ؛ (4) وضع اللغة العربية على قدم المساواة مع الإيطالية ؛ (5) الاعتراف بحرية الصحافة والتجمع ؛ (6) إرساء الضرائب بمقدار ما كان سائدا أثناء الدّولة العثمانية ؛ (7) جعل التعليم الخاص حرّاً، لكنّ الحكومة، لها سلطة الرقابة بواسطة موظفيها ؛ (8) إتاحة الفرصة لأهالي طرابلس للمشاركة في مجلس الحكومة وفي المجالس المحلية، وكذلك في مجالس المقاطعات والأقاليم والبلديات، كل ذلك على أساس انتخابي.

إن الأمر لا يتعلق بصيغة ديمقراطية حقيقية، لأنها لا تمنح الليبيين إلا مشاركة محدودة جدّا، ولكن رغم كل النقائص لو تم تطبيق تلك الحالة القانونية الليبية، لأعطت صوتاً لشعب أضطُهد ومورست عليه طويلا شتى أنواع الإذلال. بالعكس كما سنرى، فلا البرلمان ولا المؤسسات انطلقت في أنشطتها في طرابلس الغرب، لأن العديد ومن بينهم بعض الليبيين كانوا يريدون تعطيل الاتفاق الأساسي.

في مذكراته، يعدد محمّد فكيني بإقتناع الامتيازات المكتسبة من إيطاليا، خاصة وأنه كان قد اقترح بعضها شخصياً مباشرة أثناء المفاوضات. مرّة أخرى استطاع الرجل أن يكرس تجربة ثلاثين سنة كموظف عثماني رفيع المستوى للإسهام الفاعل في صياغة ذلك القانون. فقد عيِّن فكيني في مجلس الحكومة الذي كان يرأسه والي طرابلس الغرب والذي كان يتألف من ثمانية أعضاء عرب،[19] وعضوين إيطاليين يعينهما الوالي . يذكر فكيني كذلك الاحتفالات الكبيرة، التي استمرت طيلة ثلاثة أيام، احتفاء بالسّلام وباستصدار

---

[19] علاوة على محمّد فكيني، شارك في مجلس الحكومة كلّ من علي الشنطة وأحمد القساطوي ومحمد الصويعي الخيتوني ومختار بي كعبار وعمر بودبوس ومحمد الفقيه الطرابلسي وأحمد الشتيوي.

القانون. " فصار الدخول بموكب هائل يتقدمه حضرة الأعضاء الثمانية ويحف بهم المتصرفون والأمراء ورجال المجاهدين بمقدار ألفين من الخيول وثلاث آلاف من الرجال، ولاقاهم خارج السور والي الولاية القومندان العمومي والعساكر السواري وبيادة وقسم كبير من الطايارات، ونصبت خارج السور آلاف الخيام وصار ملعب مناورة كبير من سبيب العرب يطلق البارود ويطلق المدافع من الاستحكامات الدائرة بسور المدينة وجولان الطائرات "[20]

6. ما كان لهذه الاحتفالات الكبيرة والاحترام الذي يكنّه الوالي غاريوني للأعيان العرب إلاّ أن يثيرا سخط بعض الضبّاط مثل رودولفو غراتسياني، الذي انتقد تلك الأجواء خلال شهر يونيو اللاهب: "تكثّفت التحضيرات في طرابلس استعدادا للتظاهرات والاحتفالات، التي كانت هي أيضا تعبيراً مذهلاً عن الاستسلام. جاء الأعيان لتمثيل ذلك الشعب، الذي أُعدت له للمرّة الأولى عبر القرون وبشكل جلي وجبة كبيرة من الحرية (...). انطلقت السياسة المُجاملة والمترددة، السياسة الرخوة في هذيان خبثها وخسّتها الماكرة، مرددة بشكل مخاتل: نحن كلنا إخوة! فقد كنّا في 1919، وهو عام الديماغوجيا والتخلي بالنسبة لإيطاليا".[21]

رغم مقت غراتسياني واستهزائه، وتواطؤ عدد من الضبّاط الآخرين، بدا كلّ شيء يسير نحو الأحسن في الأشهر الأولى التي تلت اتفاق خلة الزيتونة. فقد أُطلق سراح الأسرى الإيطاليين الذين كانوا في قبضة العرب منذ 1915. كما صار بإمكان "ضبّاط

---

[20] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 213 .

[21] رودولفو غراتسياني، المرجع نفسه، ص 7-8.

الارتباط" الإيطاليين الإقامة دون مصاعب في كافة الأماكن، حيث توجد مقرات الحاميات الإيطالية والتعاون بكلّ حزم مع السلطات العربية. وفي الوقت الذي بدأ فيه المجاهدون بتسليم أسلحتهم، انطلقت أيضا حكومة طرابلس في عملية تجريد من السلاح، مُرسلة إلى إيطاليا مجموعات من جهاز الحملة. فمن مجموع 80 ألف عسكري كانوا موجدين في شهر أبريل في طرابلس الغرب، لم يبق في أغسطس اللاحق سوى 25 ألفا. وكما يذكر محمّد فكيني، كان أيضا مما يبعث على الاطمئنان، مشاهدة انعقاد اجتماع أعضاء المجلس العشرة كلّ يوم في قصر الحكومة، يساعدهم الوالي وسكرتير ومترجم. كانت الاجتماعات تنعقد من الساعة 14 إلى الساعة 18، وكان أعضاء مجلس المسلمين ساعة الصلاة ينتحون جانباً لأداء فرائضهم الدينية في المسجد الواقع ضمن أسوار السّرايا، قصر الحكومة القديم الذي بناه الأتراك.[22]

ولإضفاء لمسة نهائية على هذه الأوضاع المثالية، ترك الجنرال غاريوني طرابلس في 16 من أغسطس 1919، وللمرّة الأولى في تاريخ المستعمَرة، تقدّم لحكمها مدني، الا وهو المحافظ المتمرس فيتوريو منزنغر، الذي كان والياً على طرابلس سنة 1912. ما كان هذا التغيير متوقعاً ولا مناسباً، بُعيد ما يزيد عن شهر من استصدار القوانين الخاصة. إن إبعاد غاريوني، الذي تحمّس أكثر من غيره للاتفاق مع الليبيين وسعى لأجله، يبقى عملا غير مفهوم، حتى وإن بدا جلياً أن تعيين مدني في طرابلس من قِبل رئيس الوزراء، فرانشيسكو سافيريو نيتي، كان يعبر بالفعل عن نيته الواضحة في إحقاق السلام.

---

[22] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 213.

كان استدعاء الجنرال تارديتي للعودة للوطن بمثابة تأكيد إضافي لشلّ قدرات الجماعة التي ساهمت في تحقيق اتفاق خلة الزيتونة. في رسالة بتاريخ 21 من سبتمبر 1919، أطلع الجنرال محمّد فكيني على برقية تسلمها من روما تلزمه بالعودة الفورية إلى إيطاليا لمرافقة أحد أفراد العائلة المالكة في رحلة. كتب تارديتي: "أبتهل إلى الله وأدعوه حتى تكون الفترة الجديدة من تعاوننا فترة رخاء وهناء، وأن تتدعّم أواصر الأخوّة والصداقة بين شعبينا، في طرابلس الغرب وإيطاليا".[23] أثناء الوداع مع محمّد فكيني، الذي يقدّره كثيرا والذي يبادله نفس المشاعر، يتحدّث الرجل الذي قاد المفاوضات من الجانب الإيطالي، عن طرابلس الغرب كـ" أمة "، جاعلاً إياها على قدم المساواة مع إيطاليا. لقد كان هذا هو الاعتراف الأخير الذي أقرّ به تارديتي نحو شعب ناضل ببسالة على مدى سبع سنوات متطلعاً إلى وضع حدّ لمحنته. لكن لم ينته الأمر هكذا، فبعد استراحة قصيرة، استؤنفت الحرب من جديد بشكل أكثر عنفا وضراوة.

[23] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 27.

الفصل الثامن

وفاة حسن

1. لم يكن الطّرف الإيطالي أوّل من خرق الاتفاق الأساسي، فمن بين الأطراف التي أبت التفاهم مع "الإخوة العرب"، كان الليبي رمضان الشتيوي، أبرز أعيان مصراتة. سيتوضح جلياً أن المنتصر على محمّد صفي الدّين ما كان ليتخذ مبادرات خاطئة لو بقي الجنرال غاريوني والياً لطرابلس الغرب، فالرجل يتمتع في الأوساط العربية والبربرية في المستعمرة بسمعة طيبة. أما خلفه فيتوريو منزنغر، فلم يكن سياسياً مقتدراً ولا نافذ القرار، فهو شخصية بيروقراطية متواضعة جدّا، تفتقر إلى المقدرة على الخلق والمبادرة. يكفي الإطلاع على تقاريره لوزارة المستعمرات، التي صاغها بعبارات متعثرة، كي ندرك عجزه عن السيطرة على الأوضاع أو قدرته على تطبيق القانون الخاص بليبيا. زيادة على ذلك، فقد انتشرت أخبار الدسائس التي كان يحيكها والتي أثرت سلباً في نهاية المطاف.

كان ردّ فعل القادة العرب الأول على مماطلة منزنغر وعجزه -بعد سنة من إصدار القانون الخاص الذي لم تدخل أيّ هيئة مقرّرة فيه حيز التنفيذ- هو السعي لإنشاء لجنة مركزية للإصلاح.[1] وكُلِفت هذه رسميّاً بمساعدة الوالي في مهامه لتطبيق القانون الخاصّ، لكنها في الواقع أنشئت لغرض دعم الاتفاق الأساسي وتطوير متطلبات

[1] ضمت اللجنة، حسب وثيقة بحوزة فكيني : محمّد فكيني وعبدالنبي بلخير وأحمد المريّض والهادي كعبار وعلي الشنطة ومحمّد الصويعي الخيتوني. وحسب وثائق أخرى، كانت تضم أيضا : عبد الرحمان عزّام وخليفة بن عسكر وسعدون الشتيوي ومختار كعبار.

الاستقلال أو الحكم الذاتي التي كانت قد رُفِضَت في خلّة الزيتونة. بيد أن الخلافات بين القبائل وبين مختلف القادة، استمرت حيّة وتكررت بصورة لا يمكن معها أن تأخذ لجنة الإصلاح المركزية طابعاً قومياً موحّداً.

ومع ذلك، كان أعضاء اللجنة يعون هشاشة بنى المجتمع في طرابلس الغرب، ففي 19 من يناير 1920، حرروا "الميثاق التعاقدي" في سبع نقاط، الذي كان يعد بفرصة استغلال الحقوق المكتسبة مؤخراً بشكل كامل. بالتالي، كان من الضروري إرساء الاتفاق بناءً على هذه النقاط :(1) الاحترام والحماية المطلقة للوائح القانونية الأساسية والعمل على ترسيخ السلم العام، للحد من سفك دماء المسلمين؛ (2) الإيقاف الفوري لكل من ينتهك اللوائح القانونية الأساسية، ويعتبر التفرد في ذلك بمثابة مخالفة للقانون ؛ (3) لا يمكن لأي كان اتخاذ بشكل فردي قرارات تتعلق بالشأن العام قبل الحصول على موافقة الجميع ؛ (4) كافة الموقعين على "الميثاق التعاقدي" هم على قدم المساواة فيما بينهم، وتُتَّخذ القرارات بالأغلبية ؛ (5) لا أحد يملك حقّ اتخاذ قرارات تتعلق بقواعد هذا الميثاق دون موافقة الجميع ؛ (6) يعتبر كلّ تعديل قانونياً إذا ترتبت عنه آثار إيجابية على البلد ونال رضا الجميع ؛ (7) بعد التوقيع على الميثاق، ينبغي على كافة الموقعين التقيّد بشكل كامل ودائم بقواعده.[2]

إتُخذ قرار صياغة هذا الميثاق، بعد مرور ستة أشهر على إعلان القانون الخاص ثارت من جديد خلافات بين بعض القادة العرب أدخلت المستعمَرة في مرحلة جديدة من البلبلة. كانت المنازعات

[2] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 28.

بسبب ضغائن قديمة، كما الشأن بين رمضان الشتيوي وغريمه عبد النبي بلخير. بالإضافة إلى نزاعات جديدة كتقاسم الثروات التركية - الألمانيّة وتسليم الأسلحة إلى حكومة طرابلس. حول هذه النقطة، مثلا، شذ رمضان الشتيوي عن باقي القادة الذين وافقوا على التسليم الفوري لأسلحتهم واقترح التريّث بخلاف ذلك.

كما ادّعى قائد مصراتة أن ناحية ورفلة ينبغي أن توضع ضمن دائرة حكم الخمس كي تعود له إدارتها، لكن أعضاء مجلس الحكومة رفضوا هذا المقترح وتمسكوا بعدم تغيير التقسيم الإداري لطرابلس الغرب، مُرتئين أن يبقى على ما كان عليه في الفترة العثمانية. لذلك، كلف المجلسُ محمّد فكيني وعلي الشنطة والشّيخ أحمد البدوي، بالاتصال برمضان الشتيوي في جنزور ودعوته للاعتدال. لكن رمضان رفض الإصغاء لهؤلاء الأعيان وتوجه بصحبة جماعة من المسلحين إلى جبل غريان حيث أودعت المدافع والعتاد، بغية استخدامها لاقتحام ورفلة.[3]

إعتبر خصوم رمضان الشتيوي تصرفه استفزازياً وغير مقبول، وقد أثار هذا التصرف حفيظة حكومة طرابلس علاوة على بعض القادة العرب الذين هرعوا إلى تشكيل نوع من التحالف ضد مصراتة، أوكلوا فيه القيادة إلى زعيم ترهونة أحمد المريض. رداً على ذلك، شكّل رمضان الشتيوي حلفاً مع الإخوة كعبار بغريان، ومع خليفة بن عسكر بنالوت. وهكذا ظهر في طرابلس الغرب، تكتلان قويان، سيجران هذه البلاد التي عانت طويلا من الحروب الاستعمارية إلى حرب جديدة، لكنها هذه المرّة أهلية. في هذا الظرف الصعب، كان يمكن لوالي متزن، يمتلك قدرات الوساطة، أن يلعب

[3] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 218.

دور المصالحة وأن يتمكن من إعادة الهدوء للبلاد. لكن منزنغر لم يكن يملك أيّاً من تلك القدرات.

في النهاية ما كان للاحتقان بين التكتلين إلا أن يسبب وقوع بعض الصدامات. ففي 15 من مارس 1920، وبالضبط في اليوم الذي كان فيه منزنغر يدشن الخط الحديدي الرابط بين طرابلس وزوارة، حطم خليفة بن عسكر هوائي محطة الإذاعة بنالوت، مجبراً ضابط الاتصال الإيطالي وأعوانه على مغادرة المكان فوراً. وبعد أيام أيضا، أُجبر موظفو مكتب الاتصال بالريباينة على العودة إلى طرابلس.عوضاً عن الانكباب على تفهم الأسباب العميقة للحالتين والتسامي فوق أطراف النزاع لمحاولة إشاعة السلم في البلد، ارتكب الوالي منزنغر هفوة أخرى بإصداره أمراً لمكتب الاتصال بمصراتة الذي يضم قرابة خمسين فرداً بين عسكريين وموظفين، للعودة فوراً إلى طرابلس. بهذا الإجراء قطع نهائياً العلاقات - التي كانت بالأصل صعبة - مع رمضان الشتيوي، وظهرت مساندة حكومة طرابلس لتحالف أحمد المريض.

كانت الأوضاع في غاية الفوضى، مما جعل معارضي القانون الأساسي، من الإيطاليين والعرب، يتحركون لمحاولة إسقاطه. " ووجد الباروني وحزبه الأباضية الفرصة وصاروا يتسببون في الخراب وفساد القانون الواقع مع الدولة الإيطالية، وبتوجه سليمان إلى روما وسار يراجع في أحزاب إيطاليا الذين هم ضد القانون حتى وعدوا إذا صار إبطال هذا القانون يعطوه استقلالية في لواء الجبل الغربي. ورتبوا بمصراتة هيئة طليانية يدبرون على رمضان بك".[4] انتهز الشطيوي على الفور هذه الفرصة وحصل من الإيطاليين على

---

[4] هذا النصّ من مذكرات محمّد فكيني غامض : نظرا لقطع العلاقات بين منزنغر ورمضان الشتيوي، من الصّعب التفكير أن تتحرّك "مجموعة من الإيطاليين" في مصراته بشكل مستقلّ وفاعل.

وعد بتمكينه من بسط سلطته على الجبل الغربي، في حالة تيسر له إبطال القانون.[5]

إن استبدال المكلفين بوزارة المستعمرات عدة مرات خلال أربعة أشهر أطال، لسوء الحظ، وجود منزنغر بطرابلس وحال دون تطبيق سياسة واضحة ومتناسقة في طرابلس الغرب. فخلال شهر يونيو 1920، دُعِيَ حسن فكيني، الابن البِكْر لمحمّد فكيني الذي كان يتعاون منذ أمد مع أبيه على تسيير أمور الجبل الغربي إلى روما من قِبل نائب سكرتير وزارة المستعمرات برلاتوري.[6] يرجح أنّ مبررات الدعوة كانت معرفة حسن الجيدة بالإيطالية، لكونه عاش في إيطاليا بضع سنوات ولتملكه رؤية واضحة ودقيقة عن المجتمع الإيطالي، وأخيراً، إمكانية تأثيره بلطف على أبيه الذي كان يدافع بقوة عن القانون الخاص بليبيا، وكان في الوقت ذاته أحد أشد المعارضين للوجود الإيطالي في طرابلس الغرب.

إستناداً إلى وثيقة من المكتب السياسي لحكومة طرابلس، نعلم أن رفيق حسن فكيني أثناء الرحلة، كان الأستاذ أنريكو فيربو، الموظف لدى الحكومة الاستعمارية، والذي مر بمالطا في 13 من يونيو ثم عبر من هناك إلى إيطاليا بعد يومين من تاريخه .[7] لا نملك سوى معلومات شحيحة عن لقاء حسن فكيني بالسلطات الإيطالية. إذ كتب محمّد فكيني، في مذكراته: " فلما أتيا إلى روما وتقابلا مع ناظر المستعمرات، أختلى بحسن بك سرا وأخبره أن ينصح والده ليتفق مع

---

[5] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 219.

[6] أرشيف أنور فكيني، ترجّى الوالي منزنغر الرّائد فولينو، ضابط الاتصال بالريابينة، إرسال هذه البرقية إلى حسن فكيني : " أبرق صاحب المعالي وزير المستعمرات رغبة في لقاء حسن فكيني وعزّام بي. إبلاغ حسن فكيني حتى يكون انطلاقه في أقرب فرصة ممكنة."

[7] أرشيف أنور فكيني، الوثيقة بتوقيع رئيس المصلحة السّياسيّة النقيب نافارا.

سليمان الباروني، وتعطى لهم استقلالية الجبل الغربي وقسم الصحراء ولواء فزان..."[8]

لكن فكيني لم ير في مقترح الوزير إلا وسيلة أخرى لدفع الولاية نحو الهلاك وإبطال القانون الأساسي نهائياً.[9] كانت خطة منح كل قائد جزءاً من السلطة مناورة مفضوحة تهدف فقط لزرع البلبلة وإثارة الضغائن القديمة. كيفما كان الأمر، استمر فكيني في تعويله على القانون الأساسي وقدرته على تجاوز كافة الدسائس. كما نقل محلّ سكناه إلى منزله في طرابلس حتى تتيسر له المشاركة في كافة جلسات الحكومة.

2. في الأشهر الأخيرة، قبل خوض المسيرة المحمومة تجاه بني وليد التي قادته إلى حتفه، بالغ رمضان الشتيوي في بعث الرسائل والمذكرات إلى السلطات الإيطالية، لدحض الاتهامات المسيئة التي طالما نسبها إليه الحاكم منزنغر، خصوصا ما ظهر منها على أعمدة الصحافة الإيطالية.[10] كتب مثلا إلى وزير المستعمرات روويني:

"قادتنا نتائج السياسة المحلية التي عارضتها باستمرار على مدى أشهر إلى أزمة عسيرة، تملي على السلطة المركزية التدخل، لأن وضع بلادنا في غاية الخطورة حالياً. أنا مستعدّ لتوظيف كل ما لدي من سلطات لضمان الأمن وتطبيق القانون الخاص، شرط الحصول على أسس جديدة تحول دون سياسة الانفصال وتحد من هيمنة المصالح الشخصية".[11] في 18 من أغسطس، أي قبل ستة عشر يوما

---

[8] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 220.

[9] المكان نفسه.

[10] أنظر مثلا، مقال ماريو كارتيكيني - Mario Cartecchini - في صحيفة«*Il Giornale d'Italia*»، بتاريخ 29 أبريل 1920، والمستوحى بشكل جلي من منزنغر، حيث يبدو القائد العربي بمثابة الوحش.

[11] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 23/122، ص 208، برقية من 23 مايو 1920.

من مقتله في بني وليد، أرسل رمضان الشتيوي مذكرة في ثماني صفحات إلى رئيس الوزراء جوليتي، يحذره من الذين يحاولون إثارة الحرب الأهلية في طرابلس الغرب. من جملة ما كتب: "لقد قوّت سياسة الفساد والاتفاقات السرّيّة، بين الحكومة ومجموعة من الموظّفين والأعيان والجواسيس، معدَهم لهضم ما يدفع إليهم من ذهب ومن نقود". ومرّة أخرى دعا إلى "اتفاق بين إيطاليا والعرب أساسه الثقة المتبادلة، ونعتقد أن ذلك النوع من الاتفاق ممكن. لهذلك نحن صابرون ونوصي بالصبر إلى حين تتيسر لكم دراسة ما عرضناه، ويتوفر لكم الوقت الكافي لمعرفة الحقيقة بخصوص وطننا".[12]

من الصعب، بعد قراءة المذكرة التي أرسلها الشتيوي إلى جوليتي والتي يعرب فيها عن صبره ودعوته للتأني، فهْم دواعي قراره في 24 من أغسطس 1920 - خاصة بعدما علم باستبدال منزنغر - بخرق الحصار الذي ضربه أعوان عبد النبي بلخير على مصراتة، او فهم أسباب انطلاقه في حرب أهلية. لقد دخل رمضان الشتيوي في اللاشرعية في الوقت الذي كان اسمه قد بدأ يتردد باحترام أكبر في إيطاليا،[13] وفي الوقت الذي كان قد خرج فيه منتصراً من صراعه العنيف مع منزنغر. إن إطلاق عمليته قبل 48 ساعة من نزول الوالي الجديد لويجي مركاتيلي بطرابلس يبدو أمراً متناقضاً في الظاهر، إذ كان من الممكن التفاهم مع ذلك الأخير الذي لم ينعته قط ب"الوحش" في أروقة وزارة المستعمرات.

لتفسير موقف رمضان الشتيوي، وفي ظل غياب وثائق ذات شأن،

---

[12] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، متفرعات، الجزء الثالث، العلبة ل، ص 7-8.
[13] دافع الوالي السّابق فنشنزو غاريوني عن نفسه أيضا، بعد نشر مقال ماريو كارتكيني. فقد عبّر عن سخطه بإرسال تعقيب إلى صحيفة جورنالي دي ايطاليا «*Il Giornale d'Italia*». راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 23/122، الورقة 208.

لا يمكن سوى طرح بعض الإفتراضات. حسب رأينا، يبدو موقفه ناتجاً عن يأس لا عن حسابات دقيقة. فهو مناضل بارع وصاحب خبرة تمتد على مدى عشر سنوات من الصراع مع الإيطاليين، ترك مصراتة الآمنة ليتحول إلى تحدي خصمه عبد النبي بلخير، المختبئ في بني وليد المنيعة، متغافلاً عن التزود بالماء اللازم لألفي رجل من محلته. ذكر رودولفو غراتسياني" كان هذا بالفعل خطأ غير قابل للتفسير من قِبل واحد من الأهالي. لقد أهمل التزوّد بالماء للمحلات إلى أن فاجأهم الأمر ببني وليد، وكان العطش قد أنهكهم فعجزوا عن القتال. كان رجاله يعطون نساء ورفلة بنادقهم مقابل قربة ماء ".[14]

يمكننا الافتراض أن قرار الحملة قد اتُخذ بصورة فجائية، تم على وجه السرعة من قِبل عربي تغافل عن القواعد الأولية لسكان الصحراء. فربما كان يعلِم بهجمات وشيكة لخصومه، فأراد مباغتتهم بضربة كاسحة ومتهوّرة.[15] لكن لنستمع إلى رواية الوقائع كما رواها شرف الدين، قائد مدفعية رمضان الشتيوي: "انطلقنا في تحركنا من مصراتة. كانت قواتنا مشكلة من 690 جنديا و16 ضابطا. ويضم عتادنا مدفعا و240 قنبلة (15 في الصندوق الواحد)، وسيارتين مضادتين للرصاص، وشحنتين من الخراطيش، و350 بعيراً محملاً بالمؤونة. أما بالنسبة لرمضان الشتيوي، فقد باشر عمليته بالانطلاق من مسلاتة بمئتين من الفرسان والتحق بنا في وادي بئر دوفان. كما التحق بنا أيضا 550 فارساً آخر أتوا من جهات شتى. بالتالي وزعنا هذه القوات على مجموعتين: تضم الأولى العسكر بقيادة إبراهيم عوض الذي يتقدم الصفوف، وتضم الثانية الفرسان بقيادة رمضان.

---

[14] رودولفو غراتسياني، المرجع نفسه، ص 14.

[15] يدفع محمّد فكيني في مذكراته بفرضية تنظيم بعثته بموافقة الإيطاليين لكننا لا نجد أي مخالفة لذلك الاحتراز. محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 226.

توجهنا جميعا نحو ورفلة. كنّا منهكين، لم نشرب طيلة يوم كامل. في 24 من أغسطس بلغنا بني وليد، وفور وصولنا اندلعت المعركة واستمرت من الصباح إلى المساء، دون أن نتمكن من إطفاء نار العطش. رغم ذلك، تابعنا الهجوم. استطاع العدو الصمود أربع ساعات، حصل إثرها على تعزيزات. في هذه الأثناء لقي العديد منّا حتفهم بسبب العطش. ثم حوصرنا في ذروة الفوضى وأجُبرنا على الاستسلام".[16]

هنا تنتهي رواية شرف الدين المأساوية التي تؤكد تهور الحملة وقلة النظام التي اكتنفتها. فقد استطاع رمضان الشتيوي احتلال بني وليد فجر 24 من أغسطس، ما عدا آبار الجهة التي بقيت في قبضة ورفلة. كان قد ترأس حشداً أضناه العطش وطول المسير، كما أعيته المواجهات العنيفة، حتى صار عاجزاً عن فكّ الحصار المضروب حوله. بعد صراع طويل وعنيف، أُسِر أشهر مجاهدي طرابلس الغرب، واقتيد مشدود الوثاق بأيدي الذين قاتل معهم الإيطاليين الغزاة على مدى سنوات بانتظار أن يجهز عليه. لكن أحد الحراس عاجله وأرداه قتيلا قبل الوصول.

سلك رمضان الشتيوي الطريق الخطأ، مُشتتاً بين عزمه المشرف للدفاع عن الميثاق الأساسي وتوقه لتوجيه ضربة حاسمة إلى غريمه الأكبر، فساهم مساهمة كبيرة في تقويض القانون الخاص بليبيا وخسر حياته. أثناء العودة من بني وليد، وصف العقيد بوكا والملازم ماكاريو ساحة المواجهة هكذا : "بلغ عدد القتلى في المنطقة ما يقارب 300 والأسرى 700. جُرد الموتى من ألبستهم وتركوا في العراء بلا

[16] الوثيقة بتاريخ 3 سبتمبر 1920. أرشيف أنور فكيني. الملحق رقم 39.

مدفن، ومن بينهم كان رمضان".[17] ما جرى في بني وليد كان يوماً عسيراً إذ كشف تقاتل القبائل فيما بينها عجز الحركة الليبية الكامل عن العمل من أجل تفعيل القانون الخاص.

3. بعد خروج رمضان الشتيوي من المشهد، بقي خليفة بن عسكر يحمل السلاح، وكما يبدو من خلال رسائل الاحتجاج إلى محمّد فكيني، كما كان الشأن سنة 1916 استأنف الرجل هجماته مجدداً، على القرى العربية في الجبل.[18] في 14 من يوليو سنة 1920، أرسل أربعة من أعضاء مجلس الحكومة، وهم محمّد فكيني وعلي الشنطة وأحمد الفسطاوي ومحمّد الصويعي، إلى الوالي منزنغر هذه الرسالة، بينما كان على وشك تسليم مهامه :

"بما أن خليفة بن عسكر والشيخ محمّد الشين موجودان في طرابلس، نرجوكم الاحتفاظ بهما في المدينة إلى حين وصولنا للتشاور معكم بشأن ما ينبغي فعله بهما. فإذا ما غادرا قبل وصولنا، فنحن بريئون من المسؤولية العظيمة التي ستقع فيما بعد ".[19]

حرص منزنغر على عدم التدخّل وهو على أهبة السفر، كما ترك إلى خليفته، لويجي مركاتيلي، مهمة حلّ الخلاف المزمن بين العرب والبربر الذي كان قد خلقه بنفسه وأذكاه بتهور. بعد طردهم في المرّة الأولى من الجبل سنة 1916، ثم نزولهم وإقامتهم في معاقلهم، بفساطو ونالوت ويفرن، وبعد ثلاث سنوات على اتفاق خلة الزيتونة، وإثر فترة قصيرة من الهدوء، وجد البربر أنفسهم مع بداية 1920 وجها لوجه مع العرب مجدداً. وما أجج الخلاف، كان التحالف الذي

---

[17] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية, ليبيا, متفرعات, الجزء الثالث, العلبة ل, ص 7-8, برقية من الوالي مركاتلي إلى وزارة المستعمرات بتاريخ 3 سبتمبر 1920.

[18] أنظر بشأن هذه التذمّرات : أنور فكيني, الملحقات رقم 30, 33, 36, 37.

[19] أرشيف أنور فكيني, الملحق رقم 34.

انعقد بين القائد البربري خليفة بن عسكر ورمضان الشتيوي والذي طردَ خليفة على إثره ضبّاطَ الاتصال الإيطاليين من نالوت ومن الرياينة.

عندما تولى مركاتيلي قيادة طرابلس الغرب في نهاية أغسطس، كانت الصدامات مُتفجرة بين العرب والبربر. في بداية سبتمبر، عقد الكاتب العام للحكومة، أوغو نيكولي، مجلساً للحكومة واقترح إرسال حسن فكيني فوراً للجبل، بغرض القيام بمهام التفقد وإرساء النظام. عارض محمّد فكيني هذا الاقتراح لمعرفته الجيدة بخليفة بن عسكر وبقدرته على حبك الدسائس.[20]. لكن أعضاء آخرين في مجلس الحكومة وافقوا على اقتراح نيكولي وعلى مهمة الشّاب حسن، وقبل هذا الأخير بحماس الانطلاقَ في مهمة التفقد التي أُنيطت به، دون تقدير المخاطر ولنقص خبرته في هذا الشأن.

ببلوغه الجبل الغربي، تنبه بسرعة إلى أن الأوضاع في الجهة في غاية الخطورة والتفجر، وأكثر مما كان يتصوّره. فقد هاجم خليفة بن عسكر الجوش، وقتل القائمقام إبراهيم أبو الأحباس، متلِفاً ممتلكاته ومعتقِلاً حرّاسه. عند هذه النقطة أدرك حسن فكيني أن مهمّته ليست إجراء أعمال التفقد التي أورد خبرها إلى حكومة طرابلس، بل تتعلق بمنع خليفة بن عسكر من ارتكاب أعمال عنف أخرى. كما استبعد حسن أيضا فرضية القيام بوساطة، فترك الجوش وحل بالمنطقة التي يسكنها الرّجبان والزّنتان، حيث تمكن من حشد عدد كاف من المقاتلين بغرض التصدي لخليفة بن عسكر.

في 12 من سبتمبر، كان الشاب حسن على استعداد لتحدي خليفة على رأس مئات من المشاة والفرسان. جرت المعركة في أم القرب،

---

[20] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 226.

في وادي بين مناطق الرحيبات والحرابة واستمرت يوماً كاملاً. لما أرخى الليل سدوله، انسحب خليفة بن عسكر مدحورا يجرّ أذيال الخيبة، بعد أن خسر ابن أخيه وابن محمد الشين وعشرات من الجنود.[21]

لكن القائد البربري كما قد توقع محمّد فكيني، لا تفل من عزمه هزيمة، ففي الغد بعد أن اشترى ذمم جانب من خصومه، كرّ من جديد وهذه المرة من ناحية القبلة، حيث تغلب على المقاتلين العرب ووُفق في تشتيت شملهم.

هكذا يصف محمّد فكيني الساعات الأخيرة من حياة ابنه حسن: " وعند الهزيمة فحسن بك وعمه مسعود وكامل عراب ركضوا راجعين إلى تاردية والعدو في أثرهم .وقصد حسن حوشهم فوجد جدته وفاية أم الحاج محمد فكيني فركبها على فرسه المجروحة ومراده رفعها حتى وصله العدو وضربوا الفرس فطاحت وبقيت العجوز في الأرض، وانجرح حسن في رجله ونزل إلى الكاف ووجد عمه مسعود، ونزلا على أقدامهما حتى لحقهما العدو، دخل مسعود واديا واختفى به، وبقي حسن وحده ومسعود دخل واديا واختفى به، وحسن اجتمعوا عليه ، وصار يحارب وهو مجروح عطشان لأن الوقت صيف وحار حتى قتل أربعة عشر من رجالهم ، وتكاثروا عليه وقتلوا في محل يقال له العادية بخشة تاردية، بينه وبين قصر الحاج مسافة ساعة. رحمه الله من شهيد كريم زعيم، فائق في أحسن أوصاف الرجال من الكرم والإقدام إلا نه صغيرا السن مات وعمره قدر خمس وعشرين سنة."[22]

---

[21] المرجع نفسه, ص 226.
[22] المرجع نفسه, ص 240.

من خلال بعض الصور الملتقطة في عين المكان والتي تروي أحداث الصدام الأخير، يمكن إعادة بناء اللحظات الأخيرة من حياة حسن. أصابه رجال خليفة بن عسكر، فلم يعد قادراً على السير بسبب جرح في ساقه، سقط الشاب طريحاً باحثاً عن ملجأ خلف صخرة. من موقعه، واصل إطلاق النار من بندقية الموسكيت الإيطالية حتى نفدت ذخيرته.[23] مباشرة بعد ذلك حُوصِر وانهمر عليه وابل من الرّصاص. إلى اليوم يمكن معاينة آثار الرصاص على الصخرة. بعد يومين من وفاته، عثر سعد أحد أتباع محمّد فكيني على جثته ودفنه في نفس المكان الذي خرّ فيه صريعاً. شُيِّد ضريح قرب الصخرة من حجارة المكان.[24] تمتد حول الضريح، أرض مهجورة جرداء تنتشر فيها بعض النباتات الشوكية، وتُشرف عليه من أعلى الهضبة منازل تاردية، القرية التي وُلِد فيها حسن.

كان حسن يمتلك كل شيء ليكون سعيداً وليغنم من مباهج الحياة: الوسامة والإقدام والنباهة، وقدرة التأثير على الآخرين لمواهبه الفذّة. فهو غني ونافذ بالمولد، ما كانت تنقصه سوى بضعة امتحانات لنيل الإجازة في الحقوق.[25] ففي إيطاليا، كما في طرابلس الغرب، أثار مقتله تعاطفاً واسعاً وذلك للآمال التي عُلّقت عليه بصفته رجلاً جديداً، تسنده ثقافة وآفاق يتفرد بها. بالتأكيد ما كان يتصور، يوم قبل بحماس الشباب المتوقد، مخاطرَ الصعود إلى الجبل لحمل السلام، أنه سينتهي عند تلك الصخرة التي عرتها الرياح والبعيدة عن المسالك المأهولة.

---

[23] أهديت بندقية موسكيت الخيالة، طراز 91، مع مسدّس أوتوماتيكي وعصا برأس مذهب، إلى محمّد فكيني من قبل الوالي أميليو يوم 27 أبريل 1915. أنظر أرشيف أنور فكيني، الرّسالة المرافقة للهدايا بتوقيع الملازم وقتئذ العقيد بانتانو.

[24] التُقطت صور قبر حسن فكيني من طرف الحفيد المحامي أنور فكيني.

[25] من رسالة خاصّة وفي غاية الأهمية من الرائد فولينو، ضابط الاتصال بالريانية، نعلم أن حسن فكيني توقف طويلا بالريانية. كتب الضّابط: "الجميع يترقبونك في طرابلس وأنا أوّل من يلومك على إقامتك المكلفة، التي تجعلك تتأخر سنة في متابعة إجازتك". أرشيف أنور فكيني، الرّسالة بدون تاريخ ويحتمل أنها تعود لبداية 1920.

4. فور بلوغه خبر معركة الجبل والنهاية المأساوية لابنه حسن، غادر محمّد فكيني طرابلس خفية مع عائلته، وتحول إلى العزيزية. لم تكن القطيعة مع الحكومة قد حدثت بعد، لكنها كانت مؤشراً بارزاً. بعد وصوله إلى العزيزية، أعطى محمّد فكيني للصحف العربية والإيطالية تصريحاً يُعتبر في الحقيقة بمثابة إدانة قوية لوالي طرابلس، فهو يُبين أن سكان القرى التي دمّرها خليفة بن عسكر اضطروا للإقامة في صرمان وفي العزيزية في ظروف تثير الشفقة: " فأين أحرار العرب والطليان وفقراء تلك البلاد الخارجة قدموا حفاة عراة لقضاء صرمان والزاوية، فقد كلمت حضرة الوالي أن يرحمهم بترتيب الأكل واللباس حسب عادات الدول ولم نر نتيجة إلى الآن ".[26] ردّ مركاتيلي في الحال على اتهامات فكيني، مكذباً مساندته لخليفة بن عسكر، لا بل زاد باتهامه القائد العربي أنه لا ينظم اجتماعات الأعيان في العزيزية بغرض "المصالحة بل بغرض الحرب. بهذه الخطوة، أنتم السبب في تراكم المصائب وفي زيادة عدد الضحايا".[27]

وقد ساند فكيني في تلك المرحلة ثلاثة من أعضاء مجلس الحكومة، والتحقوا به في العزيزية. وهو لم يرد على الوالي مركاتيلي بل أرسل برقية إلى وزارة المستعمرات مباشرة، كرر فيها اتهاماته لحكومة طرابلس: "بفضل المساندة التي تلقاها، هاجم خليفة بن عسكر قرى الرّجبان وأحرق مساكنهم وقتل الشيوخ والنساء والأطفال. فلولا دعم الحكومة، ما كان ليتقدم قيد أنملة في جهتنا، ولما استطاع قتل نائب متصرف الجوش وآخرين من الأبرياء. إنه الدّاعي الذي نحتج لأجله بقوة ضد هؤلاء الأشخاص وضد من مد لهم يد

---

[26] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 40 بتاريخ 15 سبتمبر 1920.
[27] المرجع نفسه، الملحق رقم 41 بتاريخ 18 سبتمبر 1920.

العون، ونطالب بإيقافهم بغرض عرضهم على المحكمة".[28]

حين أعلمته روما بمحتوى برقية محمّد فكيني، أرسل مركاتيلي إلى القائد العربي ومستشار الحكومة رسالتين أعرب فيهما عن عمق استغراب الحكومة من التلاعب الذي ندّد به، لكن تفسيراته كانت توحي بقلق كبير وبإلمام محدود بالوضع. في الرسالة الأولى تقدم لفكيني بالتعازي لوفاة ابنه بهذه العبارات : "حين علمنا بالخبر الفاجع ألم الحزن بالجميع، لأننا عرفنا ابنكم كشخص يحبّ بلده ويجل بلدنا. لقد علقنا آمالاً كبيرة عليه وكل من تعرف عليه مباشرة عبّر عن عميق تقديره ومحبته له بإخلاص. أؤكد لكم ما شاهدته بأمّ عيني ما ذرفه ضباطي من دموع عندما بلغهم هذا النبأ المفجع".[29]

بين عديد رسائل التعازي أجلّ محمّد فكيني بالخصوص كلمات عضو مجلس الشيوخ غايطانو موسكا، الذي أبّن حسن أثناء جلسة مجلس الشيوخ بالمملكة. كتب قائلا : " أقدم إليكم من صميم فؤادي وإلى أخيكم المحترم التعزية عن وفاة الشاب الفاضل، ولا يخفى عليكم أنني كنت أوده ودادة خالصة لأني رأيت فيه من مكارم الأخلاق ما لا يرى إلا نادرا في الأنام، ولا غرو إن اعتبرنا النسب الشريف الذي كان ينتسب إليه وفضائله التي ورثها أعني نسب العرب الأحرار الخلص فكان أمينا صادقا كريما إلى الغاية، من ثم كانت لي الفجعة بوفاته مكدرة أليمة وحزنت لفقده حزن أب لفقد ولده،

---

[28] المرجع نفسه، الملحق رقم 42 بتاريخ 22 سبتمبر 1920.

[29] المكان نفسه. بلغ خبر موت حسن فكيني عن طريق برقية من مركاتيلي إلى وزير المستعمرات روسي، في ملحقين تحت رقم 43 و44، بالتتابع بتاريخ 26 و30 سبتمبر 1920 : "يوم التاسع هاجم مسلحون تابعون لخليفة بن عسكر تاردية وألحقوا بالزنتان والرجبان هزيمة شديدة خلفت خسائر فادحة، كان من بين القتلى حسن فكيني، ابن مستشار الحكومة محمّد فكيني، كما جرح مسعود فكيني، قائمقام غدامس وشقيق المستشار، وكذلك أمّ وابن عمّ المستشار. حسن فكيني، الذي تابع الحصول على الإجازة في الحقوق، بحسب ما يذكر، كان معروفا من معالي سيادتكم شخصيا. جرى أيضا نهب منازل فكيني وحرقها. هذا الصباح انطلق المستشار محمّد فكيني على متن سيّارة للقاء أخيه مسعود الجريح بصرمان ونقله إلى طرابلس". البرقية بتاريخ 15 سبتمبر 1920، في الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، العلبة 103، الورقة 390.

تغمد الله برحمته الماضي وأطال الباقي. هذا ولا أنسى طول حياتي شابا فاضلا بهذا المقدار كان يسابق الأقران في ميدان العلم، ولا ينساه أولادي الذين كانوا يحبونه محبة الأخ لأخيه وإن أمكنكم أن ترسلوا لي صورته رحمه الله، أعني الرمسم بواسطة النور، لتكون تذكارا جليلا محترما، وكان هذا عندي نعمة كبيرة تستلزمه الاعتراف بجميلكم والإقرار بفضلكم، وأسأل الله أن يطيل بقاءكم في ظل نعمته وأن يجعل هذا الحزن آخر أحزانكم والسلام".[30]

إذا لا يزال في إيطاليا من يكيل الثناء لرجل عربي ولا يعتبره كائناً من درجة دنيا ولا يستحي كذلك من اعتباره في عداد أبنائه، لكن كم شخصا من أمثال موسكا يحسن التعبير عن تلك المشاعر؟

---

[30] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 54.

الفصل التاسع

دولة داخل الدولة

1. أقنع الارتباك المتواصل لحكومة طرابلس والتباطؤ في تطبيق القانون الخاص بليبيا قادة طرابلس الغرب، سواء من هم في حلف أحمد المريض أو الواقفون في الحلف المصراتي، أيتام رمضان الشتيوي،[1] بالحاجة الملحّة لتجاوز الصّراعات القبلية وبناء أواصر الوحدة والوفاق، كما كان الشأن في سنوات المقاومة ضدّ الإيطاليين، مما يسمَح بممارسة ضغط قويّ على حكومة طرابلس وعلى حكومة روما المركزية، للوفاء بما اتُفِق عليه في خلة الزيتونة، وإمكانية تحقيق بعض المكاسب اللاحقة الإضافية.

انعقد مؤتمر المصالحة وأعيد تأسيس اللجنة المركزية للإصلاح في جبل غريان، بين أكتوبر ونوفمبر سنة 1920. حيث شارك كافة الأعيان والقادة العسكريين الأكثر نفوذاً، ومن ضمنهم أولئك الذين يعيشون في المناطق التي يحتلها الإيطاليون. فقد حصل هؤلاء على موافقة الوالي مركاتيلي بالمشاركة. اختُتِمت أعمال المؤتمر بإعلان لجنة سميت "لجنة غريان"، مهمتها الشروع في المفاوضات مباشرة مع روما وليس مع حكومة طرابلس. بالنتيجة انهمك المندوبون بصياغة مطلبيْن للسلطات الإيطالية في غاية الأهمية ألا وهما : (1) مراجعة موسعة للقانون الذي أُقِر سنة 1919 والذي لم يوضع رهن

---

[1] انتظم أتباع رمضان الشتيوي تحت هيئة قيادة تتكوّن من ابن رمضان وأحمد الشتيوي وشيخ مدينة مصراته السّابق عمر بودبّوس والمصري عبد الرّحمان عزّام.

التطبيق بعد ؛ (2) تشكيل حكومة مستقلة لطرابلس الغرب، يرأسها أمير، تحت الوصاية الإيطالية. بكلمات أخرى يتعلق الأمر بالمطالب ذاتها التي نادى بها رمضان الشتيوي وعبد الرحمان عزّام خلال سنة 1919 والتي كانت إيطاليا قد رفضتها.

في شهر أبريل 1921 فقط استطاعت لجنة غريان مقابلة وزير المستعمرات لويجي روسي. فقد أُجل اللقاء بالفعل عدّة مرات لأن حكومة روما اشترطت إطلاق سراح مئتي عسكري إيطالي محتجزين في مصراتة. وحتى بعد إطلاق سراحهم كانت المفاوضات تسير بصعوبة شديدة، وانتهت بالإخفاق بعد أسابيع قليلة. في نهاية شهر مايو غادرت لجنة غريان روما تاركة وراءها بعض أعضائها. عاد الموفدُون إلى أرض الوطن يجرّون أذيال الخيبة ويتملكهم السخط. وكما ذكر محمّد فكيني، قام الوالي مركاتيلي في الوقت ذاته بإجراء مضاد، وذلك بإرساله وفد ثان برئاسة حسونة باشا ويوسف خربيش إلى روما. بالاتفاق مع سليمان الباروني، تقدم الوفد بمقترحات أكثر اعتدالاً وقبولاً مما تقدم به وفد غريان، وقد كانت غايته إفشال أي تفاوض.[2]

في هذه الأثناء، استُؤنِفت الصدامات في الجبل الغربي، رغم القرار الذي اتُخذ في مؤتمر غريان بتجنب سفك دماء المسلمين. مرّة أخرى، في 6 من نوفمبر 1920، توجه محمّد فكيني إلى الوالي مركاتيلي لتذكيره بأحداث سبتمبر الرهيبة التي أسفرت عن تدمير القرى العربيّة ونزوح الأهالي تجاه الجفارة والصحراء : " فإن كان القانون باقيا وعدالة الدولة الطليانية جارية فإنه ينبغي عليها أولا الضائعات من حوش مبلغ مليون وكور، ومن البلدان الخارجة زيادة

[2] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 279.

على 30 مليونا والأنفس الضائعة مقدار 40 نسمة من جملتهم ابني الغيور ...إذا صار الكشف فإن هذا صار ضمانة من الحكومة وأخذ الفاعلين تحت التوقيف والإعدام، ولكن الأمور باقية كما كانت، وما زال سليمان الباروني يتشوق بالأكاذيب المسيلمية، والفتنة التي غرزت في ذاته الإباضية التي هي ضد عموم العرب والعالم الإسلامي والأوروباوي، وباق في الجهة الغربية وإمداداته وبوسطاته إلى عسكره جارية حتى فساطو. واليوم أقاربي وأصهاري وأوطاني المغدورة وكنت سببا لتغفيلهم حتى بلغوا هذه الحالة التي تركوا فيها أوطانهم خالية. فبقاؤهم وبقاؤنا في الصحراء حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا..."[3]

ردّا على هذه الرّسالة، التي عبّر فيها فكيني عن عميق قلقه وعن خيبة أمله في المفاوضات مع أتباع المذهب الإباضي الذين تدعمهم حكومة طرابلس، أجاب مركاتيلي في 23 من نوفمبر، مُعْربا عن حياده المطلق في الصراع الدائر بين العرب والبربر، كما دعا محمّد فكيني "إلى التخلي عن سخطه وعن دعوته للثأر".[4] كان من المستحيل إتباع تلك النصائح، إذ أن سليمان الباروني صعد ثانية إلى الجبل وبدأ في زرع الفتنة فيها، كما بدا جليا من الرسائل - التي صودرت - والتي أرسلها إلى نواب ككلة، بين يناير وأبريل من سنة 1921. فقد ادّعى الباروني تخليصَ الجبل والدفاع ببسالة عن القانون الأساسي، بينما كان في الحقيقة يُحرض الأهالي ضدّ محمّد فكيني. وفي تناقض بيّن كان يحث على قطع العلاقات مع الإيطاليين.[5]

استفزت أعمال سليمان الباروني عشرة من أعيان وشيوخ قبيلة

---

[3] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 50.
[4] المكان نفسه، الملحق رقم 53.
[5] المكان نفسه، الملحقات رقم 56، 57، 58، 59، 60.

الرجبان وضاقوا بها ذرعاً إلى درجة دفعتهم إلى توجيه رسالة احتجاج إلى الوالي مركاتيلي وإلى أعضاء مجلس الحكومة جاء فيها: "نَعِمَ كافة المواطنين بالحرية والاستقلال بعد تطبيق القانون الأساسي، بما تضمنه من عدالة لكافة الأطراف والمناطق. لكن للأسف، تبدّل كل شيء بعد وصول الباروني إلى جهتنا في الجبل. فقد بدأ في تضليل الناس البسطاء من أتباع المذهب الإباضي، مدّعيا تمثيل الحكومة واعتبار نفسه المكلّف الوحيد بإصدار الأوامر (...) فبدأ بتحريض الإباضيين على التوحد وعلى التواصل فيما بينهم بغرض الانتظام والتسلح والتمرد (...) إذا ما كان هذا صحيحا ومدعاة فعلا للتنديد، فإنه يتوجب على كافة عرب الجبل الرحيل. نحن نفضل الهجرة وحتى الموت على قبول سلطة الباروني وأنصاره".[6]

في الوقت الذي تلقى فيه مركاتيلي احتجاجات ونداءات أعيان الرجبان بصمت طويل، حشد سليمان الباروني وخليفة بن عسكر وحداتهما بقصر يفرن وفساطو، تدعمها في ذلك حكومة طرابلس. في هذه العملية الواضحة لتفريق شمل أهالي طرابلس وإثارة الصراعات القبلية، لم يُخْفِ العقيد ميزيتي سرًا: "استمرّت الحالة في الجبل، رغم انحدارها باستمرار نحو الفوضى لصالحنا بعض الوقت وقد أرسل لكم مركاتيلي سليمان الباروني بمهمة تنسيق وقيادة القوى الموالية لنا".[7]

وأكثر من ذلك، تم التنسيق بين ميزيتي والباروني على أن يساند ميزيتي القوات البربرية علناً حين تكون على أهبة التدخل. في أوائل شهر مايو 1921، كما صرّح ميزيتي، "بالوصول إلى بئر الغنم، أرسَلتُ إلى سليمان الباروني، كما جرى الاتفاق، إعلاما باستعدادي

---

[6] المرجع نفسه، الملحق رقم 61.

[7] O. Mezzetti, *op. cit.*, p. 71

لصعود الجبل فأجابني أن القادة بصدد عقد اجتماعات تستغرق بين أربعة وخمسة أيام. ولما عهدته منهم من بطء في اتخاذ القرارات، وضعت في الحسبان تأخيراً قد يصل إلى ثلاثة أو أربعة أيام، مما يستلزم البقاء ببئر الغنم على الأقلّ سبعة أو ثمانية أيام، وهذا لم يكن متيسراً وتوجب بالتالي التخلي عن العملية. لاحقاً، وعدة مرات، اشتكى لديَ سليمان الباروني بمرارة من عجزه عن التدخل العاجل. فكم من المآسي والمعاناة كان يمكن تفاديها بين أبناء ملّته، وربما في كل المستعمرة !".[8]

2. كان سليمان الباروني بارعاً في زرع الفتنة، حاذقاً في تلفيق الأكاذيب، كما كان مقتنعاً أنه سيكون له في المستقبل صولجان الإمارة على كافة أتباع المذهب الإباضي في ليبيا وتونس. إلا أنه لم يكن يتمتع بقدرات تنظيمية عسكرية عالية، فهو لم يعجز فقط عن شن هجوم على عرب الجبل، بالاتفاق مع ميزيتي، بل حتى في آخر المطاف، عندما قرر التدخل، ألحق به محمّد فكيني في بلغرف، 21 من أبريل 1921، هزيمة ثقيلة، تلتها ثانية بعد يومين. فتمترس في قصر يفرن مع خليفة بن عسكر، لكنه هُزم من جديد في مطلع شهر يوليو.[9] بعد اجتياح قصر يفرن مباشرة، تلقى فكيني التهانئ من اللجنة المركزية للإصلاح، التي أخبرته بإرسال تعزيزات هامة بقيادة عبد الله تمسكت.[10] وبسرعة، تمكن فكيني الذي انضم إليه محمّد سوف المحمودي مصحوباً برجاله المسلحين، من احتلال الجبل الغربي باستثناء فساطو،[11] وذلك لأن الإمدادات استمرت بالوصول إليها من زوارة. ولاجتياح فساطو، طلب محمّد فكيني من حلفائه، بالخصوص

---

[8] المرجع نفسه، ص 73.
[9] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 273-283.
[10] أرشيف أنور فكيني، الملحقان رقم 65، 66.
[11] المرجع نفسه، الملحق رقم 67.

خلال بضعة أسابيع على دراسة "سوابق السياسيين والعسكريين باهتمام كبير، طيلة عشر سنوات من الاحتلال".[15] وأثناء تعميق معرفته بالبلد، كانت عينُه مسلطة على الأوضاع العسكرية، سواء في المعسكر الإيطالي أو بين المتمرّدين العرب. في 27 من أغسطس صار قادرًا على توجيه رسالة إلى محمّد فكيني بهذا المحتوى: " إنني على علم بالأحداث التي جرت وبالجهود التي بذلتموها في الماضي لصالح الناس عندما كانت الفوضى تعمّ البلاد وعدم الاستقرار يسود. إنْ كنّا اليوم ننعم بالأمن والرخاء فبفضلكم. لهذا السبب أعوّل كثيرا عليكم وعلى مساعدة كل من علي الشنطة وقادة الجبل، لأننا نستطيع معا إرساء أمن دائم التزاماً بالقانون وبمتطلبات العدالة. (...) علينا العمل بتفان وإخلاص لتطبيق القانون الأساسي بأسرع وقت".[16]

لم تكن هذه هي الرسالة الوحيدة التي أرسلها الوالي فولبي إلى فكيني وغيرها وإلى قادة طرابلس الغرب، إضافة أن كثيرين منهم قد استقبلوا بقصر الحكومة في طرابلس، ومن بينهم الزعماء الوطنيون الأكثر تطرفا وممثلو اللجنة المركزية للإصلاح. بخلافِ سابقيه، ممن فضّلوا سياسة حبك الدسائس والتحالفات المتقلبة، تطلع فولبي لتطبيق عملية شفافة تضع حداً لسوء التفاهم الذي ساد خلال السنوات الأخيرة. فهو رجل أعمال واقعي وقدير، فضّل لعب الأوراق علنا، كما وضّح في 8 من أغسطس، في برقية أرسلها إلى وزير المستعمرات جيرارديني: "يجب أن تقتصر تعليمات الحكومة التي أقِرت من طرف معالي سيادتكم، والتي قُبلت بإخلاص من جانبي، لأنني أشارككم الإقرار بحكمتها، على الدفاع الثابت عن مستعمراتنا،

---

[15] مجموعة من الكتاب La rinascita della Tripolitania. Memorie e studi sui quattro anni di governo del conte Giuseppe Volpi di Misurata. Mondadori, Milano, 1926, p XX.

[16] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 76.

وسوف أقوم بتسويتها في أقرب فرصة، حسب الاتفاقات، متجنبا تلك اللعبة الخطيرة بضرب قادة الداخل تارة وشلة أصحاب المصالح الخطيرين على مستقبل المستعمرة تارة أخرى، والتي سيعرّض صُعودها أو نزولها كرامتنا لاختبار عسير".[17]

في 20 من أغسطس سنة 1921 تسنى لفولبي إعلان برنامجه، الذي يتطلع للتطبيق الشامل للقانون الأساسي. كما يذكر رفائيلي رابيكس، العضو في حكومة فولبي، فقد كان الوالي مدركًا أن الخطوة الأولى التي ينبغي إتمامها هي "تطبيق الإجراءات القانونية التي يجب أن تؤدي إلى عقد فوري لجلسة البرلمان وإلى تشكيل هيئة التمثيل القانوني، التي تسمو فوق كل اللجان المزمع تشكيلها، والتي ستكون لها مشروعية الكلام باسم الأهالي في طرابلس الغرب".[18]

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من توليه مهامه، أقرّ فولبي سلسلة من الإجراءات الجيدة، مثل إعادة فتح أسواق الساحل أمام كل الليبيين؛ إقرار تسعيرة جمركية جديدة مناسبة للتصدير ؛ تبسيط النظام الضريبي ؛ إلغاء محكمة الأهالي، مكرساً بذلك مبدأ المساواة الذي نصّ عليه القانون الأساسي ؛ إنشاء محكمة شرعية عُليا مستقلة ؛ إنشاء وظيفة مستشار قضائي ؛ التصويت أثناء المداولات والمعاملة بالتساوي المطلق بين كافة العناصر الإثنية في المستعمَرة (إيطاليون أهالي، مسلمون ويهود) . وبمناسبة زيارة الأمير أمبرتو دي سافويا طرابلس الغرب، أصدر فولبي ووزير المستعمرات عفواً عن المخالفات ذات الطابع السياسي.[19]

بالتأكيد كانت إنطلاقة فولبي جيدة، فأمام كافة الإجراءات التي

[17] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 101.
[18] المرجع نفسه، ص 103.
[19] صدر قرر العفو حسب المرسوم الملكي رقم 250 بتاريخ 11 من سبتمبر 1921.

اتخذها، "لم يُثِر الوطنيون الليبيون أي انتقاد "[20] لكن وقعت بعض الأحداث المباشرة المرتبطة بتصرفات اللجنة المركزية للإصلاح، لم يستطع فولبي تقبلها: وهي التي تتعلق بمنح سلطات سيادية، كتشكيل جيش نظامي أو جندرمة ؛ وضع نقاط تفتيش على بُعد بضع مئات الأمتار من الدفاعات الإيطالية ؛ سنّ القوانين؛ تنصيب القضاة ؛ تنظيم خدمات الموانئ والجمارك الخاصة في ميناء مصراتة، إلى حدّ فرض الضرائب. لاحظ رافائيلي رابيكس أن "التغافل عن بعض الوقائع المهينة، يضاهي نكران حقّ السيادة والاعتراف للمتمرّدين بتشكيل دولة مستقلة".[21]

ثبت لدى فولبي أنّ اللجنة المركزية للإصلاح تنشط بمثابة دولة داخل الدولة يوم 15 من سبتمبر، حين التقى 19 عضواً من الدواخل بأومبرتو دي سافويا في قاعة القلعة. بدا الخطاب الذي وجّهه أحد القادة إلى الأمير الشاب لطيفاً في الظاهر لكنه في غاية الخطورة من حيث المقصد، جاء فيه: "يا سموّ الأمير، إن عرب طرابلس الغرب، يشعرون ببالغ الإهانة من الكيفية التي يتعامل بها معهم المستعمرون، فهم يعدونهم بمثابة متاع غير جدير بالاهتمام، في حين لا يغيب مجد حضارة العرب عن سموكم. لذلك يأمل العرب أن تندمل بفضل زيارتكم الجراح الدامية وأن تُحُررنا من مظالم الغطرسة". بعد التأكيد على تعطش البلد للتعليم وعلى ما يعانيه من عدم اعتراف بالحقوق الأساسية، اختتم الخطاب بهذا النداء: "لن يتيسّر بلوغ مرحلة التآخي والتعاون إلا حين يطمئن العرب إلى مستقبلهم، وبضمان منهم، تستطيع الحكومة الإيطالية إتمام رسالتها التنموية".[22] انتقد فولبي بشدة هذا الخطاب، الذي عبر حسب رأيه "بشكل غامض عن

[20] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 131.
[21] المرجع نفسه، ص 147.
[22] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/26، ص 242.

ولاء غير مؤتمن، وعن تطلعات لا تطاق لتعاون كاذب، مما قد يشكل تخلياً عن السيطرة الحالية".[23] رغم إصراره على التمسك بوعود القانون الخاص لسنة 1919، لم يعترف فولبي بالأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها السلطات الإيطالية خلال العقد الأخير، مثل العجز المتكرّر للإدارة الاستعمارية، إن لم نتحدث عن ممارسات العنف والاختلاس واللجوء بشكل مفرط إلى حبل المشنقة والنفي. في ردّه على نداءات أهالي طرابلس التي يعتبرها "تطلّعات لا تطاق"، لم ير فولبي سبيلاً آخر غير إعادة نشر "السيطرة الفعلية" لإيطاليا على البلد. فلم يلبث أن انطلق بعد بضعة أشهر، لاستعادة ميناء مصراتة. وقوّض بهذا العمل كلّ ما كان قد بادر به من إجراءات محمودة.

3. ساهم الحادثان اللذان وقعا في نهاية السنة بدعم اتخاذ هذا القرار: أولهما الهجوم الأخير لمحمّد فكيني على بربر الجبل الغربي وكان الثاني هو الاجتماع الذي انعقد بسرت، بين قادة التمرّد بطرابلس الغرب وقادة الحركة السنوسية.

بعد السيطرة على قصر يفرن في 8 من يوليو 1921، كانت نية محمّد فكيني الأكيدة مواصلة الهجوم على البربر. ذكر رفائيلي رابيكس: "بعد مقتل ابنه حسن، أصرّ على الثأر، يساعده في ذلك صديقه الحميم علي الشنطة والشيخ الطموح محمّد سوف، وكان يترقب اللحظة المناسبة لاستئناف الهجوم ضدّ البربر. وما يسّر مخطّطه كان تصرف سليمان الباروني وبعض القادة البربر الأساسيين الذين، بمجرّد أن عاينوا خطورة الأوضاع، تخلوا عن أنصارهم، بحجة التوجه إلى طرابلس لطلب الإمدادات المناسبة. في

[23] مجموعة من الكتاب، La rinascita della Tripolitania, cit., pp. XX-XXI.

الجبل، لم يبق للبربر سوى خليفة بن عسكر لقيادة الصراع، وهو رجل متهور وغريب الأطوار، وبالتالي غير مناسب لتولي مهام القيادة".[24]

كان محمّد فكيني يتلقى بشكل دائم من صديقه عثمان القيزاني أخبار تحركات سليمان الباروني، وحين أدرك أن هذا الأخير يفتقد كل مصداقية في العاصمة بعد رحيل العقيد ميزيتي، إلى حدّ أنه "صار يحصّن منزله بالمتاريس ولا يخرج إلاّ ليلاً"،[25] تيقن أن البربر لن يتلقوا أية مساعدة من طرف الحكومة. كما أوضح القيزاني أن "الوالي الجديد منشغل بتدارس أوضاع البلد دون إيلاء اهتمام للمنحازين أو المغرضين. فقد تجاهل ادعاءات واحتجاجات أتباع المذهب الإباضي فيما يخصّ المواشي التي بحوزة الزنتان والرجبان".[26]

حانت لحظة العمل في ليلة 6 من أكتوبر 1921 حين هاجم مسلّحون تابعون لمحمّد فكيني وأحمد السني الطرفَ البربري بغتة في قرية الرحيبات واحتلوها كليا ونهبوها. كان البيت الأول الذي استُهدِف هو بيت المدير محمّد الشين، الذي كانت تمتد إليه ولابنه أصابع الاتهام باعتبارهما قاتلي حسن فكيني معا، وقد قُتِل الاثنان مواجهة شرسة.[27]

بعد توقف دام بضعة أسابيع، وانضمام إليه مجموعات نظامية بقيادة عبد الله تمسكت وعبد العاطي الجرم ، استأنف محمّد فكيني الهجوم، محتلاً جادو، وفساطو، وكاباو، ونالوت، إثر هزيمة خليفة

---

[24] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 120.
[25] أنور فكيني، الملحق رقم 78 بتاريخ 2 سبتمبر 1921.
[26] المكان نفسه.
[27] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 304.

بن عسكر في طمزين. بين نوفمبر وديسمبر، طُرد بربر الجبل، وكان عددهم يفوق 15000 نسمة، من كلّ الجبل الغربي ومن قصر يفرن حتى الحدود مع تونس. ومرّة أخرى لجأوا إلى المناطق الساحلية التي يحتلّها الإيطاليون، بين زوارة والوطية والعجيلات.[28]

كما يذكر رفائيلي رابيكس، "لاحت للوالي فولبي، منذ الأيام الأولى لولايته، فرصة التقارب مع محمّد فكيني، الذي لم ينفك من جانبه عن ترديد، أنّ صراعه موجه ضدّ القادة البربر الذين أهانوه وضدّ سليمان الباروني الذي غرر بهم ، في حين يبقى إحساسه بالولاء للحكومة ثابتاً". وبما أن فولبي يعرف تمام المعرفة أن البربر "ليس بإمكانهم الصمود طويلاً"، فقد قرر الدخول "على وجه السرعة في علاقات مع محمّد فكيني، قبل أن يصير سيد الجبل، إذ قد تُصور له نفسه عندها أن الحكومة تقربت منه خشية تنامي قوته".[29]

كلف فولبي الملازمَ أنطونيو زبريشيا، عضو مكتب حكومته، والذي ربطته صلات متينة بفكيني حين كان في مجلس الحكومة، بالاتصال بالقائد العربي. وبالفعل، في 18 من ديسمبر، كتب له زبريشيا يعلمه أن الوالي مسرور جداً من الطريقة التي تعامل بها مع الأهالي بعد توقف القتال. وأضاف قائلا: "نُعوّل عليكم كثيراً ونحن على استعداد لتلبية مطالبكم. لقد كلّفني الوالي شخصياً بالاتصال بكم".[30] بعد أيام قليلة كتب إليه من جديد، مكذباً ما راج، أن الحكومة ساعدت بربر الجبل عسكرياً: "أؤكد لكم أنه بعد وصول الوالي الحالي، لم تُقدم أيّة مساعدة لأهالي الجبل من جانب الحكومة، باستثناء ما كان من مساعدات إنسانية، لغرض دفع البرد والجوع

---

[28] المرجع نفسه، ص 307-309.
[29] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 122-123.
[30] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 82.

عنهم. إن قُدِّمت أنواع أخرى من المساعدات لزوارة، فإن الوالي لن يتوانى عن فتح تحقيقات لمعاقبة الفاعلين".[31]

إن استئناف علاقات الحكومة مع محمّد فكيني "فرض - كما ذكره رابيكس - ضرورة اتخاذ موقف أخير وحاسم من سليمان الباروني، فهو وإن كان مواطناً ونائباً عثمانياً قد دبّر كافة الدسائس التي أثارت القلاقل في الجبل، كما أن وجوده في طرابلس الغرب مدعاة لتهديد السلام. (...) وقد أزال قرار الوالي فولبي بإبعاده نهائياً عن طرابلس الغرب في 21 من ديسمبر 1921، سبباً للعداء والحقد، سواء بين العرب أو البربر، الذين لم يروا فيه أيضاً سوى متآمر تابع للعثمانيين، غير قادر على مواجهة الأوضاع التي خلقها، بسبب طموحاته التي لا تعرف حدّا".[32]

في 23 من ديسمبر، أبرق فولبي إلى وزير المستعمرات جيرارديني: "على متن باخرة بريد سيراكوزا، أبحر أمس سليمان الباروني. ترك هذا الوجيه طرابلس الغرب ممقوتاً من الطرفين، العرب والبربر، الذين حمّلوه مسؤولية كبرى في أحداث الجبل، خصوصاً في السنة الأخيرة. هو الآن مُحبَط ومُحتقر، لكنّ طموحه الذي لا يعرف حدّا وتعصبه يوحيان دائما بدسائس وبأعمال مستجدة لإلحاق الضرر بنا. (...) أدعو معالي سيادتكم لتولي شأن مراقبته".[33]

بالنسبة لمحمّد فكيني، كان ابتعاد خصمه الأكبر عن ليبيا انتصاراً مظفراً على الصعيد السياسي والمعنوي. لكن الأمر تطلّب عشر

---

[31] المرجع نفسه، الملحق رقم 84 بتاريخ 30 ديسبر 1921.
[32] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 126.
[33] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 150/15, ص 61, برقية 811. بين 1922 و 1926، أقام الباروني بشكل دائم تقريبا بمرسيليا في فرنسا، محاولا دون جدوى العودة إلى بلد من بلدان شمال إفريقيا. تمت مراقبته باستمرار من قبل أجهزة المخابرات الإيطالية كما كان يتم التجسس على مراسلاته ويُطلع عليها باستمرار.

سنوات والآلاف من القتلى الأبرياء لدفع السلطات الإيطالية إلى الاعتراف أن سليمان الباروني "مدبّر كلّ الدّسائس"، فقد جرّ الحكومة الإيطالية في شبكة أعماله الخادعة ، بالإضافة إلى قادة التمرّد وحتى أتباع المذهب الإباضي. مع ذلك، يعود الفضل دون شكّ للوالي فولبي الذي قطع العلاقات المُبهمة مع النائب العثماني وحكم بطرده نهائياً من الساحة الليبية.

4. في الوقت الذي كان فيه محمّد فكيني على وشك الانتهاء من شنّ هجومه على البربر، دعا أحمد المريض إلى مؤتمر شارك فيه أهمّ قادة طرابلس الغرب، وممثلو الحزب الوطني (عثمان القيزاني والصادق بلحاج وعبدالسلام البوصيري والمصري عبد الرحمان عزّام). كان على المؤتمر أن يجد رداً عاجلاً على الإجراءات الإيطالية المطولة، وإلى تعثر المساعي التي لم تأت بطائل والتي أجراها وفد اللجنة المركزية للإصلاح في روما، بغرض الحصول على التطبيق الكامل للقانون الخاص. من بين مقترحات عدّة، نجح في نهاية المطاف مُقترح عبد الرحمان عزّام، والذي يمكن تلخيصه في النقاط التالية: (1) المحافظة على مناعة التنظيم العسكري ؛ (2) الاتفاق مع رجالات السنوسية لإعطاء شكل فعلي للإمارة؛ (3) عدم اقتراف أعمال عدائية ضدّ الحكومة، وبالتصدى لإقتحام الفرق العسكرية الإيطالية للأماكن غير المحمية ؛ (4) انسحاب الوفد فوراً من روما بعد أن ذاق شتى صنوف الإذلال.

بدا الأمر وكأنه على قاب قوسين من إعلان الحرب. في 23 من ديسمبر 1921، لما خرج المقدم روجاري على رأس مجموعاته العسكرية من قلعة روسافالي لإتمام بعض التدريبات، في ناحية غير خاضعة للحماية، انطلق على الفور احتجاج أحمد المريض. فقد جاء في نصّ رسالته إلى حكومة طرابلس: "إن التدريبات العسكرية

خارج المناطق المحصنة هي مدعاة لإثارة الشعب الطرابلسي ولدفعه نحو حالة من التوتر الحربي. (...) منذ سنة يسعى الشعب الطرابلسي بكل الوسائل السلمية للتأكيد على حقوقه العادلة. لكنّ الحكومة لا تردّ على مطالبه سوى بالازدراء والسخرية. بهذه الطريقة عُومل موفدو هذا الشعب إلى روما أثناء عرض تطلعات ممثليهم. (...) نعلن على الملأ أنه، في حالة قصوى، سنشير على كافة أفراد الشعب الليبي بضرورة خوض حرب للدفاع عن كرامته، ولو كلفهم ذلك حياتهم، ولو ضحوا بكل شيء من أجل نيل حريتهم".[34]

في ظل مناخ التحدي المعلن هذا، انعقد في منتصف يناير سنة 1922 في القلعة التركية القديمة بسرت، في منتصف الطريق الرابطة بين طرابلس الغرب وبرقة، اجتماع في غاية الأهمية، لم يغب مغزاه عن الوالي فولبي. وجد عبره قادة طرابلس الغرب من العرب طريقا للوحدة بينهم، تحت قيادة أحمد المريض، رغم الاختلافات والحزازات، كما مدّوا يدهم إلى إخوتهم في برقة، كما كان الشأن زمن اندلاع الحرب الإيطالية التركية. وتم اتخاذ قرار تاريخي في سرت: فقد كان مقرراً أن يتولى السنوسي محمّد إدريس المهدي قيادة ولايتي طرابلس الغرب وبرقة.[35] رغم عدم قدرتهم على اختيار مرشحهم، اقترح أعضاء وفد طرابلس على السنوسي الأكبر، الذي كان قد حصل من إيطاليا على لقب أمير برقة، قبول المهمة العليا. ما يعني أنه قد تم وضع حجر الأساس للدولة الموحدة في سرت. لكن هدف المؤتمر هو أن يكون رداً على روما، التي لم تحقق - إلا على الورق - بنود القانون الأساسي. كتب في تلك الأيام عبدالرحمان عزّام " إذا كانت محاولة الحديث مع الحكومة جريمة في

[34] رسالة أحمد المريّض موجودة لدى : رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 149-150.

[35] في زمن سابق تم اقتراح شخصيات أخرى مرموقة، مثل أحمد الشريف ونوري بي. وتم تعيين الأخير في المؤتمر الإسلامي الثوري، الذي انعقد بموسكو في يونيو 1921.

نظر وزير المستعمرات، سنتخلى عنها خلال عام آخر." [36]

اختتم مؤتمر سرت أعماله في 21 من يناير 1922 بصياغة اتفاق الوحدة الوطنية، في اثني عشر بنداً، وضع الأسس لدولة ذات سيادة حقيقية، تتمتع ببرلمان ويسندها حزبان: اللجنة المركزية للإصلاح في طرابلس الغرب، ولجنة الحكومة المركزية الوطنية ببرقة. وجاء في البند الثامن من الاتفاق : "يتعهد الطرفان بألا يعترفوا للعدو بسلطة تضر بها واحدا أو جماعة من المسلمين أو بحياته، وأن يمنعوا من بسط نفوذه خارج الأماكن المستحكم فيها الآن ، وفي حرب لا يجوز لأحد الطرفين أن يعقد صلحا أو هدنة طويلة منفردة "[37].

كان التحدّي واضحاً وجلياً، وقد أُعلِن في وثيقة موجهة للعموم استلمها فولبي. لا سيّما وأنه في 18 من يناير 1922، وللمرّة الأولى بعد اتفاق خلة الزيتونة، أطلق العرب النار على وحدات إيطالية خارجة من وراء الأسلاك الشائكة في الخُمس. ردّ فولبي هازئا على احتجاجات أحمد المريض : "كأن تدريباتنا العسكرية استفزازية وكأن الأراضي الخارجة عن مواقع حاميتنا تنتمي إلى دولة أخرى!".[38] كما قرر أيضا الردّ بعمل يعبّر عن السيادة كي يضع حداً لحالة يعتبرها متداخلة ومهينة وغير محتمَلة ألا وهي الاحتلال العسكري لميناء مصراتة، المركز النشيط للتنظيمات العربية.

كان فولبي يدرك تماماً أن العملية ستفجر الثورة العربية من جديد، حتى وإن أعلن ذلك في رسالة إلى أحمد الشتيوي، قائد مصراتة، من

---

[36] " اللواء الطرابلسي"، 5 يناير 1922، عدد 89. وقد كانت الصحيفة لسان الحزب الوطني الذي يمثّل اللجنة المركزية للإصلاح وكان مديرها عثمان القيزاني.

[37] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 87.

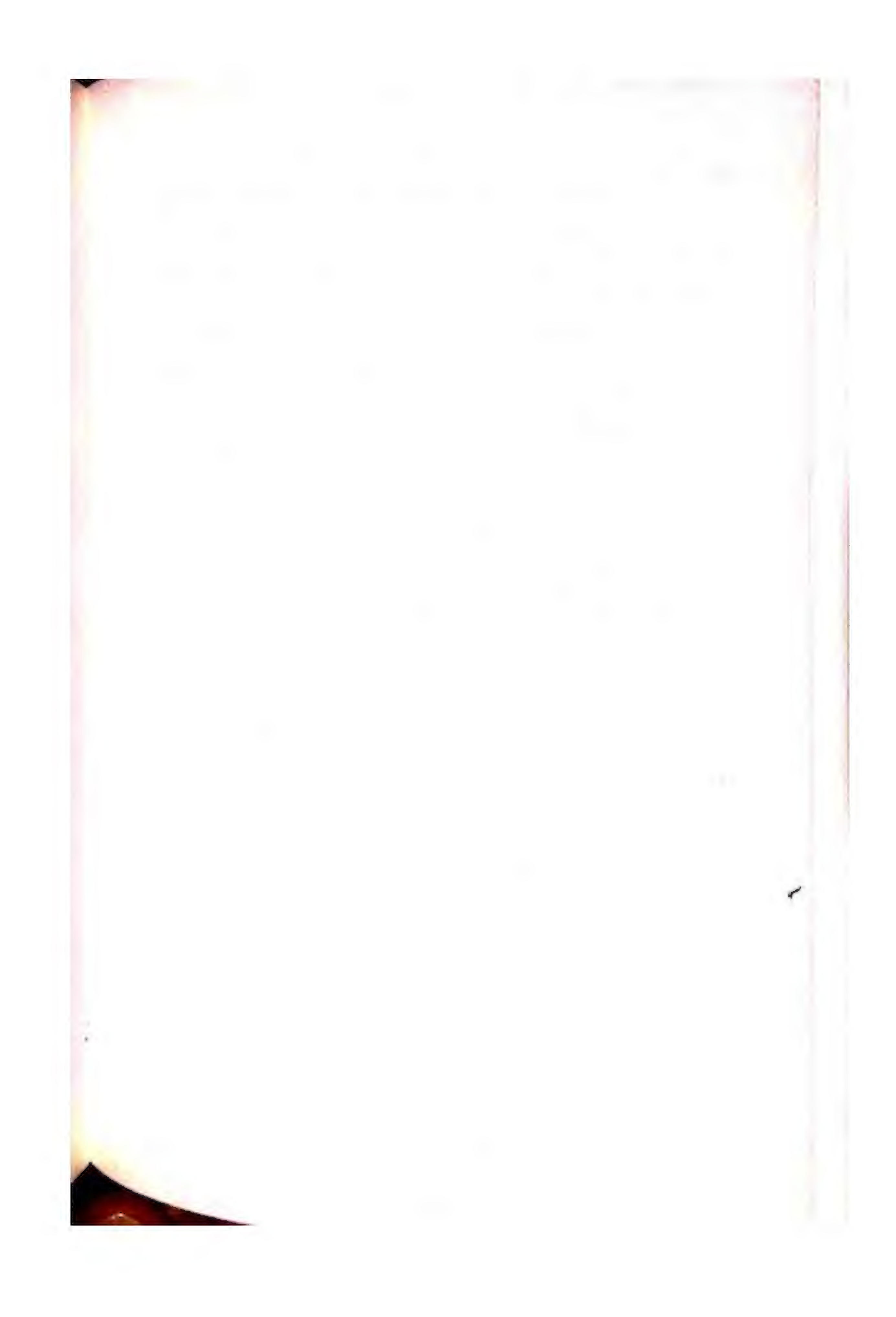
[38] الوثيقة بعنوان " حصاد عام من الحكم " راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف27 /122، ص 248.

خلال فرض ضريبة أداء بسيطة " لإدخال تجديد على قيادة تسيير الميناء". لكن الشيء المهم للوالي كانت الرغبة في الخروج من الالتباس والتوضيح للعرب أن موسم الهذر تحت الخيمة قد ولى، وأن إيطاليا تعود في طرابلس الغرب إلى تأكيد حقها كقوة استعمارية.

بعد الحصول على موافقة الحكومة المركزية، أعد فولبي جهاز الحملة بسرية كاملة : (2000 رجل تقريباً و6 مدافع و34 مدفعاً رشّاشاً) وباشر في 26 من يناير 1922 بالإنزال على ميناء مصراتة. بعد المفاجأة الأولية، شنّ العرب هجومات متكررة أجبروا خلالها الوحدات الإيطالية الأريترية على التراجع. في 11 من فبراير فقط، بعد وصول الإمدادات وشنّ بعض عمليات القصف الإرهابية على مدينة مصراتة بواسطة الطائرات والقطع البحرية، استطاع العقيد بيار لويجي بيزاري أن يأمر بالهجوم الشامل ضدّ خطوط الخصم وأجبر دفاعاته على الانسحاب إلى سيدي الزروق. منذ شهر يناير، فقد العرب 600 رجل، لكن خسائر الفرق الإيطالية الأريترية كانت أيضا ثقيلة : 139 قتيلاً و328 جريحاً و3 مفقودين. ما كان يحسبه جوسيبي فولبي مجرد عملية مراقبة أمنية بسيطة، تبين أنه مقاومة غير متوقعة، أشعلت فتيل الحرب في كامل طرابلس الغرب، مما أثار في إيطاليا ذعراً وقلقاً واحتجاجاً، في مونتي تشيتوريو [39] بين بعض النواب الاشتراكيين.[40]

[39] مقر البرلمان الإيطالي.

[40] كان الحزب الاشتراكي هو الحزب الإيطالي الوحيد الذي ساند بقوة مطالب الليبيين.



الفصل العاشر

رودولفو غراتسياني في مواجهة محمد فكيني

1. في 23 من شهر يناير سنة 1922 ، قبل ثلاثة أيام من إنزال الوحدات الإيطالية بمصراتة، بعث الوالي فولبي بالرسالة التالية إلى محمد فكيني:

"حضرة الوجيه السيد الحاج محمد بك فكيني

سلام كثير، فقد وصلتنا لائحتكم المحتوية على مطالبكم ! وصرنا ممنونين من حضرتكم وفكركم السليم نحو الحكومة التي تقدّر دائماً خدماتكم لها سابقاً ولاحقاً. وإن شاء الله تعالى سنعمل اللازم في دائرة أصولية مشروعة ترضي حضرتكم وتجبر خاطركم وتريحكم في جهتكم، غير أننا نؤمل منكم زيادة السعي وبذل الهمّة فيما فيه جلب الراحة العمومية واستتبات الأمن بين القبائل في جهتكم وما يلزم من الترتيب لها، فبعد أخذ فكركم فيها يكون إجراؤها بطريقة حسنة تعود على الوطن بالصلاح وعلى جهتكم بالخير والفلاح".[1]

بعد أسبوع كتب الملازم سبريشيا، الذي كان فولبي قد كلفه بتمتين العلاقات مع فكيني، رسالة مطوّلة يشرح له فيها الأسباب التي دفعت الوالي لاحتلال ميناء مصراتة. في الجزء الثاني من الرسالة، عالج سبريشيا موضوعاً شائكاً بالنسبة لفكيني ألا وهو "إرساء السلام بين أهل السنّة وأتباع المذهب الإباضي، بشكل يستطيع معه سكّان الجبل

[1] ارشيف أنور فكيني، الملحق رقم 88.

من أتباع هذا المذهب الأخير العودة إلى أراضيهم بعد الكوارث التي عانوا منها. أعرف أنك رجل فاضل وأقدّر ما فيك من إنسانية وكرم، لذا أعوّل على نسيانكم الماضي ومساهمتكم في تسهيل عودة هؤلاء المساكين المنكوبين الذين لا يتحملون وزراً في ما حدث".[2]

يبدو واضحاً من هاتين الرسالتين أن فولبي يسعى إلى تفهم محمد فكيني، أو على الأقل حياده، في لحظة متأزمة تفجرت بسبب احتلال مصراتة وكما يذكر كورادو زولي، عللت حكومة طرابلس الأمر بـ"لحظة ضياع"[3] وحاولت بشتى الطرق إيقاف الصراعات. ففي 14 من فبراير سمح فولبي لغريمي الحكومة، عثمان القيزاني والمحامي جيوفاني مارتيني،[4] بالتوجه إلى مدينة مصراتة للاتصال بالمتمرّدين والتشاور معهم حول شروطهم للكف عن الهجمات. كان "جواب لجنة غريان، حسب ما ذكر زولي، المطالبة الجلية والواضحة بالحكم الذاتي لكافة المستعمرة وإقامة إمارة فيها تشمل طرابلس الغرب أيضا".[5]

كانت مواقف الجانبين شديدة التباعد، لكن المفاوضات لم تتوقف ودخلت الهدنة حيز التنفيذ واستمرت حتى 10 من أبريل. لهذا سمح فولبي بمفاوضات جديدة في فندق الشريف، لكنه كما يذكر محمّد فكيني، لم يشارك فيها شخصياً ولم يرسل أي مسؤول حكومي أو عسكري واستعاض عن ذلك بتكليف التاجر لويجي بَللي والمترجم الحكومي رافائيلي رابيكس، للتأكيد على عدم إيلائه المحادثات اهتماما ولنزع أي طابع رسمي عنها.

في الجلسات الأربع للمفاوضات، أيّام 25 28 و30 من مارس ثم

[2] المرجع نفسه، الملحق رقم 78 بتاريخ 2 سبتمبر 1921.
[3] Corrado Zoli, *Espansione coloniale italiana*, l'Arnia, Roma, 1949, p. 34
[4] نسج المحامي مارتيني علاقات متينة مع المخابرات العربية ووفر لها الدعم والنصح.
[5] C. Zoli, *op. cit*, p. 34

في 5 من أبريل، شارك من الجانب العربي كلّ القادة الرئيسيين: أحمد المريّض ومحمّد فكيني وبشير السّعداوي وعمر بودبّوس وأحمد الشتيوي ومختار كعبار ومحمّد الصويعي الخيتوني ومحمّد فرحات وعثمان القيزاني. وكما يذكر رافائيلي رابيكس، الذي ترك لنا تقريراً مفصّلاً في ثلاثين صفحة عن اللقاءات، كانت لهجة المفاوضات مهذبة بشكل دائم تقريبا وفي غاية المجاملة، لكن المفاوضات لم تسفر عن أيّة نتيجة. فقد ألحّ رابيكس، باسم فولبي، قبل أي شيء آخر، على إعادة كافة المصالح المدنية إلى سالف نشاطها (حرية العمل في محلات تعبئة سمك التونة، إعادة تشغيل السكة الحديدية، استئناف تأبير النخل في الواحات)، التوقف عن إطلاق النار ضد القوات الإيطالية والكفّ عن شتم العساكر الليبيين المكلفين من قِبل الإيطاليين والذين كانوا يُنعتون بـ"الخنازير والخونة".

من جانبهم، ردّ القادة العرب، أن سياسة الحكومة "غير صادقة وتعتمد دوماً آلية القهر والقوة"؛[6] وأن الأنظمة البيروقراطية والقضائية ينبغي أن "تتغير جذريا"؛[7] وأن السماح بإنشاء الإمارة وسحب الوحدات الإيطالية من ميناء مصراتة يكفل وحده التوصل إلى اتفاق مع الحكومة.[8] وقد ردّ رابيكس على انتقادات القادة العرب ومطالبهم بـ"لا" مهذبة، لكنها حاسمة وقطعية.

على المطالبة المتكررة بالإمارة، ردّ رابيكس في 5 من أبريل: "إن إلحاحكم على مطلبكم يعني إصراركم على إعلان الحرب، وفي هذه الحالة، أنتم من يتحمل مسؤولية ذلك".[9] في مساء اليوم نفسه، قفل الوفد الإيطالي راجعا نحو طرابلس. "عندما حانت لحظة العودة،

---

[6] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 397.
[7] المرجع نفسه، ص 399.
[8] المرجع نفسه، ص 400.
[9] المرجع نفسه، ص 421.

يذكر رابيكس، سألني محمّد فرحات إن كنت سأعود إلى فندق الشريف. أجبته أنه من الذكاء إلى حد لا يمكن أن يخفى عليه أني لا أرى أيّة إمكانية لذلك، لأن القادة سلكوا طريقا لا تقود إلى أيّ اتّفاق".[10]

أثناء اللقاءات في فندق الشريف، حاول رابيكس التنحي جانباً بمحمّد فكيني لانتزاع موافقته على عودة البربر إلى الجبل. وأضاف: "لإبداء حسن نواياه نحو الحكومة، كان يتوجّب عليه الانسحاب وضمان عدم وجود رجاله المسلّحين في الزاوية".[11] أتاه الجواب بصورة غير مباشرة، عبر أحد معاوني زعيم الرّجبان الذي وضّح أن محمّد فكيني "لا يعارض عودة أهالي نالوت وفساطو ويفرن من البربر إلى أراضيهم، لكنه لن يسمح بعودة خليفة بن عسكر وموسى قراده وسالم البرشوشي لما اقترفته أيديهم من جرائم بحقّ الأهالي العرب".[12]

أثناء "محادثات" فندق الشريف كانت فرصة الهدنة مفيدة سواء لفولبي أو لأحمد المريّض. فالأول كان بحاجة لأن تعود الأمور وتستقر في إيطاليا بعد أن أثارها بتهوره من خلال العملية العسكرية في ميناء مصراتة. بينما كان الثاني يأمل أن يلعب الوقت لصالحه، بسبب الأخبار التي كانت تصله عن طريق مبعوثيه إلى روما، حول الأحداث الإيطالية. في الوقت ذاته، كان الاثنان يحاولان تعزيز قدراتهما العسكرية، لاقتناعهما أنه بعد 10 من أبريل لن يكون هناك مجال لهدنة جديدة بل للحرب. لهذا السبب أيضا، لم يتراجع أيّ منهما قيد أنملة عن مواقفه. وفي 1 من أبريل، كما ذكر فولبي، كتب أحمد المريض إلى والي طرابلس مطالبا بـ"إلغاء وتعديل كلّ اللوائح

---

[10] المرجع نفسه، ص 427.
[11] المرجع نفسه، ص 405.
[12] المرجع نفسه، ص 412.

الإقليمية والسياسية والإدارية التي صدرت من جانبنا حتى الآن، مع الإقرار بسيادتنا بشكل مبهم. كان الردّ على هذه الرسالة هو الرفض القاطع للمقترحات التي جاءت فيها ".[13]

2. في هذه الأثناء في إيطاليا، بعد سقوط رئيس الوزراء إيفانوي بونومي، أصبح تولي مقاليد الحكم أكثر صعوبة في ظلّ المدّ المتصاعد للفاشية، إذ سُلمت الحكومة في نهاية شهر فبراير سنة 1922 إلى لويجي فاكتا وهو شخصية من الدرجة الثانية، في حين كلّف بالمستعمرات جوفاني أمندولا، أحد أتباع نيتي، الذي حلّ محل جيراردي. تميّزت الاتصالات التلغرافية الأولى بين الوزير الجديد والوالي فولبي بلهجة صارمة إلى حدّ قرر معه هذا الأخير تقديم استقالته أثناء عودته إلى روما للقاء أمندولا. بالفعل كان فولبي يعتبر الوزير الجديدَ متصلِبا ومناهضاً للاستعمار وأنه، في كل الأحوال، الرجل الأقل كفاءة لإدارة سياسة القوة التي دُشّنت بإعادة احتلال مصراتة. ومع ذلك، منذ لقائهما الأول، ترسخت بين الرجلين علاقة جيدة، تمخضت مباشرة عن برنامج عمل محدد للمستقبل.

إستلم أمندولا مهام وزارة المستعمرات في 26 من فبراير 1922، في ذات الوقت الذي انطلقت فيه المحادثات بين مبعوثي فولبي وقادة التمرّد العرب في فندق الشّريف، واضطر أن يواجه في البرلمان المشكلة الليبية مجيبا على مساءلة تقدم بها السيناتور ليبرتيني. جاء خطابه في غاية الوضوح، وقد أخذ شكل برنامج وتضمن بضعة

---

[13] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/27، ص 248.
من وثيقة ذكرت سابقاً بعنوان : Il bilancio di un anno di governo
لكن الشيء الذي أثار سخط فولبي بالخصوص، هو الشكل الذي سلمت به رسالة أحمد المريض. يروي رابيكس : " لا أستطيع سوى لوم القادة المعنيين على الشكل الذي سلمت به الرسالة، لقد تولى ذلك راع جاهل، تقدم لدى حرس الكاربينياري يقود أحد عشر رأس غنم، دون معرفة الشخص الذي كُلف بحمل الرسالة له رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص.418

أفكار سيبقى متمسكاً بها طيلة أشهر وزارته الثمانية. استهل أمندولا خطابه قائلاً : " أنجزت في ليبيا بعض الأعمال القيمة دون شك ويجب ألا ننتقص من أهميتها بنقد عابر؛ بيد أنّ تلك الأعمال لم تتواصل في خطّ متناسق، وغالباً ما تناقضت فيما بينها أو ألغى بعضها بعضها الآخر ؛ من ذلك التضارب والإلغاء المتبادل وُلدت تلك الحالة التي نجد أنفسنا فيها منذ مدة".

ثم انتقل أمندولا للحديث عن العلاقة بالأهالي الليبيين، وبشكل خاص عن صعوبة إرساء علاقات مع القادة الوطنيين المتمرّدين وأعلن أنه ما كان ليلغي الاعتراف بالقانون الليبي الخاص، حتى وإن كان يرى في صدوره "نوعا من السذاجة المثاليّة لسياستنا". بالتالي التزم أمندولا بعدم إبطال القانون الخاص وبتجنب تأليب قادة التمرّد واحدهم على الآخر. وكان حازماً حول هذه النقطة : "لن يتيسّر تطبيق أي نظام في ليبيا إذا ما استمرت الصراعات بين القادة، تلك التي اعتقدنا في لحظة ما، نتيجة رؤيتنا الخاطئة للأمور، أنه قد يمكننا استخلاص فوائد لنا منها".

وهكذا، تخلى أمندولا عن السياسات المريبة والدسائس ولم يرفض "التعرف على آراء الأهالي ومشاعرهم"، شريطة ألاّ يصرّ قادة التمرّد على التفاوض مع السلطات الإيطالية نداً لند. وتابع قائلاً : "نحن نتطلّع للسلام باهتمام كبير، لكن لن يتيسر لنا تحقيقه ما لم يكن الأهالي راغبين به مثلنا ؛ ويتوجب عليهم في هذه الحالة أن يقدموا البراهين الملموسة عن رغبتهم". وإن كانت تدور بخلد قادة التمرّد برامج أخرى "لتنفيذ مخططات متطرفة بدعم إسلامي" وإن كانوا يسعون لإبقاء البلاد في حالة اضطراب، يجب أن يكون واضحاً لديهم

عدمَ وجود لأية إمكانية للتوصل إلى اتفاق ".[14]

كان خطاب أمندولا موجهاً بصورة خاصة إلى قادة طرابلس الغرب الذين اجتمعوا بفندق الشريف للتباحث مع رابيكس وبللي. بيْد أنّ الرسالة، رغم ما فيها من اعتدال وتعقل، وصلت متأخّرة إلى المعنيين بها، في فترة كان القادة العرب قد فقدوا الثقة كلياً بالسلطات الإيطالية، بعد ثلاث سنوات من التسويف والوعود الزائفة والدسائس. وبالنتيجة، لم يروا طريقاً آخر لنيل حقوقهم غير طريق المواجهة المسلحة. وصلت الرسالة متأخرة كذلك نظراً إلى أن مطالب أهالي طرابلس الغرب ما عادت كما كانت عليه خلال 1919، فحينها كان يكفيهم حصولهم على الحريات التي أُقِرَّت في القانون الخاص، أمّا الآن وكما رأينا أثناء المفاوضات في فندق الشريف فبدت المطالبة بالحكم الذاتي والإمارة مطالب لا يمكن التنازل عنها. لذلك قُدِّر لرسالة أمندولا أن تهوي في الفراغ.

في 10 من أبريل 1922، انتهت الهدنة التي أُقِرَّت بين فولبي وأحمد المريض دون أن يبادر أحد الطرفين بأي شيء لتمديدها، وكان العرب أول من انتهكها حين هاجموا في 14 من أبريل بقوى ضخمَة الحامية الإيطالية المدافعة عن محطة السكة الحديدية بالرأس الأحمر، في أطراف الزاوية، محاصرين إياها طيلة يوم كامل. كان يقود العملية النائب السابق محمّد فرحات[15] الذي كان يتولى قبل أسابيع قليلة رئاسة لجنة غريان بروما. نظراً لوجود شخصية لها هذا الحضور السياسي كالذي يتمتع به فرحات بي، اتخذ قطع الهدنة معنى تجاوز معه مجرد رفع السلاح. وفي الحقيقة، كان الأمر بمثابة إجابة

[14] Giovanni Amendola, *La nuova democrazia*. Discorsi politici (1919-1925), Ricciardi, Milano-Napoli, 1976, pp. 117-124.

[15] من وجهة النظر العسكرية، كان الهجوم بقيادة عبد الله تمسكت الذي يتولى مهام القيادة العامة للجبهة الغربية. تراجعت الوحدات العربية حين اشتركت في العمليات مدافع ذات عيار كبير تابعة للبارجة "روما " الراسية بمرسى ديلا.

واضحة لأمندولا، إذ لم تكن هذه القطيعة مع طرابلس فقط بل مع روما أيضا.

جاء ردّ فعل فولبي على هجوم الرأس الأحمر سريعاً. بين 14 و25 من أبريل، اجتاح فيلقان بقيادة العقيدين كوتوري وغراتسياني منطقة الزاوية التي كان يحاصرها الثوار. ففكوا الحصار عن حامية الرأس الأحمر، كما شتتوا العرب من الواحات المحاذية في قرقوزة والطويبية والزاوية وأعادوا الاتصالات بين طرابلس وزوارة. شاركت في العمليات جماعات من أتباع المذهب الإباضي بقيادة يوسف خربيش. مرّة أخرى وبرغم وعود أمندولا، عادت السياسة القديمة والبلهاء بتسليح البربر ضد العرب.

أثناء عملية تمشيط المنطقة الواقعة جنوب الخط الحديدي نفذ فيلقا كوتوري وغراتسياني "حكم الإعدام على كل من يتجرأ ويبدي أية مقاومة"،[16] جرياً على أسلوب ستستمر ممارسته طيلة عقد كامل. وقد علق رافائيلي رابيكس على هذه العمليات بقوله: "هكذا، خلال أحد عشر يوما، أخفقت بشكلٍ يائس، مبادرة محمد فرحات الغبية، التي علّق عليها قادة التمرّد الكثير من الأوهام. فقد مشّطت قواتنا كل المنطقة الساحلية من طرابلس إلى زوارة على طول مئة وعشرين كيلومتراً حتى استتب فيها النظام والهدوء".[17]

وخوفاً من هجوم كاسح على العزيزية التي يحاصرها الثوار منذ شهرين والتي يجري إمدادها بالمؤونة والعتاد جوّا، أمر فولبي بفك الحصار خلافاً لرأي الماريشال بادوليو، الذي نزل بالمستعمرة في 26 من أبريل "بهدف مراقبة إمكانية نجاح هجوم الوالي فولبي

[16] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 223.
[17] المرجع نفسه، ص 224-223.

الجديد".[18] شارك في عملية كسر الحصار على العزيزية قرابة 9000 رجل، توزّعوا على ست فرق متحركة، ووُضع تحت تصرفها 14 مدفعا. "كانت هذه هي المرة الأولى منذ اندحارنا سنة 1915"، كما ذكر العقيد غوليالمو نازي، "التي تتحرك فيها وحداتنا باتجاه الجنوب".[19]

انطلق الفيلقان في 25 من أبريل من طرابلس وجنزور والمشاشطة وفندق التوغار، متجهين صوب سواني بني آدم ومتقدمين على جبهة اتساعها بين 8 و10 كيلومترات. في 29 من أبريل تم بلوغ الهدف وضربت بشدة قوات التمرد التي يقودها أحمد المريض. في 30 من نفس الشهر، تحت وطأة عاصفة رملية، بلغ على إثرها معدل الحرارة 55 درجة، استأنف فيلق غراتسياني سيره حتى بلغ العزيزية وفكّ عنها الحصار. خلال الأيام اللاحقة توغلت الوحدات الستّ في الجفارة والعزيزية ملحقة هزائم متكرّرة بالمحلات العربية، دافعة إياها تجاه الجبل. وخلال عشرين يوماً أعادت احتلال فضاء شاسع جداً وكبدت المتمرّدين خسائر فادحة.[20]

فسر أسباب نجاح العملية أحد رواد عملية الغزو، العقيد الشاب غراتسياني، الذي عقد عزمه لدى نزوله في المستعمَرة "ألاّ يكون خاضعاً لإمرة أحد".[21] بالفعل، منذ انطلاق المواجهات، بدا غراتسياني الأكثر جسارة وتصميماً وانفلاتا بين العقداء الشباب. فهو يؤكد أن "العرب أدركوا أنهم يواجهون عدوا لا عهد لهم به"، ويتابع قائلاً " إن روحاً جديدة تحفزّه، تولدت من الانتصار الكبير على

[18] Piero Pieri, Giorgio Rochat, *Badoglio*, UTET, Torino 1974, p. 505.
[19] Guglielmo Ciro Nasi, *La Guerra in Libia*, (Rivista Militare Italiana), gennaio 1927, p. 83.
[20] بحسب المصادر الإيطالية، بلغ عدد القتلى العرب 740 ، وفي المعسكر الإيطالي بلغ عدد القتلى 72 و15 مفقودا و192 جريحا، جُلهم تقريبا من العساكر الإريتريين والليبيين.
[21] R. Graziani, *Ho difeso la patria*, Garzanti, Milano, 1948, p. 30. (رودولفو غراتسياني، إني دافعت عن الوطن، غرزنتي، ميلانو، 1948، ص 30)

الجبهة الأوروبية، حيث يستعمل وسائل مستحدثة: فهو لا يعرف التوقف بمجرّد سماع إطلاق نار ولا يخشى الحرارة الملتهبة ولا المناخ القاسي؛ لا يفصح أبداً عن نواياه ؛ يهاجم بسرعة وباندفاع، على الأجنحة ومن الخلف ومن الأمام، بدون هوادة أو رحمة ".[22]

3. بتحرير السهل من المحلات العربية، انتقلت حكومة طرابلس إلى المرحلة الثانية التي كانت تهدف إلى إعادة توطين البربر في جبل نفوسة وفساطو. شاركت في العملية الوحدات المتحركة التابعة لغراتسياني وبيزاري وغالينا وبللي والجماعات البربرية المتعاونة بقيادة يوسف خربيش. في 29 من مايو، قبل الانطلاق في العمليات، بعث رودولفو غراتسياني من زوارة رسالة إلى محمّد فكيني، الذي كان يعرف قوة غريمه المرعبة. تقول الرسالة : "نخبركم أنّ الوالي أصدر أمراً بتوقيف خليفة بن عسكر وعزله من منصب قائمقام نالوت. جاء توقيف بن عسكر نتيجة لتعنّته وإصراره على الاستمرار في حرب الجبل، في حين لم تكن الحكومة تطلب سوى عودة أتباع المذهب الإباضي إلى أراضيهم بوسائل سلمية وليس عن طريق حرب سببت ضرراً كبيراً لرجاله". بعد هذه المقدمة، التي يقر فيها بصراحة بالأخطاء والعنف المسلّط ضدّ العرب من طرف ابن عسكر، غيّر غراتسياني لهجته قائلاً : "نحن لن نقترف شيئا ضدكم وضدّ رجالكم ما لم تمسوا بسوء جنودنا أو أتباع المذهب الإباضي، لكن إن سمعنا طلقة بندقية واحدة من جانبكم، فسيكون ردّنا بأسلحة رهيبة وستكونون مسؤولين أمام الله عن الدماء التي ستُسفك".[23]

---

[22] رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 32.
[23] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 95.
اتهم خليفة بن عسكر بمغادرة مكان مهمته وبالخيانة العظمى فكان شنقه في طرابلس.
كتب عنه رابيكس : " كان سيداً من الرعيل الأول، يهيمن منذ سنوات على منطقة نالوت وقد أرّق السلطات

بين 29 من مايو و10 من يونيو، في الوقت الذي تفجّرت فيه معارك الجبل بشكل متتابع، أرسل غراتسياني إلى محمّد فكيني زهاء ستّ رسائل، بأسلوبه العسكري الفظّ، مراوحاً بين الوعد والوعيد. في حين تميّزت ردود فكيني التي تثير الإعجاب بطابعها الواقعي ولإدانتها الفتن بصورة جليّة ولمشروعية مطالبها ولأسلوبها المتّزن واللائق. كان الردّ الأوّل بتاريخ 3 من يونيو، وهو يوم اختلط فيه الفرح بالحزن لدى فكيني. فقد استطاع عرقلة غراتسياني في آبار الوخيم بقتل ضابطين إيطاليين وحوالي مئة من جماعة خربيش غير النظامية. لكن أثناء الصراع فقد محمّد فكيني ابنه الثاني حسين، الذي لم يكد يتم العشرين من عمره، وهو شاب كما ذكرنا سابقاً، كان قد شارك في سنّ الثالثة عشرة في المعارك التي دارت حول زوارة.

قبل ساعات قليلة من انطلاق معارك الوخيم، أملى محمّد فكيني على أحد كتبته ردّه على رسالة غراتسياني الأولى.[24] لخّص في الجزء الأول منها قصة الخلاف بين العرب والبربر وندّد بتواصل مساعدة الحكومة لأتباع المذهب الإباضي. فيما يتعلق بتوقيف خليفة بن عسكر، علّق فكيني قائلا : "فعندنا ابن عسكر أهون من فساطو وخربيشة لأنه هو والباروني أهل فساد هذه الولاية أولاً وآخراً إذا نظرتم التواريخ. وأمس نحن أخذنا كتابكم حتى تقدم قسم من جيشكم للحرب، فبات رأي عمومنا على ألا تقبلوا الجبالية يرقون علينا بالقهر، فإذا كنت تريد السلم ترجع بهم إلى زواره... وأما إذا كان مرادك أن ترقي الجبالية علينا جبراً فلا شك أننا نعرف أنكم دولة

الإيطالية حتى الفرنسيين أيضا الذين أرادوا القبض عليه، لو تيسّر لهم اجتياز الحدود". رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 239. كتب أوتوني غابيلي من جانبه : " مجرم به لوثة جنون، مهنته السلب، اقترف مجازر خلال عام 1915 كما سبّب لنا جروحاً غائرة " مع ذلك فقد مولته السلطات الإيطالية وأمدته بالسلاح والمئونة".(*op. cit.*, vol. 11, p. 235)

[24] كان له أربعة، أملى عليهم الجزء الثاني من المذكرات حين منعه العمى تقريبا عن الكتابة.

ولكن نحارب عن ديننا ووطننا وشرفنا".[25]

لاحظ رافائيلي رابيكس أن مواجهات الوخيم "أزاحت عن غراتسياني غشاوة التوهم بأن السير نحو الجوش يمكن أن ينطلق دون صراع، ونبهته لقوة عدوه ولقدراته القتالية".[26] وكسباً للوقت، وبانتظار أن يرسل له فولبي كتيبة التعزيزات الليبية السادسة، استمرّ غراتسياني في إيصال الرسائل لمحمّد فكيني محاولاً فيها إقناعه أن من مصلحته العمل على عودة البربر. كتب بشأن المواجهات حول آبار الوخيم: "أنصحك بتأمل الكوارث التي تسببها الحرب وما يترتب عنها من سفك للدماء. علمنا بخبر موت حفيدك،[27] لكنكم أنتم المسؤولون عن ذلك. يؤسفنا ذلك، إلا أننا نرى عقاب الربّ لكم ومواصلة تسليط عقابه عليكم".[28]

أثناء تبادل الرسائل مع غريمه، استعمل غراتسياني الوسيلة الأكثر سرعة : رمي الرسائل من الطائرات. في 6 من يونيو، ألقى على معسكر القائد العربي مع الرسائل بعض القنابل. مما أثار سخط فكيني فردّ على ذلك قائلا: "نعتبر أسلوب مراسلتكم عبر قاذفات القنابل عملية استفزازية لا تليق بدولة متحضّرة وبأناس معروفين. نحن رجال حقيقيون اعتدنا الحرب، رجال يفضّلون الموت الكريم على الحياة الذليلة. (...) إن أردتم السلام، أعيدوا أتباع المذهب الإباضي إلى ديارهم في زوارة ثم سنتحدث عن المصالحة. إن أردتم الانطلاق في المفاوضات معنا، أرسلوا المترجم رابيكس والملازم سبريشيا،

---

[25] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 96.

[26] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 241.

هكذا وصف غراتسياني الحالة في الوخيم : " لقي تقريباً مئة من جماعة خربيشة حتفهم في نفس اليوم كما خسروا كافة أسلحتهم، بعد مباغتتهم أثناء البحث عن الماء في أطراف المخيم. فكيني، المتعطش لسفك الدماء والثأر ذبح ثلاثين منهم بيديه ". (رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 39.)

[27] لم تكن بحوزة غراتسياني معلومات كافية عن عائلة فكيني، فقد اختلط عليه أمر حسين فظنه حفيد زعيم الرجبان.

[28] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 97، بتاريخ 4 يونيو 1922.

ونحن نضمن سلامتهما".[29]

في الغد أرسل غراتسياني إلى فكيني رسالة ثانية، دون أن تصحبها القنابل هذه المرّة، لكنها حوَت فقط دعوة إلى تجنب أعمال التدمير والقتل.[30] مرة أخرى، لم يكن الأمر سوى محاولة لكسب الوقت بأسلوب ساذج، في انتظار الكتيبة السادسة التي تأخرت عن الوصول، ولمعرفته أنه لدى فكيني قوة مؤلفة من 2500 مقاتل، أي تفوق ما لديه.[31] وبانتظار التعزيزات التي لم تصل، أرسل غراتسياني يوم 3 من يونيو رسالة جديدة إلى فكيني ينذره فيها بإمكانيته إلحاق خسائر فادحة برجاله لو تجرّأ على استعمال القوة.[32] وفي اليوم ذاته، 8 من يونيو، ردّ محمّد فكيني طالباً الهدنة الشاملة كما طلب لقاءً مباشراً مع غراتسياني : "وإذا جعلتم هدنة عمومية في المذاكرات العمومية من ترهونة إلى الشرق إلى غريان إلى الجبل، هذا حال العموم وللحوض وأهالي الجبل نراه لصلاح عموم الولاية ولمصالح الدولة قاطعاً لهذه الحروب. وحسب تعريفي إليكم البارحة إذا يقدم إلينا ترجمان الولاية بالأمان نتذاكر معه ويرجع إليكم، وإذا لم ترد فترجمانكم. وإذا تبغي معك بالذات فيأتي معك سبايس طليان وعرب، ونجتمع في المحل الذي تقرره مع ترجمانكم هذا إذا لم يأتِ ترجمان الولاية. والخلاصة نحن نحب السلم إذا افتككنا من ظلم الجبالية وعنادهم ومساعدتكم لهم".[33]

برغم هبوب ريح القبلي بشدة وبشكل لا مثيل له، بين 4 و11 من يونيو، مما عرقل سير العمليات العسكرية، لم يتوقف محمّد فكيني،

---

[29] تحمل الرسالة علاوة على توقيع فكيني توقيعات ثمانية قادة آخرين.

[30] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 99.

[31] في مذكراته يتحدث فكيني عن 5000 رجل من رجبان وزنتان وحرابة وصيعان لكن هناك بعض الشك في هذا الرقم. محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 313.

[32] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 100.

[33] المرجع نفسه، الملحق رقم 101.

بمساعدة أحمد السنّي، عن إثارة الخصم بـ"مناوشات وأعمال عدوانية".[34] كما يذكر غراتسياني في مذكراته، استطاع فكيني ترتيب مواقع محلاته في مواجهة المعسكر الإيطالي بسواني الكردي. ردّ غراتسياني بإرسال طائراته لقصف المواقع العربية، وفي رسالة بتاريخ 10 من يونيو تجاسر على التصريح التالي: " لم يحصل لي شرف التعرف عليك شخصياً، لكن فلتعلم أني لست متحيّزاً لا لمصالحك ولا إلى مصالح أنصار المذهب الإباضي، فأنا أتصرف من منطلق مصالح حكومتي".[35]

أثناء هذه المراسلات، أبدى محمّد فكيني، صبرا وحكمة منقطعي النظير، حيث لخّص لغراتسياني الأحداث التي تورط فيها أتباع المذهب الإباضي خلال العقد الأخير. مذكراً أنّ حكومة طرابلس هي من أرسلت ابنه حسن إلى الجبل لإجهاض ثورة خليفة بن عسكر. فقد كان سليمان الباروني وخليفة بن عسكر وراء اندلاع الحرب في الجبل، حيث طرد الأول من طرابلس الغرب حسب رغبة الوالي فولبي، والثاني نفذ فيه الإيطاليون حكم الإعدام بعد إدانته بالخيانة العظمى. لكن غراتسياني، على ما يبدو، نسي هذه الأحداث كلياً وارتكب نفس أخطاء منزنغر ومركاتيلي ذاتها بإعادته تسليح البربر. ويواصل فكيني : "لست رئيس دولة ولا القائد الأعلى للجبل، فما أرنو إليه فوق كل اعتبار هو العمل من أجل مصلحة وطني. أمّا أنتم فقد ارتكبتم خطأ جسيما من خلال تجنيد عصابات يوسف خربيش في صفوفكم". واختتم الرسالة بهذه العبارات: "نحن نريد السلام، وأنا لا أخشى طائراتكم وأتحمّل مسؤوليتي التامة. الحياة ليست دائمة ".[36]

بوصول الكتيبة الليبية السادسة إلى سواني الكردي، يوم 11 من

---

[34] من رسالة احتجاج أرسلها غراتسياني لفكيني المرجع نفسه، الملحق رقم 102.
[35] المرجع نفسه، الملحق رقم 103.
[36] المرجع نفسه، الملحق رقم 104، رسالة من 10 يونيو 1922.

يونيو، انتهت المراسلات بين الرجلين. في صبيحة الغد، توقف هبوب الريح القبلي، فتحرك غراتسياني يحدوه هدف احتلال الجوش، لكنه أثناء السير تعرّض لهجمات متكررة من محلات فكيني، رغم نشاط الطائرات المستمر، التي "زرعت الرّعب والموت في صفوف العدو" كما يذكر غراتسياني.[37] هُزم مقاتلو محمّد فكيني في المرّة الأولى في واحات الجوش، يوم 13 من يونيو، فانسحبوا نحو جادو وحاولوا صدّ المهاجمين عند مضيق بالسلامات. لكنهم هُزموا مرّة ثانية في 18 من يونيو، مما سمح لغراتسياني باحتلال جادو وكاباو ونالوت مجددا.

خصص محمّد فكيني بضع صفحات من مذكراته للمعارك التي اندلعت بين 3 و 8 من يونيو. تتطابق روايته للأحداث بالضّبط مع روايتي غراتسياني ورابيكس. فهو يبيّن الانتصارات ولا يتستر على الهزائم. بعد المواجهة الساخنة في منطقة السلامات، كتب : "وبعد هذه المحاربة، لما رأى المسلمون أن لا قدرة لهم هذه المرة على مقاومة الحرب لفقد لوازمها ولعدم زيادة قوة تأتيهم من الشرق، لأنه لم يأت إلا مئة مسلح من يفرن أي أم الجرسان وتاغمة وشقارنة واغزاز، ومقدار مئة من ثلث الرياينة الغربي وعبد الله الرحيبي، فعندها تأخرت عموم المسلمين وارتحلت إلى القبلة ونواحي مزده لأن الرياينة والمشاشية والأصابعة قاموا لمناصرة العدو مثل السابق... ولله در عموم الأسلام والمجاهدين ما قصّروا مع ضعف قوتهم".[38] و بعد أن هُزم مرّتين،[39] انسحب محمّد فكيني مع رجاله وعائلاتهم نحو صحراء الأبيار وأطراف مزدة. كان غراتسياني مقتنعاً أنه هزمه

---

[37] رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 41.

[38] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 316.

[39] حسب رابيكس (المرجع نفسه، ص 245) بلغت خسائر العرب بين 3 و 18 يونيو 580 قتيلا، أما من الجانب الإيطالي فقد بلغ عدد القتلى 40 والجرحى 100 ، بينما كان عدد القتلى من رجال يوسف خربيش أكثر من مئة في معركة الوخيم وحدها.

نهائيا لكنه كان مخطئاً في ذلك، فقد بقي فكيني خصمَه المرعب على مدى ثماني سنوات.

4. مرّ صيف 1922 في طرابلس الغرب وقد خيم في أثنائه هدوء نسبي. بينما استمرت الغارات في الجفارة وفي الجبل ضد المواقع الإيطالية المتقدمة، لكنها لم تشهد معارك ذات أهمية تذكر. غير أنّ الأوضاع كانت مدعاة للقلق بين القادة الإيطاليين، كما شهدت على صلابة المتمرّدين. بعد انتصارات غراتسياني الكاسحة، قرّر الوالي فولبي، قطع دابر أيّة مقاومة. وعلى إثر زيارة وزير المستعمرات أمندولا لطرابلس، أعدّ فولبي هجوماً شاملاً قدر له إستعادة احتلال الجبل من بني وليد وحتى الحدود مع تونس. وفي انتظار تحريك الفيالق للهجوم المزمع، جهز الوسائل اللازمة لهذا الغرض بكلّ عناية. بالفعل، في 17 من يوليو، وقّع المرسوم الذي يفرض الأحكام العرفية وتطبيق القانون الجزائي العسكري على كامل تراب طرابلس الغرب، كما أقام في الزاوية محكمة عسكرية خاصة، وخولها الحكم بالإعدام شنقاً حسب الممارسات المحلية.

في 28 من أكتوبر، بينما كانت الفيالق الفاشية تزحف نحو روما وفيكتوريو عمانوئيل الثالث يرفض التوقيع على مرسوم الأحكام العرفية، كان العقيد غراتسياني يتحرّك من جادو، بصحبة 4000 من المشاة و300 من الخيالة و4 قطع من المدفعية، بهدف السيطرة على الجبل وقصر يفرن. في 30 من أكتوبر، بلغ فيلق غراتسياني بلدة عين الرومية حيث انضم إلى مجموعة إضافية تابعة للبربري يوسف خربيش وفرق المشاشية والرياينة غير النظامية. في الغد استأنف غراتسياني تقدمه حيث تصادم في معارك عنيفة مع رجال محمّد فكيني وأحمد السّني في أم الجرسان وفي صُفيت، ملحقاً بهما هزائم.

واستولى على "أعداد كبيرة من المواشي ومدفعين وعدّة رشاشات، وعدد كبير من البنادق والذخيرة".[40] حسب رابيكس، خلف الثوار وراءهم في ساحة المعركة 230 قتيلا.[41] في اليوم ذاته احتل فيلق غراتسياني قصر يفرن والتحم مع مجموعة بيزاري الوافدة من العزيزية.

يذكر غراتسياني: "شاء القدر أن تجري المعركة قرب ضريح صفيت القديم، حيث عثرت بين أطلاله، على قطعة نقدية قديمة، عليها رمز إمبراطورية روما وفي الخلف صورة إمبراطور، أهديتها لاحقا إلى الدوتشي. كنت أتمنّى أن تقوم وحداتنا المظفّرة باستعراض أسلحتها بمناسبة قدوم الفاشية، احتفاءً بانتصارنا الكبير المظفّر في الصحراء، مستبشراً خيراً بهذا الطالع الميمون لمجد إيطاليا على أرض إفريقيا".[42]

مع قيام النظام الفاشي وغياب المعارضة القادرة على انتقاد تجاوزات الاستعمار، اتخذت إعادة احتلال ليبيا نسقاً متماسكاً وامتداداً لا مثيل له. فعلى إثر سقوط قصر يفرن، سقطت غريان في 17 من نوفمبر 1922. وتلتها ترهونة في 7 من فبراير 1923. ثم زليطن ومصراتة في 26 من فبراير. وأخيراً سقطت بني وليد وكافة أراضي ورفلة في 27 من ديسمبر. في فبراير سنة 1924 احتُلت مجدّداً الواحات النائية بسيناون وغدامس ومزدة. كانت سرت آخر ما سقط من المواقع في 23 من نوفمبر 1924.

"باحتلال سرت مجدداً "، كما يذكر رافائيلي رابيكس بزهو كبير، " يمكن القول إن السيادة الإيطالية انبسطت على كل طرابلس الغرب

[40] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 321.
[41] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 280.
[42] رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 52.

، لما في العملية من مصالح سياسية واقتصادية. بعيداً عن حدود احتلالنا، جنوب غدامس وسيناون ومزدة وجنوب أحواض زمزم وسوف الجين، لم تبق سوى بعض فلول متمردة غير ذات اعتبار، تحفزها روح النهب المتوارثة، أكثر منها أحاسيس العداوة السياسية".[43] عموما، التزم رابيكس بالحذر والاتزان في أحكامه، لكنه أخطأ في تقييمه هذه المرة. فما كانت تنظيمات المتمرّدين الناشطة في صحارى القبلة وفزّان قليلة العدد ولا مدفوعة بروح السلب والنهب، فهي تضم بعض القادة النافذين والمقتدرين، الذين لم يقبلوا أبداً بالمساومة، واستمروا في القتال حتى مطلع سنة 1930 لأنهم رأوا أهاليهم يموتون من الجوع والأوبئة وجروح المعارك القاتلة..

وما كانت قوات محلات المتمرّدين قليلة العدد ولا فاترة، فقد أرسل رودولفو غراتسياني، في 14 من يناير 1923، وللمرة الأخيرة، رسالة إلى محمّد فكيني يدعوه فيها لتسليم نفسه: " ألم ترَ أن الله تبارك وتعالى يكافيك في أعمالك يوماً فيوماً في ذريتك وشيعتك وفي جميع ما عندك؟ وأنت باقٍ على ما أنت عليه وتارك رحمة الله خوفاً من الحكومة، والحال أن الله تعالى والحكومة رحمتهم واسعة لكل من التجأ إليهم وتاب، ويعاقبون العقاب الشديد من داوم على ما هو عليه. بناء عليه، أنذرك للمرة الثانية، وربما الأخيرة، وما بعد الإنذار إعذار، فاختر لنفسك أي القرار تختار ".[44]

مرة أخرى، بصبر وثبات، ردّ فكيني العجوز على غراتسياني ملخِصا أحداث الماضي. فكتب : "إن أردتم معرفتي حقّ المعرفة، ليس أمامكم سوى معاينة سلوكي، والاطّلاع على رسائلي وخطاباتي

---

43 رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 372.

44 أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 114.

وأفعالي في الماضي، فهي مسجلة كلها في أرشيف الولاية (...). توفي ابني حسن بسبب أوامر صادرة من حكومتكم ودفاعا عن القانون أيضا، ضدّ كلّ من خليفة بن عسكر والباروني. (...) مطالبنا مدوّنة وهي موجودة في مكاتب الوالي فولبي، لكنكم فضلتم تجاهلها واجتياح منطقتنا بالقوة لصالح أتباع المذهب الإباضي".[45]

ألحق غراتسياني بمحمّد فكيني عدّة هزائم، لكن الرجل بقي على قيد الحياة، وهو من هذه الناحية يُعتبر محظوظا. إذ، بين 1922 و1924، لقي الكثير من القادة الآخرين حتفهم في المعارك، أو أعدموا شنقاً، أو رحلوا، أو أُجبروا على المنفى. مثلاً، استسلم الهادي كعبار عند الهجوم الإيطالي على غريان، وعقاباً له، نُفذ فيه الحكم بالإعدام شنقاً في ساحة سوق مصراتة. قُتِل محمّد سعدون الشتيوي في بئر تاجموت دفاعا عن جنوب مصراتة. وفي ساحة الزاوية أُعدم شنقاً كل من عبيدة بن زكري من صرمان، ومحمّد زكي امقيق من الزاوية، ومحمّد الدريدي من العلالقة. وتلمّس النجاة في مصر كل من عبد الرحمان عزّام، وعبد الله تمسكت، وبشير السعداوي، وأحمد المريض (مع قرابة 200 من أتباعه)، وأحمد الشتيوي، وعمر بودبوس، والحاج علي المنقوش (مع 700 من مناصريه)، والشيخ محمّد سوف وابنه عون سوف (مع 200 من المجاهدين).

بتيقنهم أن المعركة خاسرة لا محالة، عبر بعض الأعيان الوطنيين، مثل عثمان القيزاني والصادق بلحاج وخالد القرقني، من برقة إلى مصر. وخضع قادة آخرون إلى السلطات الإيطالية، بعد مفاوضات طويلة مع طرابلس. من بين هؤلاء كان مستشار الحكومة

---

[45] المرجع نفسه، الملحق رقم 116، بتاريخ 21 يناير 1923.
كتب غراتسياني إلى فكيني مرة أخرى، في 11 من فبراير 1923 ، مجدداً شتائمه : " تركك الله وحيدا، بدون أتباع ومهزوما." (Dio ti ha lasciato solo, senza seguaci, e vinto). أنظر : أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 118.

السابق، علي الشنطة وعلي بن تنتوش ومسعود فكيني، شقيق زعيم الرجبان.

أثناء إعادة الاحتلال الشامل للجفارة والجبل، فقد المجاهدون ما لا يقل عن 6000 رجل. حتى في صفوف المدنيين سجلت خسائر هائلة. وكما يذكر رابيكس، بعد احتلال زليطن مجدداً، " فرّ ما يزيد عن ألفي عربي، مع عائلاتهم وقطعانهم، باتجاه وادي فوقاس تحت وابل قصف طائراتنا".[46] وكإجراء عقابي أولي، شاعت أيضاً عادة "هدم منازل قادة التمرّد".[47] وما كان بالشيء النادر بعد المواجهات، بناء "معسكرات الاعتقال للأهالي من الذين يُعلنون خضوعهم"،[48] لكن الجديد بالأهمية بالنسبة لإيطاليا في عهد موسوليني هو وضع حد للمقاومة في طرابلس الغرب. أعلن وزير المستعمرات فيدرزوني في البرلمان : "لقد استطعنا في كلتي المستعمرتين، طرابلس وبرقة، أن نفرض هيبتنا ونستعيد اعتبارنا كاملاً، وأن نبسط عليهما سلطتنا الفعلية دون أن يشكل ذلك مضاعفات سلبية على الميزانية لاحقاً، وبخسائر بشرية محدودة، لا تزيد بالتأكيد عما تكبدته وحداتنا من جراء هجمات المتمرّدين وقطاع الطرق من السّنوسيين في الماضي".[49]

---

[46] رافائيلي رابيكس، المرجع نفسه، ص 314.

[47] المرجع نفسه، ص 308.

[48] المرجع نفسه، ص 350.

[49] Luigi Federzoni, *Venti mesi di azione coloniale*, Mondadori, Milano, 1926, pp. 131-132.

الفصل الحادي عشر

حياة وموت في الصحراء

1. مع صعود الفاشية لم تتغير ديناميكية العمليات الحربية فقط بل تغيرت أيضا عقلية المستعمِر وأسلوبه وفلسفته. كتب الوالي فولبي: "فضلاً عن التفوق العسكري، نملك تفوقاً أخلاقياً مستمداً قيمه من تراثنا التاريخي وقوته ومن عظمة الدور الحضاري الذي اضطلعت به إيطاليا عبر القرون. (...) إن حضارة مثل حضارتنا لا يمكن لها أن تخضع أمام الأهالي، ولا يمكن أن تتلاءم مع أية مساومات، بل ينبغي أن تُثبت حضورها، دون أن يُعيق مسيرتها أي شيء".[1]

وصارت تأكيدات وزير المستعمرات فيدرزوني أكثر دقة وحسماً: "حول تجنب أية مفاوضات مضرة مع المتمرّدين فيما يخص السيادة الثابتة للراية الإيطالية ؛ وتجنب التلكؤ الجبان في تطبيق المعايير البسيطة والواضحة لسياسة تتلاءم مع حقوقنا ومصالحنا؛ وتجنب التباطؤ الحذر للآليات العسكرية الثقيلة حتى لا تعجز عن مواجهة الهجمات الخاطفة لزمر العدو؛ وضرورة التحرك الحاسم لبعض الفرق الحربية المدربة والسريعة تحت قيادة خبيرة نحو هدف واضح يجب بلوغه بأي ثمن".[2] في رأي لجوسيبي بوتاي، بدأ الاستعمار الحقيقي فقط مع حلول الفاشية. وكلّ ما أنجز سابقاً، منذ الإنزال بعصب وحتى 1922، يعرب فقط عن " نزوات خاطفة ومنفلتة،

[1] Giuseppe Volpi, *La politica coloniale del fascismo*, CEDAM, Padova 1937, pp. 12-13.
[2] Luigi Federzoni, *Venti mesi di azione coloniale*, Mondadori, Milano 1926, p. 55.

تنقصها الفطنة والتنسيق تحت مباركة البرلمان، بين الافتتان بالعقلية العسكرية الأصيلة (...) وبين رؤى محدودة لعقلية إدارية قادرة في أقصى تقدير على تنظيم واحدة من المدن على الساحل، لا التطلع إلى أهداف كبيرة لسياسة استعمارية جادة ".[3]

لم يكن فولبي قادراً فقط على رسم المسار الجديد للاستعمار الإيطالي، بل كان قادراً أيضاً على ترجمته على أرض الواقع. فعلى مدى الستة والثلاثين شهرا من ولايته، احتلّ ثانية منطقة طرابلس الشمالية كلها بتكاليف متواضعة وبخسائر معدودة نسبياً : 620 قتيلا و1924 جريحا و38 مفقوداً.[4] وحسب بعض المصادر الإيطالية، بلغ عدد الضّحايا العرب في نفس الفترة 6500 قتيل. ومع ذلك لم تُسحق مقاومة المجاهدين نهائيا. خلال أغسطس وسبتمبر من سنة 1923، وبفضل الدعم العسكري والمالي لمحمّد صفي الدين السّنوسي، استطاع المجاهدون العرب الاحتفاظ بقدرتهم على تنظيم هجوم واسع ضدّ مراكز القصبات وترهونة ومصراتة ، إلى درجة سادت معها الخشية من تمرّد شامل في الأوساط الإيطالية كالذي قد هزّ طرابلس الغرب سنة 1915. بالفعل كان ذلك أمل صفي الدّين، الذي جنّد للهجوم على مصراتة وحدها ما لا يقلّ عن 5000 رجل، فضلاً عن المساعدة الفاعلة للأهالي.

2. كانت قوات المحلات المتلهفة، التي تتحرك على غير هدى في المنطقة الصحراوية الشاسعة في أطراف الحمادة الحمراء، مثار قلق

---

[3] Giuseppe Bottai, *Mussolini costruttore d'impero*, Edizioni Paladino, Mantovà, 1927, pp. 26-27.

[4] Cfr. Emilio Canevari, *La guerra italiana. Retroscena della disfatta*, Tosi, Roma, 1949, p. 302, nota 2.

لحكومة طرابلس. وكان يقودها محمّد فكيني والأخوان أحمد ومهدي السنّي وزعيم الطوارق العجوز سلطان آمود والأخوان مختار وأحمد راسم كعبار. كان فولبي يتابع تحركاتهم ، وخاصة تحركات محمّد فكيني، بترصد كبير، وكان ينقل أخبارها على جناح السرعة إلى الوزير فيدرزوني. في 25 من مايو 1923، مثلا، ذكر فولبي : " أفاد المخبرون أن محمّد فكيني لا يزال في أطراف درج لكنه عاجز عن التحرك".[5] وكتب في 25 من يونيو : "انتقل محمّد فكيني صوب أم العسيم، الواقعة على مسافة مسيرة يوم ونصف اليوم جنوب درج، بصحبة مجموعة صغيرة من رجاله".[6] لكن مع شهر أكتوبر صارت الأخبار مدعاة للقلق، حتى وإن لم تثبت صحتها كلها. "واصل فكيني وسلطان آمود التنقل بجهة دِرج - سيناون بهدف تجنيد المسلحين تحت راية السّنوسية. (...) وكان ابن لفكيني بصدد إعداد قافلة كبيرة، قوامها ما بين 600 و700 بعير، في منطقة تطاوين الواقعة تحت الحماية الفرنسية. (...) يُقدر الضابط فيتالي الذي يقيم بنالوت، بناء على معلومات وردته من مخبريه عدد رجال المحلّة التي شكلها فكيني والأخوان السنّي في القبلة بقرابة ألف نفر".[7]

في 13 من نوفمبر 1923 وصل خبر جديد من فولبي إلى روما : " في الرسائل السابقة جرى لفت النظر إلى الأنشطة التي أطلقتها منذ أشهر في القبلة بعض العناصر السّنوسية الطرابلسية، مثل محمّد فكيني وسلطان آمود الذي يدعمهم ويشجعهم صفي الدين شخصياً[8] (...). حاولت هذه العناصر اليائسة في القبلة ضربنا مرتين بشكل مفاجئ، في مقر الحامية البعيدة في نالوت. (...) التفت فصائلنا على

---

[5] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/29، ص 265.
[6] المكان نفسه.
[7] المرجع نفسه، ص 267، بتاريخ 12 أكتوبر 1923.
[8] في 13 من نوفمبر 1923 كتب صفي الدين من سرت إلى محمّد فكيني " يخبره بأنّ السّنوسيّة مستعدة لتوفير كل الدعم والعون له " أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 124.

المحلّة عند وادي الثلث، وتركت في الميدان مئات الجثث (...) وأجبرت المحّلة أيضا على التشتت والفرار، وقد لاحقتها وحدات خيالتنا حتى تل الواعر".[9]

إثر فشل فكيني في غزو نالوت، واحتلال الرائد فولبيني لغدامس في 16 من فبراير 1924، صارت أوضاع المجاهدين أكثر صعوبة. ابتهج فولبي بالنصر وكتب في 15 من نوفمبر 1924: "سدد احتلال غدامس ضربة قاضية لتنظيم المتمرّدين وبدد قواتهم المتبقية وانتزع منهم كمية هائلة من العتاد الحربي، كما أجبر أغلب دعاة التمرّد على الفرار، هائمين على وجوهم في الجهات النائية بعد أن فقدوا ثقة الأهالي بهم".[10]

يتضح من قراءة التقارير اليومية التي كان فولبي يرسلها إلى روما، أنه طيلة الفترة الممتدة من يناير إلى مايو من سنة 1925، لم يحدث ما يثير القلق أو يعكر صفو " الهدوء المخيم على الساحة ". وإن وقعت بعض المناوشات، فقد كانت بعيدة جداً، في منطقة الشاطي وفزّان، وما كانت لتقلق فولبي مطلقاً. وكتب قائلا: "إن الأخبار التي تصلنا حول مكائد المتمرّدين الرئيسيين المعروفين بالجنوب الغربي، مثل محمّد فكيني المبُعد عن الجبل، عدوّنا الذي لا يرجى صلاحه، وأحمد السنّي، أحد أتباع السّنوسية الكبار في طرابلس الغرب، غير دقيقة على الإطلاق لكنها تلتقي لتؤكد إصرارهما على التحرك. كما تأكد خبر زيارتهما لخليفة الزّاوي بمرزق، بغرض إقناعه بالتكاتف معهما، ومع سيف النصر".[11]

---

[9] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/29، ص 268. في برقية عاجلة أوضح فولبي أن إبراهيم الطارقي زعيم الطوارق شارك أيضا في الهجوم.

[10] المرجع نفسه، الموقف 122/30، ص 271. رسالة سرية إلى الوزير فيديرزوني.

[11] المرجع نفسه، الموقف 122/30, ص 277. برقية 455 بتاريخ 1 أبريل 1925 فولبي إلى الوزير المستعمرات الجديد لانزا دي سكاليا.

لم يكتف فولبي بدفع المتمرّدين المستمر صوب الجنوب حتى أطراف فزّان، نحو المناطق الوعرة التي يتعذر فيها تقريبا الحصول على السلاح أو على وسائل الركوب، بل كان يسعى أيضا إلى إنزال أقسى العقوبات عليهم. وطبقا للقرار رقم 1/211 بتاريخ 28 من فبراير 1924، صادر كافة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة لثلاثة عشر زعيماً من قادة التمرّد، من بين هؤلاء : محمّد فكيني، ومحمّد سوف المحمودي، وعبد النبي بلخير، ومحمّد فرحات، ومسعود فكيني.[12] وقد جازف هذا الأخير بتسليم نفسه للسلطات الإيطالية بدلا عن الالتحاق بأخيه محمّد في صحراء القبلة، فصدر عليه الحكم بالسجن المؤبد في 28 من فبراير 1924 " لأنه حمل السلاح ضد الدولة الإيطالية أثناء الثورة التي تفجّرت في طرابلس بتاريخ 26 يناير سنة 1922".[13]

3. كانت المعلومات التي جمعها الوالي فولبي عن فكيني مضبوطة. إذ مع نهاية 1924، غادر محمّد فكيني ورجاله واحات القبلة ولجؤوا بعيداً في فزّان بحثاً عن مكان آمن. ولم يكن رحيلهم بسبب تضييق القوّات الإيطالية الخناق عليهم فقط، بل بسبب ضغط حلفائهم الليبيين كذلك : مشاشية محمّد بلحاج حسن، وأولاد بوسيف أتباع أحمد قرزه الذين توجهوا في نوفمبر 1924 برفقة غراتسياني إلي طرابلس للإعلان عن خضوعهم للوالي فولبي.

إن خروج محمّد فكيني ورجاله تجاه فزّان يشبه كثيراً خروج النبي موسى. شمل الرحيل مئات المحاربين من الرجبان والزنتان مع

[12] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 125.
[13] أرشيف أنور فكيني، تصوير الوثيقة رقم 555 من المحاكمة، رقم 306. جرت المحاكمة في العزيزية وصدر الحكم عن المحكمة العسكرية الخاصة.

عائلاتهم، تصحبهم آلاف الجمال والخيول. لم يحدد فكيني في مذكراته الطريق التي اتُبعت للوصول لمرزق عاصمة فزّان، لكن قائد الرجبان العجوز سلك على الأرجح الطريق القديمة التي تنطلق من مزدة وتمر عبر القرية الغربية فالحاسي فإدري فالتكرتيحة فالتاسويا. أي ستة عشر يوماً من مشاق السير، عندما كانت رياح القبلي والقبائل المعادية تسمح لهم بالمرور.

لم يكن محمّد فكيني قائد التمرّد الوحيد الذي أُجبر على اللجوء لفزّان. فغالبية القادة الذين نجوا من الأخوين السنّي إلى عبد النبي بلخير، ومن أحمد الصيد إلى الإخوة سيف النصر، ومن محمّد فرحات إلى الصويعي الخيتوني، ممن لم يختاروا اللجوء لمصر أو إلى تونس، نزلوا الواحد تلو الآخر بمرزق مثيرين توتّرات كبيرة. كان خليفة الزّاوي "يحكم" في مرزق منذ 1918، وهو من مواليد الزّاوية وقد حلّ بفزّان أثناء الحرب العالمية الأولى بأمر من الوالي التركي ثاقب بك. بعد انتهاء الحرب، عاد ثاقب بك إلى وطنه وترك مهام القيادة إلى خليفة الزّاوي الذي سلط منذ ذلك الحين أقسى الأحكام على الأهالي وأنزل بهم العقوبات المجحفة. في أكتوبر 1924 أدرك خليفة أين ترجح الكفّة فكتب إلى الوالي فولبي رسالة عبر له فيها عن خضوعه التام. تنتهي الرسالة بهذه العبارات: " أنا على استعداد للتنازل لكم عن كلّ ما بحوزتي، في التوّ واللحظة إن شئتم".[14]

بوصول الآلاف ممن سموا بـ"المهاجرين" إلى مرزق مع قادتهم ذوي الشخصيات القوية، عمت في المدينة وأطرافها فوضى كبيرة، وسرعان ما تفجرت صراعات عنيفة بين رجال خليفة الزاوي وأنصار عبد النبي بلخير وعبد الجليل سيف النصر الطامحين إلى الحلول مكان المكلف السابق في الجيش العثماني بقيادة فزّان. كانت

الفوضى شاملة مما دفع أهالي فزّان إلى إرسال عدة موفدين إلى محمّد فكيني يرجونه أن يعود ويتسلم مهام المتصرف التي كانت قد أسندت إليه سابقاً أثناء حكم الأتراك. لكن فكيني رفض هذا العرض ووعد ببذل كلّ ما في وسعه لإعادة استتباب السلم في المنطقة.[15]

على مدى أشهر لعب فكيني دور الحكَم لتصحيح تلك الأوضاع. في 14 من يوليو 1925 كتب له خليفة الزّاوي يطلب منه العون لصد عبد الجليل سيف النصر الذي سار سيرا حثيثا إلى واحات الجفرة مع أعداد هائلة من المسلحين لشنّ حرب ضدّه.[16] وفي 26 من أغسطس التمس عبد الجليل سيف النصر بدوره العون من فكيني: " نلتمس مساندتكم باسم الأخوة القائمة بيننا وباسم الصداقة القديمة التي تربطنا وباسم ولائنا المشترك لأميرنا أيضا. (...) لقد واجهنا خليفة في طويلة وهزمناه. وهو في الوقت الحالي محاصَر من قِبل قواتنا في مرزق".[17]

رغم انهزامه، لم يذعِن خليفة الزّاوي بيسر، ففي 9 من نوفمبر 1925 كتب مجدداً إلى محمّد فكيني لإيقاف الحرب وحقن الدّماء، واستعداده للتخلي عن منصبه وترك مهمة تسيير اللواء لأيدي سكانه الأصليين، شريطة أن يغادر فزّان أيضا كل من عبد الجليل سيف النصر وعبد النبي بلخير.[18] بين 9 و17 من نوفمبر 1925، سخّر فكيني كلّ ما يملكه من فطنة ومن خبرة الوسيط المجرب الواعي للتوصل إلى اتفاق بين كافة الخصوم [19]. فكتب إلى خليفة الزّاوي: " أقسم بالله، أننا ما أتينا إلى هنا لتولي مسؤولية منصب أو لانتزاع

---

[14] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/30، ص 274.
[15] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 335.
[16] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 128.
[17] المرجع نفسه، الملحق رقم 129.
[18] المرجع نفسه، الملحق رقم 132.
[19] المرجع نفسه، الملحق 133.

سلطة، لكن لصلاح الدولة الإسلامية ووضع حد لمآسي الحرب. لقد قبلت بدور الحكَم مؤقتاً لمد يد العون لكم ولمصالحتكم مع خصومكم ولرص صفوف الوحدة من جديد ضد العدو الدائم، ولإرساء السلام والأمن ".[20]

رغم حكمة فكيني وحماسه لتوثيق عرى الوفاق، لم يدم هذا الأخير سوى بضعة أسابيع. إذ تفجر الصراع فجأة من جديد بين عبد الجليل سيف النصر وخليفة الزّاوي الذي ما كان قادراً على مواجهة عائلة سيف النصر. في رسالة إلى موسوليني، ذكر وزير المستعمرات لانزا دي سكاليا أن عائلة سيف النصر، التي لها مناطق نفوذ وإقطاعات في واحات الجفرة وفزّان، كانت حريصة بشكل كبير على " إعادة تنظيم قوات المتمرّدين ببطء لكن بثبات". كما بين أيضا أن التعزيزات التي يحصل عليها المتمرّدون من الجزائر وتونس تسمح لهم بـ"خوض غمار حملة ثانية بدون انشغالات لوجستية، لثقتهم بتوفر منافذ جاهزة وآمنة للانسحاب في أسوأ الاحتمالات ". وخوفاً من " قرب بؤرة التمرّد من خط احتلالنا "، اختتم لانزا دي سكالا تقريره بهذا المقترح : " لا أرى سبيلا آخر لتلافي كلّ ذلك إلاّ بإتمام مخطط احتلال واحات الجفرة وزلة ومرادة وجالو، وسيادتكم على دراية بهذا المخطط عبر المشروع الذي أُعِدّ بعناية فائقة منذ يونيو الماضي من قِبل حكومة طرابلس الغرب ".[21]

لقي المشروع المذكور دعماً أيضا من والي طرابلس الغرب الجديد، الجنرال أميليو دي بونو، الذي حلّ بالمستعمرة خلفاً لفولبي في 2 من يونيو 1925. لكنه رُفض من قِبل رئيس الأركان بيترو بادوليو الذي أوضح : " نظراً للأوضاع الحالية في طرابلس الغرب،

[20] المرجع نفسه، الملحق 134.

[21] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/31، ص 289 .

أرى من الضروري تجنّب أي عملية جنوب بونجيم والقريات، وتدعيم الاحتلال الذي تحقق حتى الآن ".[22] من جانبه، تريث دي بونو، لكنه في خطابه إلى وزارة المستعمرات، " وبصفة سرية كلياً "، لم يتوان عن انتقاد الحكومة المركزية التي تركت ثمانين يوماً يمر منذ تقديم الدراسة المتعلقة بالعملية المذكورة ".[23]

في هذه الأثناء، كانت الأوضاع في مرزق تتدهور باستمرار. ففي 19 من مارس 1926 كتب خليفة الزّاوي إلى محمّد فكيني رسالة قلقة يدحض فيها تهمة عدم الانضباط والعصيان "وقد فهمنا أنكم مستوحشون ومتشوشون من جهاتنا. وبلغتكم بعض شانعات أننا مخالفون وممانعون، فهذا شيء لا يحدث بفكركم ولا يتصور بعقلكم، وحاشا الله أن نخالف ونكسر ظهور المسلمين، إنما هذه أقوال المفسدين، فكونوا مطمئنين من جهاتنا كما في السابق... ندعو الله أن يؤيد جنود المسلمين بنصره المبين ".[24] كانت تلك بالتأكيد، محاولة يائسة للحصول على الحماية في لحظة شعر فيها بالمحاصرة وتقلصت لديه فرص الأمل. لكن كما يذكر فكيني، " تم فرار خليفة الزاوي إلى جهة الطليان في القريات. وبقي حكم فزّان أكثره في يد عبد الجليل وعبد النبي والزنتان والرجبان والمرابطين والمشاشية. "[25] نعرف بقية مغامرته من تقرير أرسله دي بونو إلى وزير المستعمرات.

بعد إقصاء خليفة الزّاوي واحتلال مرزق وكلّ فزّان، أوكل

---

[22] المرجع نفسه، الموقف 122/31، ص 289 بتاريخ 23 أكتوبر 1925.

[23] المرجع نفسه، الموقف 122/31، ص 282، بتاريخ 23 فبراير 1926.

[24] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم ب B/22.

[25] محمد فكيني, المرجع نفسه, ص 337. من بين الجرائم الأخرى المنسوبة إلى خليفة الزّاوي قتله غيلة، في براك، النائب العثماني السابق محمّد فرحات، الذي ذكره فكيني في يومياته كـ"أحد القادة اللامعين في طرابلس الغرب" (المكان نفسه, ص 333) . يبدو أن خليفة الزّاوي كان يخشى فرحات بي، الذي تربط ابنه صلات بالإيطاليين، أن يحصل منهم على تعيينه متصرفاً على فزّان.

عبدالجليل سيف النصر، الذي كان ينعم بلقب نائب أمير، إلى عبدالنبي بلخير شؤون تسييرَ اللواء. لكن الأخبار المقلقة بالنسبة لحكومة طرابلس لم تنته بعد. عَقَد قادة التمرّد اجتماعاً في الشاطي قرروا أثناءه إعداد ثلاثة معسكرات مسلّحة دائمة، الأول عند وادي الرؤوس، والثاني جنوب القريات ومزدة، والثالث في الحاسي في الشاطي الغربي. يذكر دي بونو أن من " أهداف المعسكرات الحربية كانت مراقبة الخطوط الثلاثة للإمداد إلى فزّان ؛ محاولة توجيه ضربات عن قرب لقواتنا وتكثيف عمليات الإغارة ".[26] بالطبع لم يكن هذا هو الشكل الأمثل للتعبير عن الاحترام لبنيتو موسوليني، الذي نزل في 11 من أبريل 1926 بطرابلس، من البارجة كافور، في زيارة للمستعمَرة دامت خمسة أيّام.

4. في تقرير " سري جداً " من أربع عشرة صفحة في 4 من يونيو 1926، أحاط والي طرابلس الغرب، الجنرال أميليو دي بونو، ، وزيرَ المستعمرات الأمير لانزا دي سكاليا علما، بتطور الأوضاع " في المناطق الداخلية الطرابلسية، خصوصا بعد فرار خليفة الزّاوي من فزّان، وسيطرة الإخوة سيف النصر على الأوضاع، وتحريضهم جماعات الرحّل بالقبلة وسكان الشاطي وفزّان، وتمكنهم من بسط سيادتهم على منطقة فزّان ".

قدر دي بونو قوات المتمرّدين الموجودين في القبلة وفي الشاطي وفزّان وفي غرب منطقة سرت الأقصى بـ6000 بندقية، مما كان يشكل خطراً داهماً على المواقع الإيطالية المتقدمة. ولهذا قرر استئناف التقدم تجاه الجنوب، بعد أن كان قد أجّل عدة مرات لأسباب

[26] المرجع نفسه، الموقف 122/31، ص 282 بتاريخ 17 أبريل 1926.

مالية. مع ذلك أوضحَ " أن الزحف على بونجيم ـ سوكنه ينبغي أن يُفهم كبداية لحملة تهدف أساساً إلى تسوية كافة أوضاع الجنوب الطّرابلسي "، أي الاحتلال الشّامل لفزّان. وأضاف دي بونو: " أطلبُ بصريح العبارة من سيادتكم أن يكون لي شرف ومسؤولية الإدارة العليا للعمليات، وأن تسند القيادة العسكرية الفعلية إلى الجنرال تشيكونيتي ".[27]

لكن الأمر تطلب انقضاء مهلة ستة أشهر وعودة فيدرزوني إلى المستعمرة لدراسة مشروع دي بونو من جديد. في 24 من نوفمبر 1926 أرسلَ فيدرزوني إلى موسوليني رسالة مستفيضة حول الأوضاع في طرابلس الغرب، نقلت بأمانة تقارير دي بونو ومقترحاته. بعد أن استهلها قائلاً إن أفضل فرصة للإجهاز على التمرّد كانت في خريف وشتاء 1924 و1925، أوضح الوزير قائلاً: " على العكس من ذلك، لقد سبب التوقف التام عن القيام بهجمات طيلة ثلاثين شهرا بتوليد أحداث أثّرت سلباً علينا، وبالنتيجة أتاحت الفرصة لجماعات متنوعة ومتفرقة من خصومنا كي تتوحد وتلحق بنا الضرر ". وبناء على هذا فقد اقترح مجدداً المضي قدماً والأخذ برأي دي بونو والذي يقتضي " مساهمة استثنائية من الدّولة بـ50 إلى 60 مليونا ".[28]

ردّ موسوليني على فيدرزوني بشكل إيجابي، موضحاً أنه ينبغي "

---

[27] المرجع نفسه، الموقف 122/31، ص 289 .

[28] ACS, Segreteria particolare del duce. Carte riservate, b. 23, f. 224/R. Riservatissima n. 3349.

كان فيدرزوني مصيبا حين أكد أن مختلف جماعات الخصوم تقوّت وصارت تشكل تهديدا متنوعا. لضرب مثل : وجد حليف إيطاليا، قائمقام غات أبوبكر لقوي، نفسه معزولاً بعد سيطرة المتمرّدين في فزّان. فقد اقترح الوالي دي بونو عدة مرّات "احتلالا كاسحا لغات"، لدعم أبوبكر لقوي، لكن مطالبه قوبلت بالرفض الدائم. هكذا، خلال صيف 1927، احتل حوالي ألف مجاهد غات دون إطلاق طلقة واحدة، ثم لاحقاً قضت على كتيبة من الطوارق، وأسرت واحداً من أبناء أبوبكر لقوي الذي جرح في المعركة.

دراسة العملية بدقة، كي تكون ذات جدوى وكي لا تشكل عبئاً كبيراً على الميزانية ".[29] تطلب الأمر مرور ستة أشهر أخرى لتسليم العشرة ملايين الأولى اللازمة لبدء المشروع. وقد أثر على القرار حادث طارئ : تمرد قائد المشاشية، محمّد بلحاج حسن، الذي كان يُعد منذ سنوات حليفاً أساسياً لغراتسياني لما قدّمه من خدمات جليلة.

في أوائل شهر نوفمبر 1927 التقى دي بونو في روما بوزير المستعمرات فيدرزوني، ووالي برقة أتيليو تروتسي، والجنرال ميزيتي، لوضع اللمسات الأخيرة على خطة العمليات. شمل المخطط ثلاث مراحل : (1) الربط الترابي بين المستعمرَتين الليبيتين على طول خليج سرت وحل مشكلة مغاربة الرعيضات، بقيادة الزعيم السنوسي صالح الاطيوش الذي لم يخضع البتة للإيطاليين ؛ (2) احتلال سلسلة الواحات الواقعة على خط العرض 29 : الجفرة وزلة ومرادة واوجلة وجالو ؛ (3) تمشيط كافة المناطق الواقعة شمال خط العرض 29 ودعم السيطرة السياسية والعسكريّة على المنطقة عبر إنشاء مراكز عسكرية عديدة.

شارك في العمليّات، التي غطّت مساحة ترابية تناهز 150.000 كيلومتر مربع أي ما يقارب نصف مساحة إيطاليا، 20.000 نفر (معظمهم من العساكر الأريتريين والهجانة والسّواري والصبايحية) 7 بطاريات مدفعية و3 أرتال من العربات المصفحة و22 طائرة بين مطاردة وقاذفة و300 شاحنة و5.000 بعير للنقل. منذ الحرب الإيطالية - التركية في سنة 1912، لم تشهد ليبيا مثل هذا الحشد من القوات والآليات. كما تضاعفت قوة نيران الفرق الجديدة مقارنة بزمن الصّراع مع تركيا.

---

[29] المرجع نفسه، رسالة من 26 نوفمبر 1926 .

أما بالنسبة للمتمرّدين الليبيين، فقد استطاعوا إنزال 3.700 بندقية إلى ساحة المعركة في طرابلس و2.600 في برقة، فضلا عن بضعة مدافع وعدد محدود من الرشاشات. ومع ذلك استطاع جزء كبير الفرار من حركة الكماشة التي أعدها غراتسياني وميزيتي وماليتي وبينتور لتطويقهم، والالتجاء إلى الجنوب، بالتحديد إلى واحة واو الكبير النائية. وفي 25 من فبراير 1928 استطاعوا أن يبرهنوا عن قدرتهم الاستثنائية على الصمود في آبار تاقرفت، حيث كاد الإخوة سيف النصر أن يسجلوا انتصاراً ضد فرقة يقودها غراتسياني.[30]

أثناء المعارك، استعمل الطيران الإيطالي بطرابلس الغرب الغازات السامة، من نوع فوسيجين، ذات الآثار المدمرة. " بسبب الآثار الرهيبة للقصف "، كتب الجنرال تشيكونيتي في رسالة إلى الوالي دي بونو " صار يكفي ظهور آلياتنا حتى تتلاشى حشود كبيرة من الرجال وتنأى بعيداً أكثر فأكثر ".[31] في مجلس النوّاب ذكر أميليو دي بونو " أن عدد 2302 مسلح من الأعداء قتلوا في شتى دورات العمليات ".[32] انتقد تشيكونيتي هذا العدد بصفته أقلّ بكثير من العدد الفعلي، لأنه يتعذر إحصاء عدد ضحايا الغازات. فهو يعرف يقينا أن المزج الفظيع لأكسيد الكربون بالكلور كان قاتلاً على الدوام.

بانتهاء العمليات على خطّ العرض 29، انطلقت تهديدات المتمرّدين من جديد في القبلة وفي منطقة سرت وفي الجفرة. بعد مسيرة جريئة في الصحراء، تحوّل زعيم المشاشية، محمّد بلحاج حسن، من الملجأ الآمن في الشاطي وانضم إلى مجموعة واحات

[30] في معركة تاقرفت قتل من الجانب الإيطالي، 5 ضباط و54 جنديا وجرح 6 ضباط و 156 جنديا. ومن جانبهم فقد المجاهدون 247 رجلا على أرض المعركة، علاوة على 56 قتلوا رميا بالرصاص لاحقا. بين القتلى الليبيين كان أيضا محمّد، أحد إخوة سيف النصر.

[31] الأرشيف التاريخي لأركان حرب الجيش الإيطالي, العلبة 156, ورقة 10. تقرير الجنرال تشيكونيتي إلى دي بونو حول العمليات الأولى, ص 6.

[32] « L'Oltremare », n. 7, 1929.

القريات. وفي 11 من يوليو 1928 هاجم الكتيبة الإيطالية الثانية في ليبيا أثناء مرورها بخرمة بوغرّة، على بعد 150 كيلومتراً من طرابلس ودمّرها جزئياً في معركة استمرّت ثلاث عشرة ساعة. كان الحدث جسيماً لدرجة جعلت دي بونو يفرد بعض الصفحات في يومياته : " ثم انسحب العدو بعد أن جرح ستة من ضبّاطنا، وأهلك ستين عسكرياً وجرَح مائة. هذا كثير، بل كثير جداً، نظراً إلى أن عدد المتمرّدين لم يكن يتجاوز 300. لقد أبدى محمّد بلحاج حسن جسارة ومقدرة خارقة. (...) لقد تلقينا صفعة قويّة".[33]

في الوقت الذي كان فيه محمد بلحاج حسن يهاجم خرمة بوغرّة ويدفع ببعض فرق الخيالة إلى جبل غريان لزعزعة الاتصالات بين مزدة وغريان وإيصال خبر وجود المتمردين على مقربة من العاصمة، غادر الإخوة أحمد وعبد الجليل سيف النصر واحة الواو الكبير البعيدة، وبعد مسيرة 600 كيلومتر ليلاً تجنباً للمراقبة الجوية الإيطالية، وصلوا بصحبة 800 مسلح إلى واحات الجفرة. وفي 31 من أكتوبر، اشتبكوا في بئر العافية مع فرقة الجفرة الآلية بقيادة المقدم أماتو. كانت المعركة عنيفة جداً ودامية، واضطر المجاهدون للتراجع والانسحاب إلى واو الكبير، ومات منهم أثناء مسيرتهم الطويلة وبسبب العطش عدد من الرجال يفوق عدد قتلى المعارك. نظّم الإخوة سيف النصر في الجفرة الخاضعة منذ قرون لسلطانهم انتفاضة شعبية حقيقية. ولأجل خنقها، بعد مواجهة بئر العافية، أمر دي بونو بشنق 19 من الأعيان. وكتب في يومياته: "هو عدد كبير فعلا! لكنهم للأسف عبرة ضرورية لمن يعتبر".[34]

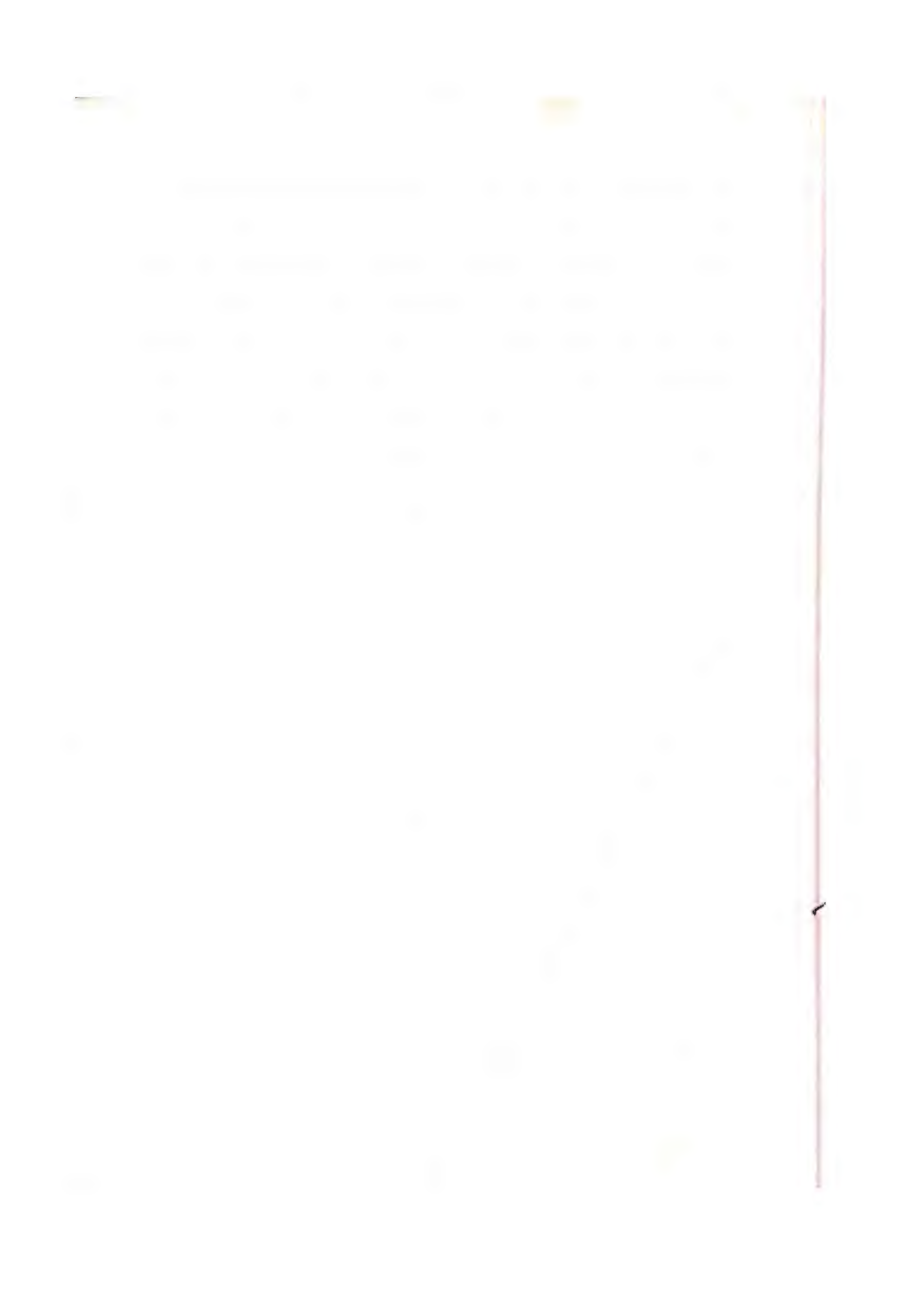
هكذا، أخفق جزئياً الهجوم الأخير الذي خطط له المجاهدون، حتى

---

[33] راجع في الأرشيف الدولة المركزية، يوميات دي بونو، الجزء 13، ص 34-38.

[34] المرجع نفسه، ص 68.

وإن تجاسرت محلّة مؤلفة من 200 رجل من مغاربة الرعيضات، في 21 من أكتوبر 1928، على مهاجمة ميناء مرسى البريقة. برغم بسالة المجاهدين وإحرازهم بعض النّجاحات، لم يوفقوا في تسديد تلك الضّربة الحاسمة للخطوط الإيطالية التي دفعت خلال 1915 إلى " الثّورة العربية الكبرى ". لكن رغم ذلك ما زالوا كثيري العدد ويتوقّدون حماساً، ولو تركوا وشأنهم في فزّان لاستطاعوا كما يخشى بونو، إعادة تنظيم صفوفهم ولكرّروا المغامرة من جديد.



الفصل الثاني عشر

حملة محمّد فكيني الأخيرة

1. لغرض سحق التمرد في ليبيا بشكل نهائي، عيّن موسوليني في 18 من ديسمبر1928 الماريشال بيترو بادوليو والياً على منطقتي طرابلس الغرب وبرقة. ولكي يتيسر له التحرك بشكل أكثر تناسقاً وفاعلية، صرف له على الفور 21 مليون فرنك تغطية لتكاليف إعادة احتلال فزّان ولإخماد أيّة بؤرة للتوتّر.

نزل بادوليو بطرابلس في 24 من يناير 1929، وفي نفس اليوم أصدر بلاغين: أحدهما موجّه إلى الإيطاليين والآخر إلى الليبيين. أعلن في الأول أن " الاحتلال الزراعي والديموغرافي لطرابلس الغرب لم يعد مجرد رغبة مبهمة وحالمة، بل أصبح واقعاً ملموساً، ومن الضرورة بمكان أن يحدث الشيء نفسه بأقرب وقت في برقة (...) فالحكومة ستدعم كافة المبادرات الحيوية والفاعلة وستفي بالوعود اللازمة لهذا الغرض". في حين تميز بلاغه إلى الليبيين بالتهديد والتقريع: " إلى جميع سكان طرابلس الغرب وبرقة، أنتم تعرفون منذ سنوات الحكومة الإيطالية، فهي عادلة وخيّرة مع الذين يذعنون عن طيب خاطر للقوانين والأوامر، وقاسية وعديمة الشفقة مع ذوي النوايا السيئة، ممن يعتقدون في غمرة جنونهم القدرَة على الوقوف في وجه قوة إيطاليا التي لا تقهر ".[1]

عُلّق بلاغ بادوليو إلى الليبيين في كافة الأمكنة وتم توزيعه بشتى

[1] « Rivista delle colonie italiane », n. 3, marzo 1929, p. 296.

الوسائل، على ظهور الجمال أو على متن الطائرات . بلغ خبره محمّد فكيني، الذي كان حينها يعيش مع عائلته وقِسم من قبيلته في قلب مرزق، على مقربة من إدري، الملتقى الصّحراوي البالغ الأهمية. فشعر أن كرامته قد جُرحت بسبب لهجة البلاغ الفظّة التي تنعت حب الوطن بالجنون. في 22 من فبراير 1929 ردّ فكيني على بادوليو برسالة عثر عليها في 21 من أبريل الملازم العقيد غالياني في ساحة معركة أم ملاح. مرّة أخرى دوّن قائد الرجبان تاريخ العلاقات الإيطالية الليبية في السنوات العشر الأخيرة بدقة وأمانة كبيرتين. كتب قائلا: " حلّ الكونت فولبي لاحقا، فباشرنا معه مفاوضات جادة لتحقيق السلام لنا ولبلدنا. وفي الوقت الذي كنّا نجري فيه المفاوضات، هاجمنا الكونت فولبي بقواته، بالتعاون مع الجنرال غراتسياني والبربر، بطريقة غادرة. وعوضًا عن العفو الذي كنّا نرتقبه من الحكومة، هُدِّمت بيوتنا وسفك دمنا ؛ حتى أولئك الذين أذعنوا انتهى بعضهم على حبل المشنقة وآخرون في السّجن، كما صُودِرت كافة ممتلكاتهم".

بعد التنديد بالغدر والعنف الذي اقترفته حكومة طرابلس، واصل محمّد فكيني قائلاً: " إن كانت الحكومة تريد العفو وترغب في إجراء مفاوضات، فعليها أن ترسل لجنة من الإيطاليين الأمناء والأعيان الطرابلسيين النزهاء، وتطلق سراح المسجونين وتردَّ الممتلكات المصادرة، وتسوّي كافة الأضرار التي لحقت بنا، وتسمح لنا بالاحتفاظ بأسلحتنا لبضعة سنوات. (...) أرجو إيصال هذه الرسالة إلى الوالي، وإن قُدِّر له أن يطّلع على سيرتي في السجلات، سيرى أني راعيت القانون دائما (...). فقد عملت باستمرار بشرف وأمانة ".[2] خلال 1929، بعد عشر سنوات من المعاناة والمواجهات

---

[2] ذكر لدى :

والأحزان والخيبات، كان محمّد فكيني لا يزال يأمل أن تتعقل إيطاليا وتستأنف المفاوضات، وأن تسمح بتطبيق القانون الأساسي وأن تعمل على تطويره واستكماله. يبدو أن فكيني فاته أن الوالي الجديد، الماريشال بيترو بادوليو، الذي وجّه إليه الرسالة، كان الأكثر تصلباً وقسوة بين الولاة الذين تداولوا السلطة على ليبيا. وأنه من سيأمر لاحقاً بترحيل 100000 شخص من برقة؛ وسيشيّد ثلاثة عشر معتقلاً رهيباً ستصبح مقبرة لـ40000 ليبي؛ وسيتولى شنق عمر المختار، قائد المقاومة في برقة، في معتقل سلوق.[3]

لم يكن محمّد فكيني يعرف بادوليو، غير أن بلاغ هذا الأخير ما كان ليكسب له الليبيين الذين يكافحون منذ عقدين لنيل حريتهم وكسب حقوقهم التي طالما وُعِدوا بها بلا طائل. وكردّ على هذا البلاغ التعيس، كما يذكّر العقيد أرسينيو بيلاردينالي، " اتفق كبار قادة التمرّد، سيف النصر ومحمّد بلحاج حسن ومحمّد فكيني والأخوان السني، عبر لقاءين بمحروقة وبرقن (فبراير 1929)، على تبنّي خطة عمل لمواجهة الحكومة ".[4] غير أنهم، كما وضّح بيلاردينالي، لا يملكون الوسيلة، فقد أرهقتهم سنون المعاناة، مادياً ومعنويّاً، لكن ذلك لم يفلّ في عزمهم وعنفوانهم، فهم أنفسهم رجال 1911، الذين حاولوا في المرة الأولى دحر الغزاة إلى البحر. لم تكن التصورات

Rodolfo Graziani, *La riconquista del Fezzan*, Mondadori, Milano, 1934, pp. 122-25(.125-122 (رودولفو غراتسياني، إعادة فتح فزان، موندادوري، ميلانو، 1934، ص

[3] بشأن المعتقلات التي أقامها بادوليو في جنوب بنغازي وفي منطقة سرت، بموافقة موسوليني، يمكن الاطلاع على :

Giorgio Rochat, *La repressione della resistenza in Cirenaica*, in Autori Vari, *Omar al-Mukhtàr e la riconquista fascista della Libia*, Marzorati, Milano, 1981; Angelo Del Boca, *Gli italiani in Libia. Dal fascismo a Gheddafi*, cit., pp.174-232; Eric Salerno, *Genocidio in Libia*, Manifesto-Libri, Roma, 2005.

بشأن موضوع معسكرات التعذيب في ليبيا أثناء الفترة الاستعمارية، عقد في طرابلس، من 12 إلى 14 ديسمبر 2006، مؤتمر تحت عنوان : الاستعمار الإيطالي ومعسكرات الإبادة في ليبيا 1929-1943.

[4] Arsenio Belardinelli, *La Ghibla*, Tipografia del R.C.T.C. della Tripolitania, Tripoli, 1935, p. 249.

الخلاقة ولا الأمل بالنجاح تنقص المخطط الذي صاغه قادة التمرّد العرب رغم سوء تقديرهم للتعزيزات الدفاعية الإيطالية التي جُهزت في السنوات الأخيرة، وبالخصوص التّجنيد الواسع للقوات الإضافية الليبية. كانت الخطة تهدف إلى إتمام ثلاث عمليات متزامنة تقريباً : أن تركز محلات محمّد بلحاج حسن ومحمّد فكيني وسالم بن عبد النبي اهتماماتها على القبلة، ثم تنضمّ لاحقا إلى قوات الإخوة سيف النصر في القريات، وهو محور عمليات في غاية الأهمية، سيسهل إحتلاله السّير باتجاه الشمال. في نفس الوقت ينزل صالح الأطيوش من مرتفعات الهروج السوداء ليشن غارات على ساحل المتوسط بين النوفلية وأجدابيا، بشكل يثير الفوضى ويجذب القوات المعادية إلى ذلك القطاع.

إستطاع الطّيران الإيطالي، كما لاحظ بيلاردينالي، رصد تحركات المتمردين، منذ نهاية مارس 1929، عندما عبر محمّد بلحاج حسن ومحمّد فكيني وسالم بن عبد النبي القرية الغربية متوجهين صوْب الجبل " لتسوية ثارات قديمة مع البربر".[5] ففي فجر 9 من أبريل، أغارت قوات المحلات فجأة على نقطة المراقبة المتقدمة ببئر علاق، جنوب جادو، وقضت على الحامية المكونة من خمسين من الخيالة بقيادة الشمباشي عمر بيالة. لكن بعد هذه الانطلاقة المظفرة، اندحر المجاهدون مراراً وبشدّة : بكاف المتكية في 17 من أبريل، وبأم ملاح في زمزم العليا في 22 من أبريل، ووادي الخيل في 9 من مايو، وبآبار الشويرف في 26 من مايو. كما أوقعت الكتيبة السّابعة للسواري في أم الريش هزيمة ثقيلة بصالح الأطيوش، ثم كبّده العقيد تراكيا لاحقا هزيمة في وادي الرتم. وفي الحقيقة كانت هذه الهزائم مؤشراً على نهاية المقاومة. انسحبت بقية المحلات إلى الشاطي الغربي، واختارت بعد أشهر طريق المنفى إلى السودان والجزائر،

بسبب الضغط المتواصل لقوات غراتسياني.

2. خلال هذه الغارة الأخيرة الضارية، تعرّض فكيني عدة مرّات لمخاطر الموت، كما أشاع الإيطاليون خبر مقتله على أعمدة الصّحف مقروناً بمشاعر الابتهاج. ورغم تجاوزه عتبة السبعين من عمره ومعاناته من تراجع بصره، فهو لم يتخلّ عن المشاركة في الغزوات التي ساهم في التخطيط لها. يصحبه ابنه الأمين، الذي لم يكد يتم التاسعة عشرة من عمره، قاد محاربي الرّجبان مئات الكيلومترات، ممتطياً صهوة جواده طيلة عشر ساعات في اليوم. ثم شارك في مواجهات بئر علاق، وتوجه مع محمّد بلحاج حسن، صوب القريات، في زمزم العليا، حيث كان ينوي الالتحام بمحلة الإخوة سيف النصر. لكنهم ما إن كادوا يصلون إلى ام ملاح حتى تعرّضوا إلى قصف كثيف من خمس طائرات، تبعه هجوم نفذته القوات الإيطالية والليبية المتعاونة. استمرّت المعركة طوال اليوم، وكما يذكر محمّد فكيني، قُتِل فيها سبعة عشر فرداً من الرّجبان: " أُصيب أغلب دوابنا ما عدا بضعة إبل، كما فقدنا مؤونتنا من قرب الماء ".[6] تحسباً لقصف جويّ آخر، أمَر محمّد فكيني ومحمّد بلحاج حسن أتباعهما بالانسحاب نحو فزّان. كانت مسيرة مروّعة، فعلى مدى ستة أيام عانى المجاهدون مرارة العطش، كما هلك العديد منهم. بلغوا في النهاية بحيرة صغيرة، تزودوا منها بالمياه. لكن لم تلبث أن هاجمتهم القوات الإيطالية ثانية في منطقة أم المالح. وفي هذه المرة تولى الهجوم فصيل الجبل بقيادة الملازم العقيد غالياني. كانت معارك 12 من أبريل، بين مسالك وادي زمزم العسيرة شرسة، أُبيدَت أثناءها تقريبا أغلب محلات محمّد

---

[5] المرجع نفسه، ص 251.

[6] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 341.

بلحاج حسن ومحمّد فكيني. في الوقت الذي تشتت فيه شمل المجاهدين وشرعوا في الانسحاب جنوبا، مخلفين وراءهم جثثاً مبعثرة على أرض ساحة المعركة، رأى جنود غالياني عربياً واقعاً صريعا إلى جانب حصانه، فحسبوه محمّد فكيني. كتب قائد الرجبان: " ظنّوه محمّد فكيني، فقطعوا رأسه وسلّموه إلى أحد الطيارين الذي طار به فوراً إلى والي طرابلس. عليه لعنة الله! ثم نشروا الخبر على أعمدة الصّحف".[7] وصل محمّد فكيني إلى فزّان سالماً، وببلوغه الخبر الذي روجته صحف طرابلس عن مقتله وابتهاجها بموته، أرسل برقية إلى الملازم العقيد غالياني: " الحاج محمّد حيٌّ يرزق وفي صحة جيدة، ويترقب إن شاء الله النصر عليكم وطرْد الإيطاليين من طرابلس الغرب. إلى جهنّم أيها الشعب السيّء والمخادع! فسينتقم الله القدير منكم على أيدينا ".[8]

3 . بعد اندحار ما تبقى من محلاّت قادة التمرّد، اغتنم بادوليو وغراتسياني حالة النصر وتشتت أهالي القبلة الرحّل لتوسيع عملية نزع السلاح، فصودِرَت 1450 بندقية. بينما في الوقت ذاته، كانا يخططان لاجتياح فزّان ويحاولان الاستيلاء على المنطقة تحت غطاء عرضهما العفو واقتراحهما افتتاح محادثات تمهيدية مع زعماء الثوار. فعلاً، في 29 من نوفمبر 1929 بلغت محمّد فكيني رسالة موقعة من العقيد موراماركو، قائد الجهة الجنوبية لنالوت، يدعوه فيها للمشاركة في أعمال لجنة السلام في طرابلس. كانت الدعوة ملتبسة وغامضة، مع ذلك قرر فكيني التعامل بثقة مع النوايا الحسنة للعقيد موراماركو وتكليف ابنه علي نور الدّين بالمهمّة، فهو يحوز منذ

---

[7] المرجع نفسه، ص 341.
[8] المرجع نفسه، ص 342.

سنوات على ثقته ودعمه. وبفضل مذكرات علي نور الدين، تيسر لنا التعرف على تصرفات السلطات الإيطالية المخاتلة. ترك علي نور الدين الضمران، الواقعة غرب إدري، حيث كانت تقيم عائلته وقسم من قبيلة الرجبان، برفقة اثنين من الأعيان، قنبي عبد الرحمن قرينات وأحمد الرحيبي. جاءت روايته كالتالي : "في 3 من ديسمبر 1929 انطلقت في الطريق الموصل إلى القريات، مروراً بقرية تمتام وحسي حيران. وحين وصلنا عوينات ونين وجدنا في انتظارنا سيارات إيطالية لنقلنا إلى الحماده. في المساء بلغنا الطابونيه حيث استقبلنا الرئيس علي الحبّوب، وبرفقته وصلنا إلى القريات الشرقية بتاريخ 17 ديسمبر. وفي اليوم التالي التقينا المسؤول الإيطالي الكولونيل إيغو جينيريلي قائد المناطق الوسطى، ثم عدنا بواسطة سيارة إلى عوينات ونّين. وبعدها سرنا في طريق الرملة، وبعدما تجاوزنا سبها التحقنا بالعرب المنسحبين من فزّان والمتوجهين للجوء إلى الجزائر (...). وبالجملة، فقد أمضينا أربعة وأربعين يوماً سائرين في هذا الطريق الصحراوي الوعر، بسبب الإنهاك الذي حلَّ بحصاني وبالجمل الذي يحمل مؤونتنا. لقد كان الوقت شتاء وبارداً جداً، وكان الخوف يخيم على هذه المناطق الصحراوية، حيث كان العدو يقصدها قادماً من غدامس و درج... ولهذا كله كنّا نتقدم ببطء ونقاسي أشدّ أنواع المعاناة والألم ".[9]

لا يشير علي نور الدّين في ملاحظاته إلى نتائج لقائه بالعقيد جيلياريلي، لكنه يشرح أسباب خروجه عن خط السير المتفق عليه مع العقيد مورامازكو - الرملة فدرج فنالوت ثم طرابلس - لمقابلة الوالي الجنرال بادوليو، الذي كان ينبغي أن يتحدث معه عن عقد الهدنة والسلام. ببلوغ حسي تيسان وعلمه أن القوات الإيطالية بقيادة

[9] أرشيف أنور فكيني، الفزان. دوّن علي نور الدّين فكيني الملاحظات خلال 1930، مباشرة بعد اجتياز الحدود باتجاه الجزائر.

غراتسياني بصدد التوجه نحو فزّان، بعد احتلالها براك ، أجبر علي نور الدّين ورفاقه على تغيير خط سيرهم ومقابلة العقيد جينيريلي، بدلاً عن بادوليو. حقا إنه لشيء غريب يثير الدّهشة والسخط والريبة، أن يستدعي بادوليو وغراتسياني قادةً ليبيين إلى طرابلس لمباشرة مفاوضات السلام، في الوقت الذي كانا يشنّان فيه عُدواناً تمهيدياً لاجتياح فزّان. ومما يثير الدهشة أيضا عدم إقدام العقيد جينيريلي على احتجاز الشاب فكيني رهينة، وقد انطلقت شرارة النزاعات. لكن امتناعه عن الإقدام على هذا الفعل يجد تفسيره ربما في جواز المرور الذي أعطاه العقيد جينيريلي إلى علي نور الدّين، فقد جاء حرفيّا في نصّه : " يرخّص قائد منطقة طرابلس الجنوبية إلى ابن البلد علي الفكيني أو إلى وكيله الالتحاق بعوينات ونين والرملة الغربية، كي يتمكن من استعادة رجاله المسلحين الذين يجب أن يستسلموا في الشمال بحمل سلاحين : حرر في بئر الكور بتاريخ 18 ديسمبر 1929 . بتوقيع العقيد المكلف أوغو جينيريلي ".[10]

يتّضح أنّ الشّاب فكيني وعد جينيريلي باستسلام رجاله، ولكنه عندما عاد بالسيارة إلى عوينات ونين، امتطى صهوة جواده وانطلق للالتحاق برفاقه المتجهين صوب الحدود الجزائرية.

لنعد قليلاً إلى الخلف، ففي شهر نوفمبر سنة 1929 أتمّ بادوليو وغراتسياني تحضيرات إحتلال فزّان، الهادف إلى تنسيق العمل ضمن فيلق موحد يضم كافة القوات والمعدّات المتناسبة مع محور (الشويرف - براك - سبها - مرزق)، متّبعا المسار الذي سلكه العقيد أنطونيو مياني سنة 1913. يتكون الفيلق من 4000 رجل،[11] يمتطون الدواب أو يركبون العربات، بحماية غطاء جوي، من مهامه اختراق

---

[10] النصّ الأصلي للوثيقة مدوّن باللغة الإيطالية، على ورقة عادية تحمل ختماً - الأرشيف.

[11] بالغ المجاهدون في تقدير مجموع قوات غراتسياني. في مذكراته، أوصلها فكيني إلى 50000 رجل.محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 345 .

تشكيلات المتمرّدين التي اتضح انحدارها باتجاه الشرق والغرب. فقد تمركز أولاد سليمان في منطقة واو الكبير بقيادة الإخوة سيف النصر. وأمّا المتمرّدون من قبيلة الرّجبان والزّنتان والمشاشية وأولاد بوسيف وورفلة، الذين انتشروا في أطراف أوباري، فقد كانوا – بالتتابع - تحت قيادة محمّد فكيني ومحمّد بلحاج حسن وحامد بن حسن بن علي وعبد النبي بلخير. كان عددهم يبلغ 1500 محارب تقريبا، وهو تجمّع هائل، لكنه يبدو مشتتاً ومنهكاً بعد الهزائم الأخيرة التي لحقت به .

في 6 من ديسمبر احتُلت براك دون قتال، وفي 14 سقطت سبها. عند تلك النقطة من التقدم، كان غراتسياني الذي تولى القيادة العامة للعمليات ينوي المتابعة باتجاه مرزق، غير أنه بدّل هدفه فجأة وقرر الانحراف تجاه اليسار لمهاجمة الإخوة سيف النصر في معقلهم بواو الكبير. لكن هؤلاء تجنبوا المواجهة وفضلوا الانعطاف يساراً والانسحاب إلى واحة الكُفرة النائية التي لم يتسن احتلالها إلا في 20 من يناير 1931. بعد إخماده التهديدات في الشرق، تابع غراتسياني سيره واحتل مرزق في 21 من يناير 1930 وأوباري بعد أربعة أيام. لدى وصوله، وبفضل استطلاعات الطيران، علِم أنّ المتمرّدين بعد نزولهم بقرى السوس وتاكيومت، شرعوا بالتراجع، مقتربين أكثر فأكثر من الحدود الجزائرية.

على غير توقع، انتهى الهجوم بقليل من المواجهات، إلا أن هذا الأمر لم يُرض غراتسياني، فهو لم يكن ليقنع بهزيمة خصمه وحسب -ا لذي سبّب مضايقات شتّى خلال السنوات العشر الأخيرة - بل كان يرغب بسحقه واستئصاله كلية. فقرر على الفور تعقب المتمرّدين وضربهم قبل اجتيازهم الحدود الجزائرية، لكن المطاردة باءت

بالإخفاق مما أثار ثائرة غراتسياني لتعذر الحسم في معركة فاصلة،[12] فأمر قائد الطيران الإيطالي في ليبيا، الجنرال فيروتشو رانزا، بإلقاء كافة أنواع القنابل المتوفرة من طائرات كابروني وروميو على المحلات المنسحبة. وعلى مدى ثلاثة أيام، من 14 حتى 17 من فبراير، تناوبت الطائرات على قصف وإطلاق النار على خط الحدود، مستهدفة، كما ذكر شاهد عيان، الصحفي ساندرو ساندري، " القطيع البشري الذي يتكون من المسلحين، فضلاً عن حشد من النساء والأطفال وكثير من المواشي ".[13]في مذكراته يقول محمّد فكيني: " وأرسل الطليان طائراتهم لملاحقة المجاهدين المتقهقرين نحو الحدود الجزائرية الفرنسية في جهات جانت وتارات وليزي، وصارت تقذف القنابل بدون توقف، ورمت على منازل عائلة السّني قرب الديسة بأوباري عدة قنابل، وتواصل زحف الطليان فاحتلوا أوباري، ونقلوا عائلة السّني بالسيارات إلى بلدهم وزاويتهم في مزده ونالوا العناء الشديد والإهانة من المستعمرين ".[14] قُدر عدد المنسحبين بـ 25000 ولكنهم كانوا في الحقيقة أقل من ذلك بكثير، فقد تراوح عدد المجاهدين بين 5000 و6000، إضافة إلى أفراد عائلاتهم. أما الماشية التي كانت ثروتهم الوحيدة الباقية، فكانت تتألف من ستة آلاف من الإبل، وعدة مئات من الخيول والابقار.

---

[12] اندلعت المواجهات الوحيدة التي خاضها، وهي ليست ذات شأن يذكر، في 31 يناير، على بعد أربعين كيلومترًا من أوباري تقريبا. وفي العاشر من فبراير بتاكيومت، على بعد خمسين كيلومترًا من الحدود الجزائرية. المعركة الأخيرة، أرادها محمّد فكيني حتى يسهّل دخول أتباعه إلى الجزائر، وقد شارك في المعركة مئة من خيرة الرّجبان وأشجعهم، وتولى مهام القيادة الأمين فكيني.

[13] Sandro Sandri, Le ultime marce all'inseguimento dei ribelli, «Il Regime fascista», 8 marzo 1930.

شارك ساندرو في حملة فزّان، حيث كتب اثني عشر مقالة. في مقالة بتاريخ 12 مارس 1930 وبعنوان: "الصحراء أنتهكت" كتب عن محمّد فكيني قائلا: "هكذا أنتهكت الصّحراء، وسقطت أسطورة العجوز محمّد فكيني زعيم الزنتان والرجبان الذي يقف كالشبح المروّع أمام الجنرال غراتسياني منذ سنة 1922، فقد كتب له متحدّيا في القتال: "إن كتب الله لنا النصر فذاك مرادنا؛ وإن فزتم أنتم، فسنلجأ جميعا إلى الصحراء". وصل الردّ من العجوز فكيني، وهو لاجئ في الجزائر، فقد تعلم أن الصحراء هي دائما ملجأه الأمن".

[14] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 342.

اجتاز عبد النبي بلخير، مع أتباعه ورجاله من ورفلة، الحدود الليبية الجزائرية في 12 من فبراير، وخضع للسلطات الفرنسية التابعة لحصن شارلي في واحة جانت. بينما عبر الحشد الكبير من المتمرّدين الحدود من جهة الشمال واستسلم للحامية الفرنسية بحصن تارات. من بين هؤلاء نجد عدداً من الشخصيات الأكثر شهرة بين الثوار: محمّد فكيني وأبناؤه، وقائد المشاشية محمّد بلحاج حسن، وزعيم أولاد بوسيف حامد بن حسن بن علي.[15] بالنسبة للبعض، كان اجتياز الحدود نحو الجزائر يُعتبر نهاية سنوات الحرمان والجزع، فقد كانوا دائما على قاب قوسين من المشنقة. في حين، بالنسبة لآخرين، كعبد النبي بلخير، سيِّد ورفلة القوي، فقد مثل خطوة باتجاه نهاية مأساوية إذ تاه مع خمسين من صحبه المحاهدين عن طريقهم أثناء سيرهم جهة وارقلة في العرق الشرقي الكبير، ويُرجح أنهم قضوا عطشاً بصحبة خمسين من المجاهدين، ولم يُعثر أبداً على أي أثر لجثثهم في تلك الصحراء الجزائرية.

4. مرّت عشر سنوات طويلة بين يوم موت ابن محمد فكيني البكر حسن - أثناء الصراع مع خليفة بن عسكر، الذي كان بداية قطيعته مع حكومة طرابلس وانقطاع أي أمل له بوضع القانون الأساسي موضع تنفيذ - وشهر فبراير 1930، عندما غادر ليبيا تحت وابل من القنابل، مجتازاً الحدود الجزائرية بصحبة رجاله. سنوات طويلة انقضت في أكثر صحارى العالم قحطاً وجدْبًا، فليس هناك موضع من تلك

[15] لم يكن بين الفارين الأخوان مهدي وأحمد السني، فرغم وجودهما منذ1922 بين قادة التمرّد، فقد أعربا في 28 فبراير 1930 عن خضوعهما في اوباري، تحت خيمة غراتسياني، الذي روى الحدث كالتالي : "جرى نقل الأخوين السني إلى مزدة لاحقا، حيث يعيشان الآن بعد أن جُردا من أيّ تأثير وأيّ سلطة سياسية أو دينية بين الأهالي.(رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 170.)
يضيف فكيني في مذكراته : "ألقى الإيطاليون على بيت عائلة السني، في الدية قرب أوباري، عدّة قنابل. وحين احتلوا أوباري نقلوا عائلة الأخوين السني إلى مزدة، حيث أهينت وعوملت بعنف من قبل المستعمرين الإيطاليين". محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 343.

الصّحراء، من مزدة إلى غات، ومن غدامس إلى وادي زمزم، لم يتوقف فيه فكيني، ولم ينصب فيه الخيام، ولم يسجد فيه لربّه، ولم يحفر فيه قبراً لدفن عزيز من أهله الأوفياء من الرّجبان. نكاد لا نجد أثراً في مذكرات فكيني عن هذا المسير الذي لا ينتهي وهذه الرحلة المضنية التي استمرت عقداً من الزمان، فهو لم يتوقف عند مآسيه الشخصية، بل يتحدث باستمرار عن الرجال الشجعان أو الأذلاء، وعن القبائل المخلصة أو الخائنة، وعن المعارك المظفرة أو الخاسرة، وعن المواقف البطولية أو الجبانة. كما يتحدث خاصة عن العدو الإيطالي الغازي الذي قدم من وراء البحر بأسلحته الفتّاكة وبمدرعاته التي تدكّ القرى بمدافعها المدمّرة، وبطائراته التي ترصد الأجواء وترمي قنابل الغاز القاتل. ولا ننسى حديثه عن السلاح الأشدّ فتكاً، سلاح الإغراء والإفساد، الذي جرّ بلداً بأسره نحو الخراب.

من الطّبيعي ألاّ يتوقف محمّد فكيني طويلاً لوصف المحطات في الصحراء لأنّ الرّجبان كانوا شِبْه رحّل، اعتادوا على قطع المسافات الطويلة والحساب الدقيق للمسافة بين بئر وآخرى، كما اعتادوا تقصي الأثر ومتابعة أدق الثنايا حتى وإن هبّت ريح القبلي التي لا تخلف أيّ أثر. ولا مكان كذلك في هذه المذكرات للعواطف، باستثناء ما تعلق بالإقدام وعلوّ الهمة واحتقار من يخون أو من لا يفي بوعده. وسجل كذلك بشكلٍ عابر التحسّر على فقدانه أبناءه، كما لو كان في ذلك بعض الضعف الذي لا ينبغي التوقف عنده. فذكر مقتل حسن مرّتين، وأمّا مقتل الحسين فمرّة واحدة وبطريقة عابرة. لكنّنا نعلم من الأقرباء أنّ محمّد فكيني فقد أبناءً وأحفاداً آخرين أثناء رحلة السير الشاقة في الصحراء، لم يُقتَلوا أثناء المعارك، مثل الشابين المذكورَيْن، بل قضوا بسبب الجوع والملاريا، مثل عائشة ووفاية.[16] وكذلك زوجته

---

[16] توفيت عائشة سنة 1927 في أوباري، في سنّ الثالثة والثلاثين، بسبب الملاريا. فقد خصّ علي نور الدين عائشة بإحدى أروع قصائده بعنوان (الرباب). أمّا وفاية فقد ولدت في أوباري سنة 1928 ووافتها المنية بقابس

الثانية، عائشة نوير،[17] التي رافقته قرابة نصف القرن، فلم يخصّها ولو بكلمة ولم يبذل جهداً لذكر أي مشهد يصوّر علاقتهما الطويلة أو يلمّح إليها. كما لم يتحدث محمّد فكيني عن الأولاد الذين ولدوا في الصحراء وما أدخلوه بالتأكيد من بهجة على عائلته، كمحيي الدين مثلاً، الذي ولد سنة 1925 في ونزريك بفزّان، الذي سيصير لاحقاً رئيس وزراء للملك إدريس، وكذلك وفاية ومريم.

من خلال المذكرات، يظهر فكيني على الدوام بصورة رجل يوازن بين العقل والفعل، فهو يتقن فن الجدل كما يتقن استعمال السلاح. اعترف العرب والإيطاليون بمواهبه الخارقة في الإدارة والوساطة. لكنهم كانوا يخشون بطشه وعناده حين يلحقه أذى أو حين تُخدش كرامته، أو يُنتهك حقه أو مفهومه السليم للعدل والإنصاف. كتب غراتسياني أنّ العجوز فكيني ذبح بيديه ثلاثين من أتباع المذهب الإباضي.[18] وهذا غير صحيح على الإطلاق ولا يزيد الأمر عن كونه أسطورة مروّعة روّجها غراتسياني، رغم أن بعض صفحات مذكراته تطفح بحقد شديد. فهو بالواقع القائد العربي الوحيد الذي نعتته الوثائق الرّسمية الإيطالية بعبارات " العنيد " و" العدو الأزلي ". فهو فعلاً القائد الوحيد الذي رفض المساومة والتسويات المهادنة.

حين اجتاز محمّد فكيني الحدود الليبية الجزائرية، كان قد خسر المنازلة بالتأكيد، كان قد بلغ عتبة الثانية والسّبعين، فضلاً عن كونه فاقد البصر تقريباً. مع ذلك لم يركن للهزيمة ولم يفقد الأمل في الثأر، مدركاً أن بلدَه في حاجة ماسة إليه. فحين بلغ بعد عام من السير في

بعد خمس سنوات بسبب إصابتها بالتهابات. ومن الأبناء الستة لعلي نور الدين الذين رُزق بهم من الزواج الأول مع عزيزة، توفي خمسة في سنّ مبكرة. ومن زواج ثان مع منوبية بن حميدة، رُزق بأربعة أبناء آخرين، من بينهم أنور فكيني، وهو واحد من أشهر المحامين الدوليين.

[17] في قرانه الأول تزوج محمّد فكيني من فاطمة، وهي من أصل تركي، وقد أنجبت له حسن وعائشة. ومن عائشة نوير رُزق بستة أبناء: حسين وعلي نور الدين والامين ومحيي الدين ووفاية، ومريم التي لا تزال على قيد الحياة.

[18] رودولفو غراتسياني، سلام روماني في ليبيا، ص 39.

الصحراء الجزائرية قرية دقاش في الجريد التونسي، أملى الصّفحة الأخيرة من مذكراته على كتبته : " بعد هذه المرحلة الأخيرة من سنة 1921 إلى سنة 1930 من الحهاد الوطني الخالص المجرد من التبعية الأجنبية والمدد الخارجي إذ هو نابع من الجهود الخاصة للشعب بمفرده وبجهوده وعزيمته الرامية لنيل الاستقلال التام وبروز دولة حرة موحدة، وبعد انتهاء هذا الدور المسلح سندخل في الطور الذي جرى في المهجر في تونس والجزائر والشرق وما عمله المهاجرون المجاهدون في المجال السياسي قصد العودة إلى النضال لتحرير وطنهم وتحقيق استقلالهم الذي يسجل، فهذه المرحلة يجب أن تكتب تفاصيلها مدعمة بالحجج والوثائق من الغرب والشرق، والسلام في البداية والختام".[19] حتى وفاته سنة 1950، لم يول محمّد فكيني اهتماماً سوى لأمرين أساسيين : دعْم قضيّة استقلال ليبيا بكافة أشكال النضال، وتوفير أحسن مستلزمات التّربية لأبنائه.

[19] محمد فكيني، المرجع نفسه، ص 347.

الفصل الثالث عشر

درب المنفى الطويل

1. إن كان العبور القسري للحدود الليبية الجزائرية، من جهة، يضع حدّاً لسنوات الكفاح المسلح والجوع واليأس، فهو من جهة أخرى، يدشن بداية مرحلة طويلة من المتاعب المضنية والإهانات والمضايقات، ومن المسير في صحارى جديدة، يترصد فيها الهلاك بسبب العطش والجوع والعناء. ولإعطاء فكرة عن مشقة التنقلات في الأراضي الجزائرية والتونسية، تكفي الإشارة إلى أنّ عائلة فكيني اختتمت ملحمتها مع نهاية 1932، أي بعد قرابة ثلاث سنوات من عبور الحدود الجزائرية. ففي ما يتعلق بسنوات المنفى، نعتمد بشكل أساسي على ما دوّنه ابنه علي نور الدّين وعلى أعماله الشعرية. وكان الشاب، الذي سيُعيَّن لاحقاً سفيراً لليبيا في تونس في عهد الملك إدريس قريباً جداً من أبيه، وقد ورث عنه نباهة وصرامة وحبّاً صادقاً للوطن. لا يعود له الفضل فحسب في الحفاظ على المذكرات الهامة للأب، بل عمل على استكمالها بشكل ما عبر كتاباته الشخصية. فهو يصف مثلاً انطلاق الرحيل الكبير بهذه العبارات :

"عبر قسم من المهاجرين حدود السودان الجنوبية المعروفة الآن باسم النيجر وتشاد. وأمّا القسم الأكبر من المجاهدين فقد عبروا الحدود الصحراوية الغربية من مركز تارات وجانت في الجزائر. وكنّا نحن ضمن الذين عبروا الحدود الغربية الجزائرية من جهة وادي تارات التابع لمركز أزقر العسكري وحصنه جانت. وسكان هذه المنطقة من

قبائل الطوارق (متغاتن وأوراغن وفرغاس ومغاطه). ولهذه القبائل زعماء تقليديون يسمونهم سلاطين، وسمّاهم الفرنسيون فيما بعد قياداً. وكان زعيم منطقة أزقر يوم دخولنا إليها القائد ابراهيم بكدّا وهو من قبيلة أوراغن أحرار الطوارق، ويوم عبورنا الحدود كانت نقطة الحراسة في تارات قوة من حرس الحدود مؤلفة من الجنود الجزائريين والطوارق بقيادة ضابط فرنسي، وبعد التفاهم تمّ تسليم الأسلحة، وسمح لأفواج المهاجرين بالدخول عبر الحدود إلى مركز ليزي بولونياك الذي يقيم فيه القائد ابراهيم بكدّا، ويوم الوصول إلى المركز، وكان يصادف عيد الفطر في شوّال سنة 1348 ه، قال أحدهم متسائلاً : " علاش خرجتوا...؟ " فكان الجواب ما تضمنته قصيدتي بعنوان : (الضيّم لا يطاق)، ومطلعها:

الضيّم أخرجني يا قوم من وطني لولا التسلّط حبُّ الوكر لم يَهن[1]

عد أسابيع من الراحة، ترك الحشد الكبير من اللاجئين مقسماً إلى مجموعات ليزي، وبعد اثنتي عشرة مرحلة بلغ وادي تاهيهاوت، ثم الحجاج، وفي النهاية أمقيد في شمال الهقار. وهنا استقبله القائد كربي، رئيس الناحية بجنوب الجزائر، الذي رغم نواياه الطيبة، لم يكن قادراً على توفير العون الكافي لألوف البشر المحتاجين لكلّ شيء في مناطق صحراوية تفتقر إلى المياه. رأى محمّد فكيني نفسه مجبراً على إرسال برقية إلى الوالي الفرنسي في مدينة الجزائر، للتشكي من نقص المعونات اللازمة. كان تدخّله مفيداً لإنقاذ حياة الناس، إذ أصدر الوالي أمراً إلى القائد كربي يدعوه فيه إلى بذل قصارى جهده لمدّ يد العون إلى اللاجئين عبر توزيعهم بصورة

[1] علي نور الدين فكيني، من ذكريات الجهاد والهجرة (ديوان شعر في مخطوطة معدّة للطبع قريبا).

مؤقتة على مختلف الواحات.[2]

بعد وقت قليل استأنفت جموع اللاجئين المسير، حتى بلغت على مراحل زاوية سيدي موسى، بالقرب من برج عمر إدريس. هنا طال التوقف حيث دام عدّة أشهر، استعداداً للوثبة المطوّلة وراء العرق الشرقي، تلك الصحراء الممتدّة على بعض مئات الكيلومترات والخالية من أيّ قرية والتي ليس فيها سوى بعض الآبار القليلة (القاسي وبلحيران). لذلك كان لزاماً الاستعانة بأدلاّء من الطوارق، فهم وحدهم القادرون على ضمان نجاة الليبيين. علاوة على ذلك استوجب الأمر التزوّد بالتمور التي يسهل حفظها والتي تشكل الغذاء الأساسي للرحّل، وملء ما أمكن من قِرب المياه، التي كانت على الدوام غير كافية لاجتياز المسافات الطويلة في الصّحراء.

لا نعرف على وجه التحديد كم يوماً يتطلب عبور بحر رمال العرق الشرقي الكبير، إلا إننا نعلم، من خلال أقوال ثلاثة شهود،[3] أن الرّحلة كانت جهنّمية وأن عشرات الأفراد لقوا حتفهم مثل عبد النبي بلخير والخمسين فارساً من رفاقه. بعد ترك زاوية سيدي موسى، توجّهت القافلة الضخمة على مراحل تجاه حاسي مسعود وورقلة. لاجتياز هذه الجهة الخالية كلّياً من المياه، دامت الرحلة سبعة أيّام، كان السير أثناءها ليلاً نهاراً، وكانت هذه المرحلة أسوأ فترة أثناء العبور. قطعها المسنّون والمرضى على ظهور الإبل، والآخرون سيراً على الأقدام، بيد أنّ العديد خرّوا أرضاً، في الرمق الأخير من الحياة. وقد بذلت عائشة، زوجة محمّد فكيني قصارى جهدها لمساعدة من أنهكهم السفر. ففي لحظات شُغل فيها كلّ واحد للنجاة بنفسه،

---

[2] طلبت السّلطات الإيطالية من نظيرتها الفرنسية إيواء المجاهدين على بعد 300 كيلومتر من الحدود الليبية على الأقلّ، لتجنب أيّ إغارة مسلحة في المستقبل.

[3] لا يزال الثّلاثة الذين أدلوا بشهاداتهم يتذكرون العبور الرهيب للصحارى الجزائرية على قيد الحياة، وهم: مريم فكيني، ابنة محمّد فكيني، التي كانت سنها حينها 13 سنة؛ الأخوان سالم وعلي النقاصة، من قبيلة الزنتان، وهما تقريبا في نفس سنّ مريم.

لعبت دوراً إنسانياً كبيراً، فقد شهد الجميع بما بذلته من تضحيات.

سار المنفيون في الصحراء مُقسمين إلى قبائل. تتقدّمهم الرجبان والزنتان، ويتبعهم أهالي ورفلة وأولاد بوسيف والمشاشية وأولاد سليمان والمقارحة والقذاذفة. في النهاية بلغوا آبار القاسي وبلحيران، حيث تتوفّر المياه بما يكفي الجميع، البشر والحيوان. وكان المسير أكثر سهولة بعد ذلك، حيث بلغوا مدناً مثل حاسي مسعود وورقلة، التي تحوي مليون نخلة. توقف المجاهدون في ورقلة بضعة أشهر، بسبب تفاقم أعداد المرضى، الذي أعاق استئناف السير، وبسبب ترقّب تصريح سيصدر من السلطات الفرنسية يحدد فيه وجهة السفر القادمة للاجئين. ولأجل أخذ الموافقة من السلطات، توجب على محمّد فكيني أن يتقدّم الجميع إلى ورقلة.

قدرت حكومة الجزائر الفرنسية أنه يمكن لليبيين إيجاد إقامة جيدة، وربما يتوفر العمل لبعضهم في الجنوب التونسي. استؤنف المسير من جديد مع بداية 1931، على مراحل : حاسي مسعود والطيبات ووادي سوف. دخل المنفيون تونس عند مدينة نفطة، المركز الديني الثاني في تونس بعد القيروان، حيث لاقوا ترحيباً من الأهالي ومن شيخ المنطقة، الخليفة سيد الأمين. وكما يذكر علي نور الدين فكيني في مذكراته: " ثم ذهبنا إلى مدينة توزر (عاصمة الجريد). تقع واحات الجريد في الجنوب الغربي من تونس، وهي واحات واسعة وجميلة، ومن أهم مدن الجريد عاصمتها مدينة (توزر). وفيها مدن أخرى مثل (نفطة ودقاش والحامة). وفيها بساتين مزدهرة وأنهار جارية، وتقع على الحدود الجزائرية الجنوبية ويحدها (وادي سوف).

وحلَّ أوائل المهاجرين في مدينة (نفطة) فتلقاهم أهلها بالبشر

والترحاب. وبعد أشهر انتقلت عائلتنا إلى (دقاش)،[4] ومنها إلى السقي وشط الفجاج... وفي أواخر 1932 قرّر والدي أخيراً الاستقرار في مدينة (قابس) واتخاذها مقراً ودار هجرة لقربها من طرابلس".[5]

وفي الحقيقة كان يرغب في مجاورة الصحابي الجليل (سيدي أبي لبابة الأنصاري) المدفون في قابس حيث استشهد فيها أثناء الفتح الإسلامي سنة 40 هـ.

2. منذ أن وطئت أقدام حشود اللاجئين أرض تونس، كلّف محمّد فكيني ابنه على نور الدّين برعاية شؤون المنفيين، في حين تكفّل من جانبه بالاتصال مع السلطات التونسية والفرنسية. كما يذكر علي نور الدّين : " وفي هذه الأثناء ذهب الوالد إلى العاصمة تونس لمقابلة صديقه القديم الطاهر خير الدين باشا وزير العدل نجل السياسي العظيم والمصلح الكبير خير الدين باشا، وقابل في تونس الباي أحمد والوزير الأول والمقيم العام، واحتفى به الزعماء الدستوريون في تونس والقيروان وصفاقس وقابس، وبعد العودة إلينا في الجريد عزم على الرحيل إلى مدينة قابس ليتخذ منها مقراً ودار هجرة لقربها من طرابلس".[6] تلقى تقديراً كبيراً من دمشق بسوريا. ففي أوّل نوفمبر 1930، كتب له بشير السعداوي السّياسي الذي ينعت بـ"مازيني ليبيا"، باسم اللجنة التّنفيذية لرابطة المهاجرين من طرابلس الغرب وبرقة، يهنئه بوصوله إلى تونس " سالماً ومعافى " وقائلاً: "أحمد الله

---

[4] في هذه البلدة، كما يذكر محمّد فكيني، أملى على كتبته الجزء الثاني من مذكراته، خلال صيف 1931.

[5] علي نور الدين فكيني، المرجع نفسه، ص 124.

تم اختيار قابس بسبب وجود ضريح سيدي أبي لبابة الأنصاري، في مقبرة صغيرة قرب الجامع. والرجل أحد صحابة النبي محمّد (ص)، قتل بقابس سنة 661م أثناء الفتوحات الإسلامية. بعد موت فكيني، رغب أهالي قابس، الذين يعرفون إجلاله للولي، دفنه حذو ضريحه. سيتعمّق مع الوقت تقدير التونسيين لفكيني، الذي يشبه إجلال الأولياء. أما الدّاعي الثاني لاختيار قابس فقد كان سياسياً وعاطفياً : فالمدينة لا تبعد عن حدود ليبيا أكثر من150 كيلومتراً.

[6] المكان نفسه.

الذي نجّاكم من المهالك، أنتم وعائلتكم وأبناءكم. وقد كفانا شرفاً أننا قمنا بواجب الجهاد وبذلنا ما في وسعنا لإنقاذ البلاد من مخالب المستعمرين وعذاب القوم الظالمين، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها ولكل أجل كتاب، ولنا في رسول الله أسوة حسنة يوم هاجر من مكّة مع أصحابه، وكذلك يترك الرجال مواطنهم وينزحون عنها لنصرة الحق وتأييده غير مبالين بالعناء وما يلاقونه من المشاق والآلام، فإني بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن الجالية الطرابلسية البرقاوية أهنئكم بالسلامة...".[7] وأعلن له أنه أمام تعذّر الدفاع عن بلده بالسلاح، فهو يفعل ذلك الآن بقلمه عبر الكتابة في الصحف.

وجد محمّد فكيني في تونس جالية لاجئة كبيرة العدد. أجبر بعض الأعيان مثل حسن بن جابر، القائمقام السابق لجنزور، والغرياني بن سعيد، المدير السابق لنفس المدينة على ترك طرابلس الغرب منذ 1922. حلّت النواة الأساسية من اللاجئين بالقيروان، وبتوسط من باي تونس، حازوا أراضي وحصلوا على قروض سمحت لهم بالشروع في أعمال مختلفة، فضلاً عن أنّ بعض الأعيان قاموا بالتدريس في المدارس التونسية.[8] ومن المبادرات الأولى المعبّرة للجالية الليبية في تونس، تنصيب محمّد فكيني أميناً عاماً لتحالف مجاهدي شمال إفريقيا، تقديراً للجهود التي بذلها ولاندفاعه في قيادة المقاومة الليبية. لكن رغم ما في هذا التكريم من إجلال، فهو لا يمكن أن يفي بما قدّمه فكيني. فهو ببلوغه عتبة الثمانين من عمره، تنبّه بقلق إلى عجزه عن إعالة أسرته وعن مدّ يد العون إلى فقراء

---

[7] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 140. أجبر على المنفى سنة 1922 . سيكون المناضل الوطني الكبير أحد بناة ليبيا الموحّدة والمستقلة. لكن استقامته قادته إلى الاصطدام بالملك إدريس، الذي تغافل عن خدماته الجليلة للوطن وللسنوسيّة، وأمر بنفيه عن البلاد سنة 1952. وهكذا للمرّة الثانية وجد بشير السعداوي نفسه مكرهاً على طريق المنفى. بعد إقامة قصيرة في القاهرة ودمشق، انتقل إلى الرياض، حيث تقلد مهام مستشار الملك بن سعود السياسي. توفي سنة 1957، دون أن تطأ قدماه أرض ليبيا.

[8] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، ليبيا، الموقف 122/30، ص 274.

الرجبان. لقد كان فيما سبق على درجة من الثراء، وكان يملك الأراضي والدّور في طرابلس وفي الجبل، ولكن بعبوره الحدود نحو الجزائر، كان مجمل ثروته ستة عشر بعيراً وعلى حليّ زوجته عائشة. وببيع تلك الممتلكات المتواضعة، استطاع أن يقضي فترة إقامته الأولى في الجزائر وأن يغطي تكاليف رحلته الطويلة نحو تونس. وقد تلقى لاحقاً بعض المساعدات من ابنه علي نورالدين، الذي كان يتاجر بالمنتجات الزراعية مع بعض أعيان ورقلة. لكن لم يكن من الممكن أن يرضى بهذا العوز رجل تمتّع طويلاً برغد العيش، وأدار ببصيرة مناطق بأكملها، ومد دائماً يد العون إلى المعوزين. فبمرور الأشهر والسنوات، وجد فكيني نفسه مجبَراً على الاقتراض وطلب العون وخلال سنة 1933، كما صرّح في عريضة أرسلها إلى الحكومة الإيطالية، تراكمت ديونه حتى بلغت 50.000 فرنكاً.[9]

بعجزه عن تحمّل تلك الأوضاع طويلاً، لانعدام أيّ مصدر للرزق لديه، لعب محمّد فكيني الورقة الأخيرة وطلب من الحكومة الإيطالية العودة إلى الوطن واستعادة ثرواته التي تبلغ حسب تقديره، زهاء ثلاثة ملايين ليرة. كرّر محمّد فكيني المحاولة أربع مرّات بمرارة تعصر قلبه. وفي سنة 1931، كتب إلى موسوليني مباشرة.[10] وفي سنة 1933، تقدّم بعريضة إلى حكومة طرابلس. وفي سنة 1934، بعث برسالة إلى والي ليبيا، الماريشال الجوي إيطالو بالبو. وخلال سنة 1935 كتب من جديد إلى موسوليني، محدّداً قائمة دقيقة بمطالبه، بدءاً من العفو العام ورفع الحجز عن ممتلكاته وإعادة بناء منزله في

ذكرت هذه المعلومات في رسالة موجّهة من المكلف الحكومي نيكولو إلى وزارة المستعمرات بتاريخ 5 سبتمبر 1924.

[9] راجع في الأرشيف التاريخي لوزارة إفريقيا الإيطالية، مديرية الشؤون السياسية، الظرف 103، الورقة 390. رسالة من الوزير دي بونو إلى والي طرابلس, 12 أكتوبر 1933.

[10] المكان نفسه، بتاريخ 31 أغسطس 1935.

الجبل، الذي دمّره غراتسياني، وانتهاءً بدفع 200.000 فرنك لتسديد ديونه المتراكمة في المنفى.[11]

بقيت الردود على نداءات فكيني المستغيثة سلبية، وإن اختلفت مبررات الرفض. فكان رد بادوليو حاسماً، إذ كتب في رسالة سرية إلى وزارة المستعمرات: " ليست لدي نيّة للسماح بدخول قادة التمّرد، دعاة الفتنة الكبار: الحاج محمّد فكيني ومحمّد بلحاج حسن من المشاشية وعبد النبي بلخير والكعابرة والمريّض وسيف النصر وصالح الأطيوش وسليمان الباروني. (...) من ناحية أخرى أشير إلى أنّ ثروات محمّد فكيني صودرَت، كما أنّ بيته في تارديه قد دُمر أثناء إعادة احتلال الجبل. لقد طلب فكيني صراحة ردّ ثرواته إليه، والحال أنها حُولت إلى أملاك الدولة نهائياً وبصفة قانونية. (...) من المعلوم أنه يعاني اليوم الفاقة في تونس ويضطر للجوء إلى القروض والمساعدات كي يتسنى له العيش. وإذا سمحنا له بالعودة فسيتوجب علينا الوفاء بالمتطلبات".[12]

لم يكن بالبو الذي خلف بادوليو في حكم ليبيا أكثر كرماً. في رده على مذكرة لوزير المستعمرات دي بونو حول الموضوع، وضّح قائلا: " ليست لي أيّة نية لاستبدال التعليمات السياسية لأسلافي حول المعنيين، مثل فكيني، من المسؤولين الكبار عن حقبة التمرّد. ليس هناك أيّ أمل لفكيني لمراجعة الإجراءات الصادرة ضدّه من طرف سلفي، فيما يتعلق بالثروات المصادَرة لقادة التمرّد السابقين. إن كان يرغب في العودة لقضاء ما تبقى من سنوات عمره في طرابلس الغرب، فسأحفظ عهد من سبقني بعدم التعرّض له بالمحاسبة عما اقترفه، لكن لن أسمح بعودته مطلقاً إلى الجبل حيث لعب دوراً

[11] المكان نفسه، بتاريخ 25 يوليو 1935.
[12] المكان نفسه، رسالة سرية رقم 10439، بتاريخ 11 سبتمبر 1931.

عدوانياً وضاراً. بإمكانه فقط الإقامة في الجهة التي أحدّدها الآن وهي الخمس، حيث سينال راتباً شهرياً مقداره 400 ليرة لتسديد حاجاته. لا يمكنني السّماح له بامتيازات تفوق ذلك ".[13]

بعد سنة، حين جدّد محمّد فكيني نداءه، أبدى إيطالو بالبو تصلبًا أكثر: " احتفظ القائد العجوز بعقلية 1919، العائدة للفترة التي كان مسموحا فيها للقادة المحلّيين بترتيب اتفاقات مع الحكومة، بل ما زال يعتقد بشكل فوقي وثابت بصحة مزاعمه التي لا تدل إلا على عناده وصلفه، ليس لدي جواب على مطلبه، لا الآن ولا مستقبلاً ".[14] بهذه الرّسالة يوصد بالبو نهائياً مع محمّد فكيني باب الجدل من الجانب الإيطالي. وتوقف قائد الرجبان العجوز من جانبه عن الإلحاح على حقوقه والإصرار على مبرراته، بتذكيره السلطات الإيطالية أن فرنسا تتصرف بشكل مغاير مع " الأمير عبدالقادر ووزيره الشيخ العقبي، ومع الحاج محمّد بن خليفة النفاتي في تونس، إذ عفت عنهما واحتضنتهما بشكل إنساني".[15] تنبه فكيني متأخراً، أنه ارتكب خطأ لا يغتفر بتوجهه لخصمه الأزلي، معوّلاً على كرمه.[16] لقد كان بالبو محقاً بشكل ما، لم يقدر فكيني على التخلص من سحر القانون الأساسي، الذي آمن به ودافع عنه.

3. كانت السّنوات الممتدّة بين 1931 و1937، هي الأصعب بالتأكيد على عائلة فكيني. بل ربما كانت الأسوأ والأكثر شؤماً من تلك التي انقضت في القبلة وفزّان. في تونس بالطبع، ما كان فكيني

---

[13] المكان نفسه، رسالة بروتوكولية رقم 5282، بتاريخ 18 أبريل 1934.

[14] المكان نفسه، رسالة بروتوكولية رقم 20210، بتاريخ 10 ديسمبر 1935.

[15] المرجع نفسه، رسالة إلى موسوليني بتاريخ 25 يوليو 1935، من قابس.

[16] كان التّعامل مع الأتباع أقلّ صرامة، مقارنة بالمتمرّدين. فقد عاد إلى ليبيا، منذ 1931 إلى 1936، من مصر وحدها 6050 مغتربا و 28.783 رأس غنم.

مجبراً على محاربة الإيطاليين، بالمقابل، كان قادراً على توطيد العلاقات مع المنفيين المشتتين في أنحاء العالم. لكنّ الفاقة حدّت من قدرات القائد العجوز وأكرهته على تغيير مكان إقامته عدة مرات، من نفطة إلى المتلوّي، ومن دقاش إلى السقي، ومن قابس إلى قبليّ، ثم من جديد إلى قابس. في منزله المتواضع في قابس، في حيّ سيدي أبي لبابة، حيث عاشت عائلة فكيني من 1932 إلى 1937، رأى الشّيخ المسنّ ابنته وفاية وأحفاده سلمى وفاطمة وحسن وأبو لبابة يقضون بسبب العناء والمرض.

في الثمانين من عمره، كان محمّد فكيني يقضي غالبية يومه، في فسحة منزله الصغيرة، مرتديا الحولي الأبيض، وبجانبه زوجته عائشة نوير أو واحد من أبنائه. وقلما كان يغادر منزله، حتى وإن كانت قابس، أو " توكابا القديمة " حسبما ذكر بلينس الأكبر، مدينة ساحرة، ببساتين نخلها الكبيرة الشاسعة والممتدة حتى مشارف البحر المتوسط. كان جامع سيدي أبي لبابة واحدا من مقاصده المفضلة، حيث يذهب للصلاة عند قبر الصّحابي الجليل. ورغم سوء بصره، كان يقضي قسطاً من يومه في قراءة الصحف ومراسلة رفاق النضال القدامى، مثل بشير السعداوي وأحمد سيف النّصر وعبد الجليل سيف النصر وأحمد المريّض وعبد الرحمان عزّام، الموزّعين في شتى الأصقاع، بين مصر وتركيا وسوريا والجزائر وتشاد. من هذه المراسلات المتعدّدة، التي وصلتنا منها بمعجزة بعض النّسخ، نعلم أن محمّد فكيني كتب في 17 من فبراير 1938 أيضا إلى أتاتورك، رئيس الجمهورية التركية، مذكراً إياه بما بذله " في خدمة الدولة التركية ومصالحها من البداية إلى النهاية بإخلاص وثبات طاهر من دنس الدسائس والخيانة والخداع ". وبيّن فكيني إلى السياسي الكبير أنه لم يحصل على التقاعد الشهري الذي خصه به رجب باشا سوى بضعة أشهر: " ولم نأخذ من ذلك التقاعد إلا شيئاً قليلاً. فإن لم يكن

استمرار التقاعد باقياً في دولتكم فإني أطلب منحة وإعانة من جودكم وكرمكم. وأرجو إمدادنا بإعانة مالية نافعة نظراً لخدماتنا والصداقة القديمة التي تربطنا بكم، وأيضاً نظراً لضيق حالتنا وازدياد الشدائد في الاغتراب ".[17] لكن كما علمنا من رسالة وجهها فكيني إلى عبد الرحمان عزّام " فإنّ أتاتورك فاجأه الأجل وما نعرف أبلغه جوابي أم لا ".[18]

رغم حالات الضيق والخيبة والإذلال، لم ينثن فكيني. فقد أسرّ في رسالة موجّهة إلى محمّد صفي الدّين السّنوسي، الذي يعيش في مرسى مطروح في مصر، أن الحبّ للوطن البعيد بقي ثابتا: "برغم شتى أصناف التّشريد لشعبنا، بقيت تربطه صلات متينة في كافة بلدان المنفى. نحتفظ بروابط قوية مع كافة المشتّتين في شتّى الأرجاء، لغرض رصّ صفوف الوحدة الوطنية. إنه واجب كلّ قادة الحركة الوطنية، وواجب كافة الأحرار والشبّان النّاشطين في مجال النّضال من أجل تحرير وطننا ".[19] عوّل فكيني كثيرا على الوحدة الوطنية للمنفيين، التي قُدر لها أن تقود في الأوان المناسب إلى حرب التحرير. لقد عوّل على ذلك ربما بشكل يائس لأنّه من قراءة الصحف، لم يتلقّ سوى أخبارا محزنة ومثبطة للعزائم. فخلال نوفمبر 1938 مثلاً علم أن 20.000 مستعمِّر إيطالي حل بطرابلس ومُلّكوا أخصب الأراضي في طرابلس الغرب وفي برقة.[20] لكن الخبر الذي هزّه فعلاً، كان يتعلق بالبربري يوسف خربيش، الذي احتضنه سابقاً، والذي انقلب لخدمة الإيطاليين. ففي 18 من مارس 1937، بمناسبة زيارة موسوليني إلي ليبيا، قلّده خربيش سيفَ الإسلام في منطقة

[17] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 146.

[18] المرجع نفسه، الملحق رقم 161.

[19] المرجع نفسه، رقم 145، بتاريخ 18 فبراير 1936.

[20] كان إرسال 20.000 معمّر إلى ليبيا تحت رغبة إيطالو بالبو أساسا، أنظر:
Angelo Del Boca, *Gli italiani in Libia. Dal fascismo a Gheddafi*, Laterza, Roma-Bari 1988, pp. 257-71

بوغرة الجرداء وتفوّه أمامه بهذه الكلمات : " باسم العساكر وباسم المسلمين في ليبيا، الفخورين بإحساسهم أنهم أبناء إيطاليا الفاشية، أتشرّف بإهداء الدوتشي المظفّر، هذا السّيف الإسلامي الأصيل. ففي هذه اللحظة تهفو حولنا أرواح كافة المسلمين، على طول ضفاف المتوسط، يحدوهم الإعجاب والأمل، لما يرونه فيكم من خصال رجل الدولة العظيم، الذي يوجه قدرنا بعزيمة ثابتة".[21] لقد فهم فكيني بالتأكيد، وهو يطلع على خطاب خربيش المغالي والمزيف في تكريم موسوليني، إلى أيّ مدى يمكن أن تقود الخيانة والخضوع إلى قوات الاحتلال. ففكيني يعرف خربيش معرفة جيدة، ويدرك أنّه خان لأجل المال، وقد تلقى على ذلك جزاءً وفيراً. فخلال سنين قليلة صار أثرى رجل في طرابلس وربما في ليبيا.

4. في سنة 1937 انتقل محمّد فكيني بصحبة عائلته إلى قبلي، في جبل طبقة، على بعد 120 كلم من قابس، حيث عثر ابنه الأمين على عمل كحارس في ثكنة فرنسية. في حين بقي علي نور الدّين بقابس، يتعاطى تجارة المنتجات الزراعية التي بدأت تدرّ عليه ربحاً وفيراً. لقد انتهت ضائقة عائلة فكيني الاقتصادية كما انتهت السنوات التي تميّزت بضياع مؤلم، سببته المعاناة القاسية أثناء الانسحاب من فزّان وأثناء رحلة المسير الطويل في صحارى الجزائر. وعلى مستوى الجبهة السياسية، شهدت الوقائع تبدلا أيضاً. فقد استُنزفت إيطاليا من جرّاء غزو أثيوبيا ومن جرّاء المشاركة في حرب إسبانيا، وهي الآن ترتكب أفدح أخطائها بالتحالف مع ألمانيا الهتلرية النازية. واستفاقت فرنسا وبريطانيا العظمى من غفوتهما الطويلة، وهما بصدد التسلّح

[21] *Il Duce in Libia*. Edizione speciale della Agenzia Stefani, Alfieri & Lacroix, Milano 1937, p. 42.

المحموم لمواجهة دول الميثاق الحديدي في حرب تبدو محتومة.

في 18 من أكتوبر 1939، بعد أسابيع قليلة من اندلاع الحرب العالمية الثانية، اجتمع قادة الجالية الليبية بالإسكندرية في مصر، في منزل وضعه تحت تصرفهم الأمير محمّد إدريس السّنوسي. أثناء الاجتماع، الذي دام خمسة أيام، قرّر القادة الأربعون بالإجماع الدخول في الجبهة الديمقراطية للسلام والمشاركة في انتخاب الأمير إدريس السّنوسي ممثلاً لهم.[22] أُحيط الليبيون الذين يعيشون في المنفى علماً بهذه القرارات. وأُرسلت إليهم بعد ذلك مباشرة بعض الوثائق التي تتحدّث عن " برنامج للحرب "[23] وعن " ميثاق " في اثني عشر بنداً، يتعلّق بـ" الحقوق الوطنيّة لطرابلس الغرب وبرقة ".[24]

حلّ يوم الانتفاضة الذي طال انتظاره، ووجد محمّد فكيني نفسه مستعداً للجهاد من جديد. وكتب في رسالة موجهة إلى أعيان ليبيا الذين يعيشون في مصر: " نحن على قناعة كبيرة بالعمل الذي قمتم به في مصر لأجل رصّ صفوف الوحدة والتّضامن. ننتظر أن يسمح لنا التعاون بين الأنجليز والفرنسيين في الجبهة الديمقراطية في المستقبل القريب باستئناف الجهاد ضدّ إيطاليا، وأن يسمح أيضا بفرصة استعادة الحرية المسلوبة لوطننا. هنا في تونس، كافة المنفيين مستعدّون لاستئناف النّضال المسلّح".[25] لم يكن فكيني بالرجل الذي ينتظر الأوامر من مصر لشنّ الحرب. توجد وثيقتان تشهدان على أنّه بادر مع ابنه علي نورالدّين بالقيام بعمليات ذات طابع حربي منذ الأيّام الأولى لاندلاع الحرب العالمية الثانية. في 19 من أكتوبر 1939 كتب النقيب يوري إلى "السيّد المحترم الحاج محمّد باي فكيني

---

[22] أرشيف أنور فكيني، الملحقات رقم 153، 154، 155، 160.
[23] المرجع نفسه، الملحق رقم 156.
[24] المرجع نفسه، الملحق رقم 157.
[25] المرجع نفسه، الملحق رقم 159، بتاريخ 5 مارس 1940.

" لتهنئته لما أبداه من "مشاعر العرفان والتقدير لتونس التي احتضنته كابن لها". وبعد هذه المقدمة المجاملة، رجاه النقيب يوري " ألاّ يباشر أي عمل وألاّ يخاطر قبل التشاور معنا، كي لا يتضارب مع برامجنا ومخطّطاتنا ".[26]

أما الوثيقة الثانية فهي أبلغ بيانا وأكثر إيحاء، جاء فيها: " إن الموقّع أدناه، الأستاذ أ. ليفي بروفنسال، بصفته المساعد لرئيس المكتب السياسي لقطاع العمليات بشمال إفريقيا، يشهد أنه عاين المشاركة الفاعلة لعلي نورالدين، خلال 1939-1940، إلى جانب والده الحاج محمّد فكيني، في الجنوب التونسي، في المجهودات الحربية للوحدات المجندة بين المنفيين الطرابلسيين بتونس والمدمجة في القوات المسلّحة في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأخيرة".[27] من المستحيل أن يكون محمّد فكيني، الذي تجاوز عتبة الثمانين وفي حالة عمى شبه كلّي، قد شارك في العمليات العسكريّة لكن من المؤكد أنه وظف مهابته وسلطته لحثّ المنفيين الطرابلسيين على الانضمام للجيش الفرنسي، واستغل معرفته الدقيقة بمنطقتي طرابلس وفزّان لتحديد أهداف مضبوطة. وبالمقابل، من المؤكد أن علي نور الدين قد شارك في العمليات الحربية، إذ أرسل له الجنرال لوكلير، الذي غزا الكفرة وفزّان، صورة التقطت له بينما كان يتفقد القوات الفرنسية والمجاهدين التابعين لأحمد سيف النصر[28] بحصون القاهرة في سبها. كتب في الإهداء: " إلى السيد علي نور الدين باي فكيني، ذكرى لقاء بين جنديين ".[29]

---

[26] المرجع نفسه، الملحق رقم 156.
[27] المرجع نفسه، الوثيقة بتاريخ 3 أكتوبر 1955 في باريس.
[28] بعد الانسحاب من فزّان، لجأ أحمد سيف النصر إلى تشاد، بصحبة مئات من المجاهدين. مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، أسدى خدماته إلى فرنسا الدّيغولية، التي كلفت الجنرال لوكلير (فيليب ماري دي هوتكلوك) بتنظيم الوحدات في إفريقيا الاستوائية الفرنسية. مع لوكلير احتلّت الكفرة ثم فزّان.
[29] أرشيف أنور فكيني، الإهداء بتاريخ 1 يوليو 1947.

5. في الساعة الخامسة من صبيحة 23 من يناير سنة 1943 دخلت طلائع الجيش الإنجليزي الثامن بقيادة الجنرال مونتغمري إلى طرابلس، واضعة حدًا لـ32 سنة من الهيمنة الإيطالية على ليبيا. لكن بالنسبة لعائلة فكيني لم يعن تحرير طرابلس عودة الأمن، لأنّ الحرب، التي تحولت من ليبيا إلى تونس، أجبرتها بسرعة على مغادرة قبلي، التي أصبحت في قلب المواجهات بين قوات المحور (الجيش الخامس التابع للجنرال فون ارمين والجيش الأول التابع للجنرال ميسي) والقوات الإنجليزية الأمريكية الفرنسية (الجيش الثامن بقيادة الجنرال الانجليزي مونتغمري والفرقة المسلّحة الثانية الأمريكيّة). جرت معارك طاحنة، على طول الخطّ الرابط بين مارث والحامة في الشطوط حتى منطقة النفيضة. في 11 من مايو 1943، توقفت كل مقاومة لقوات المحور وجرى إعلان " وقف إطلاق النار" في إفريقيا.

في مطلع شهر مايو أصبحت عائلة فكيني قادرة على العودة إلى قبلي، وفي 10 من نفس الشهر كتب محمّد فكيني إلى الأمير إدريس السّنوسي للإعراب له عن ابتهاجه بالنهاية المظفّرة للحرب في شمال أفريقيا. كتب قائلا: " نقدّر بشكل كبير كلّ ما فعلته بريطانيا العظمى. كما نشكرها على المجهودات التي بذلتها لتخليص بلدنا وتحريره من الهيمنة الإيطالية. نعتقد أنّ بلدنا، بمساعدتها، سيتيسّر له أن يدشّن حقبة جديدة ينعم فيها بالحرّية والرّفاه. لقد عمّت البهجة كلّ المنفيين في تونس بانتصار الحلفاء وبالمناسبة يعربون لكم عن ولائهم ويتمنّون لكم العافية".[30]بلغ ردّ الأمير محمّد إدريس السّنوسي إلى

---

[30] المرجع نفسه، الملحق رقم 163. تحمل الرّسالة توقيع الابن علي نور الدّين، الذي تربطه صلة وثيقة بوالده فهو بمثابة خليفته المعين.

فكيني في نوفمبر 1943. شكر ملك ليبيا المُقبل زعيم الرّجبان على تهنئته "بمناسبة النصر والفوز الكبير لحلفائنا على أعدائنا، الذين هم أعداء الإنسانية قاطبة ". كما أضاف الأمير في النهاية: " نحيّي كافة المنفيين الموجودين معكم ونوصيهم بالتوحد الدائم والاستعداد لتلبية نداء وطنهم، لخدمته في عصر جديد أساسه الحرّية والجدارة والقانون ".[31] في شهر أكتوبر من سنة 1944 قرّر محمّد فكيني وابنه علي نور الدين دخول ليبيا لإقامة قصيرة. مرّت أربع عشرة سنة لم تطأ فيها أقدامهما أرض الوطن ومرّت اثنتان وعشرون سنة لم يطأ فيها أرض الرجبان. وبقدر ما أثارته زيارة بيتهما في تارديه من مشاعر الفرح، غمرتهما أيضا مشاعر الحزن العميق. كان المسكن الكبير قد دُمر بالكامل تقريبا، إذ لم تكفِ القنابل التي ألقى بها غراتسياني من الطّائرات، بل كان عرضة لغارة شاملة ومدمّرة، واستخدم الإيطاليون بعض حجارته في تشييد المديرية، أي المركز الإداري لتارديه. لكن ما آلمهما بشكل خاص، هو مشاهدتهما على جدار لا يزال واقفاً، آثار الرصاص الذي قتل به بعض المجاهدين الأسرى. بين ذلك الركام من الحجارة والأنقاض المحترقة، بقيت شجرة واحدة حية، منتصبة قرب المدخل الرئيسي.

ما هوّن من الحزن الذي سببه ذلك المشهد المروّع، كان تلقي فكيني، في 25 من أكتوبر، دعوة لحفل تكريم له، يقيمها النادي الأدبي في طرابلس، الذي كان قد تأسّس سنة 1919 ، أثناء السماح لليبيين بالقانون الأساسي قبل أن يلغيه الإيطاليون لاحقاً.[32] وعشية 26 من شهر أكتوبر، في قاعة تغصّ بالليبيين والأجانب، رحّب رئيس النادي، عبدالرحمن إبراهيم دقدق، بفكيني قائلاً: " نجتمع اليوم هنا

---

[31] المرجع نفسه، الملحق رقم 165. الرّسالة بتاريخ 30 أكتوبر 1943. في تلك الفترة كان محمّد إدريس يسكن في القاهرة، في جزيرة الزمالك، في شارع حكمت باشا، رقم 14.
[32] المرجع نفسه، الملحق رقم 166.

تكريما لقائدنا الكبير الحاج محمّد باي فكيني. لقد ضحّى هذا القائد، مع إخوته وأنصاره، بكل ما لديهم في سبيل الوطن واختاروا المنفى رافضين الخضوع إلى ظلم الطغاة الفاشيين ".[33] كان وقع هذه الكلمة مؤثراً على محمّد فكيني، فشكر على إثرها كافة الحضور و" كلّ الذين استقبلونا بحفاوة في كافة المناطق التي مررنا بها "، وأضاف قائلاً : " منذ البداية، وقفنا في وجه العدوّ الإيطالي الذي ارتكب فظائع مختلفة وحاك مؤامرات عديدة. لكن الله معنا... الآن ساعة الثأر قد حانت. بمساعدة حليفتنا بريطانيا العظمى، نستطيع طرد المستعمرين الفاشيين والطّغاة، يحدونا أمل كبير لبناء المستقبل. نعترف بالجميل أيضاً لحليفتنا الثانية، فرنسا الديمقراطية، فقد ساعدتنا كثيرا أثناء نفينا إلى تونس ". إختتم فكيني خطابه بهذه العبارات: " الآن هدفنا هو توحيد الجميع، والتكاتف معاً للتحرّك من أجل المصلحة العامّة، والتعاون الصّادق مع الحكومة التي خلّصت هذا البلد ".[34]

إستقبل فكيني استقبال الأبطال الوطنيين من قِبل الليبيين، لكنه لم ينظر إليه بعين الرضا من قِبل سلطات الإدارة العسكريّة البريطانية التي رفضت تجديد إذن الإقامة له. لم يجد زعيم الرجبان العجوز أيّة صعوبة في فهم سبب هذا الإجراء الشاذ. إذ تكفي معاينة لائحة الأشخاص الذين اشتركوا مع رئيس الإدارة، الجنرال ترافيرز روبرت بلاكلي، في تشكيل المجلس الاستشاري، الذي يترأسه شخصيّا : وكان بينهم مفتي طرابلس وسالم المنتصر ومصطفى ميزران، أي نفس الأعيان المحافظين والمأجورين ذاتهم الذين خدموا إيطاليا. بعد شهر قضياه في طرابلس وتاردية، عاد فكيني وابنه إلى تونس مُثقلين بالحسرة وخيبة الأمل. لم يكن الوقت قد حان بعد للعودة النهائية إلى ليبيا. وبعد أن أقام بعض الوقت في قبلي، عاد فكيني سنة

---

[33] المرجع نفسه، الملحق رقم 167.
[34] المرجع نفسه، الملحق رقم 168.

1946 بصحبة عائلته إلى قابس، حيث كان علي نور الدين يعيش في بحبوحة وتمكن من شراء سيارة سيتروان فاخرة ، كانت من أوائل السيارات في المدينة. هذه المرّة، استقر المقام بعائلة فكيني للسكنى في حيّ جارة الكبير، وهو الحي الراقي في المدينة، الذي لن تنتقل منه العائلة بعد ذلك. لقد انتهت رحلة المنفى الطويلة.

6. وضعت الحرب أوزارها، وانهزم على إثرها الإيطاليون وطُردوا من " الشاطئ الرابع "، لكن مستقبل ليبيا بقي غامضاً. فالأحزاب السياسية الأولى [35] لم تشكل سوى في مستهلّ شهر سبتمبر1946، إذ لم تنل الترخيص قبل ذلك. وظهرت سريعاً المساوئ القديمة للتنظيمات السياسية الليبية السابقة. وقد لخّص صلاح الدّين حسن السوري الحالة بدقة : " كان يقودها الأعيان وليست لها أيّة برامج سياسية مفصّلة، كما كانت تنقصها مخطّطات العمل الواضحة. وفي المقابل كان القائمون عليها يهدرون طاقاتهم في المشاحنات والانشقاقات والصراعات الشخصية، التي سبّبت انقسامات لاحقة دفعت لتشكيل أحزاب جديدة ". [36]

عن شتى برامج الأحزاب السياسية الليبية الأولى تبلورت ثلاثة خيارات أساسية : (1) القبول بالأمير محمّد إدريس السّنوسي ملكًا على ليبيا الموحّدة ؛ (2) الموافقة على " الانتداب " الأجنبي في طرابلس الغرب، بانتظار الاستقلال التام ؛ (3) إنشاء جمهورية دستورية ديمقراطية تضمّ طرابلس الغرب وبرقة وفزّان معاً. وقد لاقى المقترح الأول ترحيباً، ليس لأنّ أهالي طرابلس الغرب يُبجلون السّنوسي الأكبر كثيراً، بل لأنهم مقتنعون ولهم كل الحق في ذلك، أنّ

---

[35] تم تأسيس الحزب الوطني بشكل سرّي خلال 1944، لكن لم يعترف به رسميًا سوى في الثامن من أبريل 1946. تشكلت الجبهة الوطنية المتّحدة في العاشر من مايو 1946. ولدت الكتلة الوطنية الحرّة في 30 مايو 1946.

[36] صلاح الدّين السّوري، مصير ليبيا بعد الحرب العالمية الثانية، ص 9. مداخلة في الملتقى الإيطالي الليبي ببيروجيا في إيطاليا، مارس 1985.

الحماية البريطانية الواضحة التي يتمتّع بها محمّد إدريس ربما كانت السبيل الوحيد للحصول بعد فترة زمنية مقبولة، على استقلال ليبيا.[37]

بالنسبة لمحمّد فكيني، الذي تربطه صلات وثيقة بالجماعة السّنوسية، كان اختيار محمّد إدريس ملكاً على ليبيا الموحَّدة محسوماً. وكما رأينا، كان فكيني قد نسج علاقات متينة مع الأمير ومع صفي الدّين منذ عام 1936، وقد أكسبه العمل لأجل ضمان اعتلاء إدريس العرش طاقة هائلة مجدداً. وبصفته أميناً عاماً لرابطة المجاهدين الليبيين القدماء في تونس والجزائر، كان فكيني يتمتع بنفوذ واسع. وكما نجح خلال 1939-1940 في تجنيد مئات المنفيين من أهالي طرابلس وفزّان في القوات المسلّحة الفرنسية، كان بعد خمس سنوات، واثقاً من قدرته على ضمان مساندة الليبيين المشتتين في المغرب العربي للسّنوسي. بالإضافة إلى ذلك، كان فكيني يعمل بالتّنسيق مع أحمد سيف النصر، الذي استمرّ على علاقة وثيقة معه منذ الفترة التي لجأ فيها بصحبة المجاهدين إلى فور لامي في تشاد، حيث عاون الجنرال لوكلير على غزو فزّان ثانية، قبل أن يصبح لاحقاً والياً عليها.

لكن فكيني لم يكتف بحشد الأنصار لتنصيب الملك القادم، فقد عمل أيضاً على تجنيب ليبيا المستقلة البداية السيئة، بأن ترهن مستقبلها بإيطاليا، خاصة وأن مساعي روما على قدم وساق في الأمم المتحدة للحصول على انتداب في طرابلس الغرب. في 25 من مايو 1945 بعث فكيني ببرقية إلى الحكومة الفرنسية ضمنها سلسلة من المقترحات والمطالب، والتي كرّرها لاحقاً، في 3 من سبتمبر من السنة نفسها، إلى الجنرال ماست الوالي الفرنسي المقيم في تونس.

---

[37] حول الأحداث السياسية في ليبيا بعد الحرب العالمية الأولى، أنظر:
Angelo Del Boca, *Gli italiani in Libia. Dal fascismo a Gheddafi*, pp. 326-427.

وعلى إثر انتهاء الحلفاء من الحرب، وانشغالهم بمعالجة مشاكل بلدان عديدة، ووضع أسس جديدة للعالم، تقدّم فكيني بهذه المقترحات : (1) إقرار الحكم الذاتي لليبيين عبر اتفاق بين قادة المنفى ونظرائهم في الداخل. مع اختيار النظام السياسي ضمن اتفاق متين، مبني كذلك على الصداقة والتعاون مع الدول الحليفة ؛ (2) طرد الإيطاليين، بعد انتزاع الأراضي منهم واسترجاع كلّ ما اختلسوه ونهبوه بطريقة غير قانونية، وإعادة تلك الثروات لأصحابها الشرعيين أو إلى الدولة ؛ (3) إعادة كافة الحقوق السياسية والمدنية للقادة الذين واجهوا النظام الفاشي منذ 1922 حتى الحرب العالمية الثانية ؛ (4) طرد كافة الإيطاليين والمتعاونين معهم من الوظائف والمهام، وإلغاء كلّ القوانين والأنظمة التي فرضوها.[38]

لم يغب نشاط فكيني وابنه علي نورالدين عن محمّد إدريس، الذي كان قد ترك القاهرة في هذه الأثناء واستقر في بنغازي حيث أعلن بالاتفاق مع لندن، في أوّل يونيو 1949 استقلال برقة. بالتأكيد كان السّنوسي يتطلّع إلى أن يصبح ملكا على ليبيا الموحّدة، وكانت لمساهمة فكيني في تحقيق هذا المشروع أهمية كبرى. وكي يشكره على وفائه الذي استمرّ عقوداً ولطلب مساعدته، توجه محمّد إدريس إلى قابس بتونس لمقابلة زعيم الرجبان. كان يرافق السّنوسي في رحلته التي لم تحط بأية دعاية، مستشاره الأوّل، ابراهيم الشلحي.

إنعقد اللقاء في مسكن محمّد فكيني المتواضع، بعد ظهر يوم من خريف 1949. وكما ذكرت زوجة علي نورالدّين: " استمرّ اللّقاء بين الملك والحاج محمد فكيني أكثر من ساعة، ثم تحولوا جميعا إلى مكتب زوجي، حيث قامت النّساء بإعداد العشاء. كان محمّد فكيني قد أتم الثانية والتسعين من عمره ولا يزال متوقد الذّهن. وغمره اللقاء

[38] هذه الوثيقة تحمل أيضا توقيع علي نورالدّين. أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 169.

مع الملك بسعادة كبيرة "،[39] وقد عوضه حضور الملك وإجلاله لشخصه، والتقدير الكبير الذي أبداه نحو وفائه الدّائم، عن كلّ التضحيات والمرارة والأحزان التي ألمت به. ثم أضافت زوجة علي نورالدين قائلة : "كان ذلك اليوم بالتأكيد أسعد يوم له منذ أن دخل تونس سنة 1931".[40]

كانت زيارة محمّد إدريس غير المنتظرة إلى قابس حافزاً لفكيني، لكن أثرها لم يلبث أن تلاشى سريعاً لأن الأخبار التي وردت من طرابلس لم تكن مطمئنة. ففي الوقت الذي كانت فيه إيطاليا تبذل قصارى جهدها لانتزاع حقّ الانتداب على طرابلس الغرب، كانت الأحزاب السياسية الليبية، تقدم بخلافاتها وصراعاتها مشهداً يدعو للأسى. في 1 من مارس 1950 أرسل محمّد فكيني رسالة مطوّلة إلى صديقه القديم عبد الرحمان عزّام، الذي كان قد أصبح في هذه الأثناء الأمين العام للجامعة العربية. وبصراحة كبيرة، أحاطه علما بخشيته وقلقه، متحدّثاً أيضاً باسمه ابنه علي نورالدين : " بقدر سرورنا وارتياحنا للنتائج الطيبة التي أسفر عنها نجاح القضيّة في الميدان الدولي بفضل جهود الجامعة العربية، نأسف من ناحية أخرى للأوضاع السياسية داخل البلاد وما يتوقع أن ينتج عنها من بذور الفتنة والشقاق، فإنّ المؤسسات (أو الشركات الحزبية المدلسة) التي تعمل على أساس الأشخاص وبهدف المصالح والأغراض الخصوصية قد تكون سبباً يعوق البلاد في سيرها نحو الغرض الشريف والمبدأ المقدّس. وإنّا لنود من صميم قلوبنا، ونحن لا زلنا بديار الهجرة، أن يتجه الجميع باتحاد وتعاضد متين نحو المصلحة العامة، ألا وهي إنقاذ الوطن وإسعاده ". كما ترجّاه المجيء شخصيّا إلى طرابلس " فلو تمكنتم من القدوم إلى طرابلس شخصياً، فإنّ

---

[39] شهادة منوبية بن حميدة، زوجة علي نورالدّين.

[40] المكان نفسه.

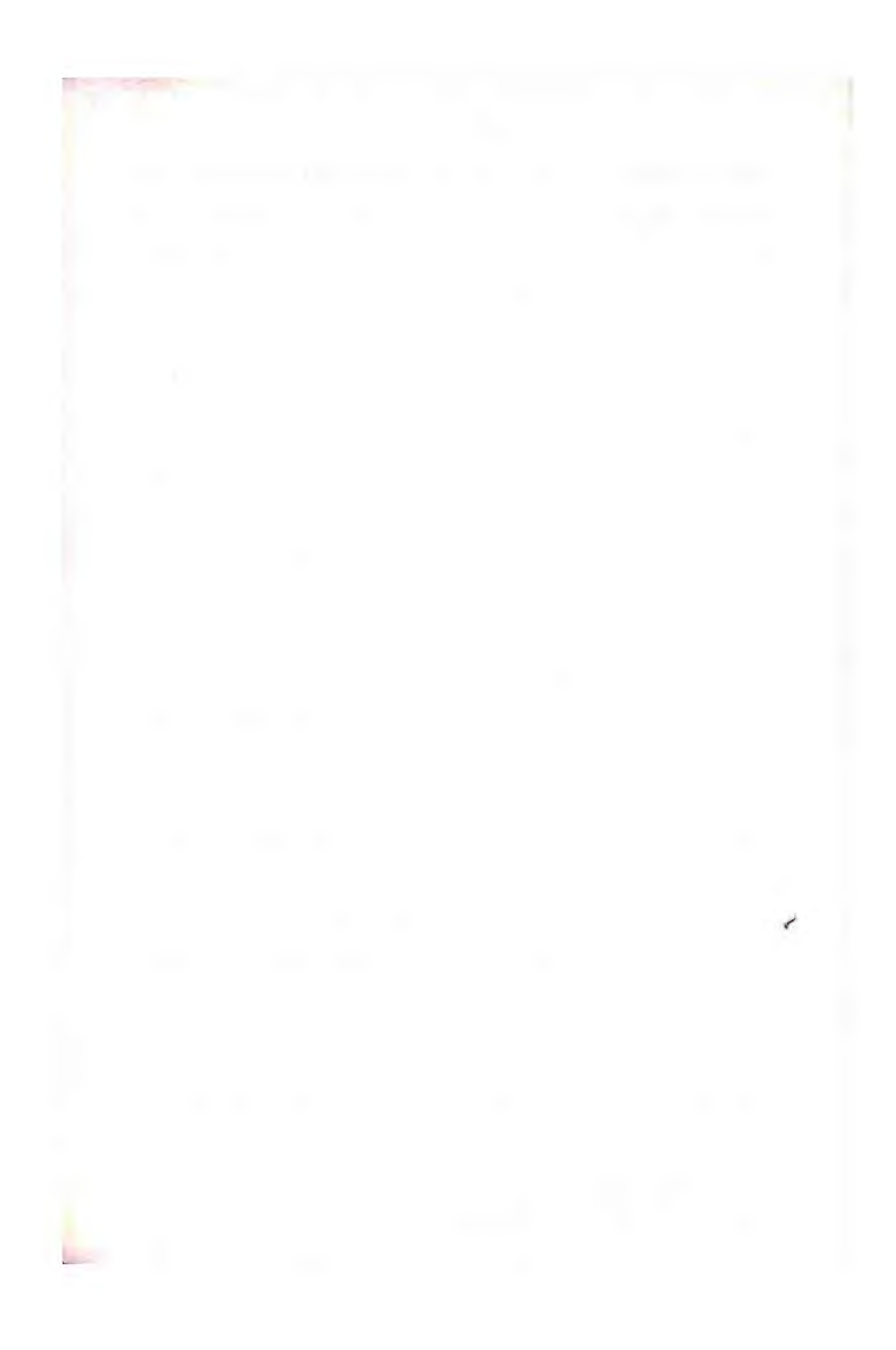
قيمتكم في نفوس العموم يكون لها أثر طيب في إزالة سوء الفهم وفي حصول التفاهم، والواجب يحتّم تحذير العموم من إغراء الدساسين وكيد الكائدين ونزعات الشياطين، حفظ الله البلاد من شرّهم، وألهم الجميع الهداية والسداد، وقادهم للخير والوئام ".[41]

ربما تكون هذه الرّسالة الأخيرة التي كتبها محمّد فكيني، بمساعدة علي نورالدّين على الأرجح لأنها تحمل توقيعه أيضا. فبعد ثمانية وعشرين يوما، توفي المناضل الليبي الكبير في بيته في حيّ جارة بقابس في المنفى، عن عمر يناهز92 سنة و 7 أشهر و5 أيام بالضبط. وحسب إرادته ورغبته، وتحت رغبة كافة أهالي قابس أيضاً، دُفِن محمّد فكيني بجوار قبر سيدي أبى لبابة الأنصاري في المقبرة التي تحمل اسمه. بمناسبة رحيله، تحدثت صحف عديدة عن توازنه المتميّز وعن دوره الرائد في الكفاح المسلّح ضدّ إيطاليا. وخصته صحيفة " تونس " بمقالة مطوّلة، تحدثت فيها عن بعض وقائع حياته التي كانت مجهولة كلياً، مثل علاقته بعمر المختار، قائد المقاومة الشهير في برقة، الذي شنقه غراتسياني في سلوق. وانتهت المقالة بهذه العبارات: " ولقد بذل نفسه وماله وولده فداء للوطن، وحكم الطليان عليه بالموت غيابياً، وصودرت جميع أملاكه، وهدم بعض دياره نكاية وتشفياً بيد المدنية الجائرة، فما وهن ولا ضعف ولا استكان بل قابل ذلك برباطة جأش وصدر رحب وضمير مرتاح. والوثائق والأوامر والرسائل التاريخية كلها شاهدة ناطقة بفضل زعيم التضحية والعمل، تثبت صدقه وإخلاصه لوطنه ومواطنيه في جميع أطوار حياته المجيدة ".[42]

في هذا التكريم الذي كتبه مجاهد مسنّ كان قد رافقه دوماً، ليست

[41] أرشيف أنور فكيني، الملحق رقم 171.
[42] المقالة بتاريخ 3 مايو 1950. المرجع نفسه، الملحق رقم 172.

هناك أيّة مبالغة وليس هناك أيّ تعبير خطابي أو بالمناسبة. ثمة صورة حقيقية لرجل أفنى عمره يحفزه إحساسه الرفيع بالكرامة والعدالة.



الفصل الرابع عشر

تذكر وتكريم وردّ اعتبار

1. التفّ الجميع حول جثمان محمّد فكيني : الزوجة عائشة نوير التي أغمضت له عينيه. الابن البكر علي نورالدين خَلَفه في الشأن السياسي. الأمين الذي يعمل لدى الجيش الفرنسي في قبلي. محيي الدين الذي يعيش في باريس والذي يستعد للحصول على الإجازة في الحقوق من جامعة السوربون. ومريم التي وُلدت في الجبل، قبل تجدد اندلاع الحرب. ثم منوبية بن حميدة، الزوجة الثانية لعلي نورالدين،[1] التي ترعى البيت كملاك حارس.

خلّف موت فكيني فراغًا كبيرًا رغم اضطلاع أبنائه، وخاصة علي نورالدين ببعض مهامه، فقد كانت الحاجة لنصائحه وتعليماته ملحّة ودائمة. وكان الاستماع إليه وهو يتلو بدقة وورع آيات القرآن والحديث الشريف وسنّة النبي باعثاً على العبرة والتقوى. مع توالي السنين تشربت حكمته حماسة دينية، وأحيطت صورته بهالة من القداسة لدى أهله وغيرهم من محبيه وعارفيه. كثيراً ما كرر الشيخ الآيتين: " أُذِن لِلذِين يُقاتَلون بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدِير. الذين أُخرجُوا من دِيارهم بغير حَق ".2 حتى عشية رحيله، ما كان بوسع محمّد فكيني أن ينسى المساوئ التي اقترفها الإيطاليون بحقه أو

---

[1] في المرّة الأولى تزوّج علي نورالدين فكيني سنة 1928، من عزيزة بنت سالم بن عبد النبي، المحارب الذي قاد، ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر 1914، مئات المجاهدين للهجوم على القاهرة بسبها، والتي أدّى سقوطها إلى انسحاب مياني المبكر من فزّان.

[2] سورة الحجّ : 39-40.

أن يصفح عنهم، داعياً الله أن يشهد على ذلك. في هذه الأثناء، أثار خبر إعلان محمّد إدريس ملكاً على ليبيا الموحدة، احتجاجاً وسخطاً شديدين في طرابلس الغرب. أسرّ سالم المنتصر إلى القنصل الإيطالي روبيرتو غايا عزمه على الانطلاق العاجل في حملة دعائية ضد السّنوسي والنظام الملكي في ليبيا.[3] حتى الأهالي البربر في الجبل وفي منطقة زوارة رفضوا توحيد ليبيا تحت راية الملكية، وقرروا في لقاء سري التأم قرب طرابلس " حشد كافة القوى للوقوف في وجه توسع الإمارة السّنوسية إلى طرابلس الغرب".[4]

كان يتعين على علي نور الدين أن يتصرف بسرعة، فهو على يقين مثل أبيه، أنّ محمّد إدريس هو الوحيد القادر على ضمان مستقبل آمن وواعد لليبيا. وتحرك في الحال بالتنسيق مع أحمد سيف النصر لدعم مصير السّنوسي الأكبر. تمثل سعيهما أولاً في الاجتماع بتونس مع الهولندي أدريان بلت المكلف من منظمة الأمم المتّحدة بتمكين ليبيا من استقلالها. أطلع القائدان الليبيان بلت على وضع المنفيين الخاص في شمال إفريقيا وعلى " ضرورة إشراكهم في تطوير البلاد، نظرا لمساهمتهم الفعّالة في الدفاع عن طرابلس الغرب ". كما أعربا للمبعوث الأممي عن رفضهما أيّ حضور أجنبي، وإيطالي خاصة، في الأجهزة الليبية المزمع تشكيلها، مثل مجلس العشرة ولجنة الواحد والعشرين.[5] وبصفته الكاتب العام لرابطة المجاهدين الليبيين القدماء، وقد ورث هذه الوظيفة عن والده، قابل علي نور الدين في قابس المندوبَين الليبيين، مصطفي ميزران وعلي أسعد الجربي،

---

[3] الأرشيف التاريخي لوزارة الشؤون الخارجية، سفارة لندن، الظرف 1415، الورقة 2، من السفير تشيليري في لندن. تيلكس C./5507/3 بتاريخ 26 نوفمبر 1949.
[4] المرجع نفسه، تيلكس C./5597/3 بتاريخ 8 ديسمبر 1949.
[5] "الأسبوع " « La Semaine » ، صحيفة تونسية، أغسطس 1950. ، مقال بعنوان : " نضال الليبيين من أجل بلدهم ".

اللذين توجها إلى جنيف لشرح الأوضاع الليبية في المجلس الاستشاري التابع للأمم المتحدة. وبيّن لهما مطالب المجاهدين في المنفى وكرر رفضه التام لأيّ حضور أجنبي في الأجهزة الليبية. وفي عدّة مناسبات توجه شخصياً إلى باريس للإعراب عن حتمية وحدة ليبيا دون أي تدخل أجنبي.

في منتصف ليلة 23 من ديسمبر 1951 تمّ التوقيع، في كلّ من بنغازي وطرابلس وسبها، على نصّ نقل السلطات من بريطانيا العظمى وفرنسا إلى المملكة الليبية المتحدة. بعد ساعات، صبيحة 24من ديسمبر، وفي القاعة الكبيرة لقصر المنارة ببنغازي، أعلن الملك إدريس استقلال البلاد. في خطابه المقتضب، فضلاً عن تأكيد التزامه بمراعاة الدستور والدفاع عنه، عاد بالذاكرة إلى الوراء، إلى أيام النضال الصعبة والعسيرة ضدّ الاستعمار وإلى عشرات الآلاف من المجاهدين الشهداء، قائلاً : " في هذه اللحظة المباركة، نتذكر أيضاً أبطال الماضي المجيد، ونستمطر شآبيب الرحمة الإلهية ثواباً لشهدائنا الأبرار، ونحيي الراية المقدسة الموروثة عن آبائنا ورمز وحدتنا التي تمنيناها طويلاً، آملين أن يكون هذا العهد الجديد لبلدنا عهد رفاهية وسلام ".[6]

قبل أشهر من إعلان الملك إدريس استقلال ليبيا، حاول علي نورالدين فكيني السفر إلى طرابلس، لكن السلطات البريطانية رفضت منحه التأشيرة. استمر إذاً التعامل البوليسي مع عائلة فكيني الذي فضلا عن كونه غير مبرر، كان مهيناً أيضاً. ولم يتيسر لعلي نورالدين أن تطأ قدماه أرض الوطن إلا بعد إعلان الاستقلال. بالمقابل، لم ير الملك إدريس الأمور بعين الجنرال بلاكلي، متذكراً

الدعم الكامل الذي قدمته عائلة فكيني في سبيل اعتلائه عرش ليبيا الموحّدة، فأتاح لعلي نورالدّين مجال العمل الدبلوماسي. وآخذا في الحسبان ما يتمتع به الرجل من تأثير واسع في تونس، إضافة إلى صداقته الشخصية مع الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية، أرسله سنة 1959 سفيراً في تونس. واحتفظ فكيني بمهمته حتى 1965، حين دب الخلاف مع الملك جراء سياسته المحافظة وبسبب بعض الشخصيات المشبوهة الغامضة المحيطة به، فأزيح جانباً.

2. حتى الآن عرفنا علي نورالدين رجل أعمال ناجحاً ودبلوماسياً محنكاً. لكن ثمة وجهاً ثالثاً له لا يقل شأناً، فالرجل يقرض الشعر، وقد وثق كافة مراحل حياته بقصائد قوية مؤثرة تستحق الذكر. تتوزع أعماله الشعرية على أربعة أقسام تغطي فترات عدة من حياته: " القصائد الفزّانية " التي كُتبت أيام الجهاد في القبلة وفي فزّان، و"القصائد الجزائرية" التي صيغت في الجزائر أثناء عبور الصحراء وصورت أوضاع المهاجرين في منفاهم، و"القصائد التونسية" التي نظمت أثناء المنفى الطويل بالبلاد التونسية، و"القصائد الطرابلسية" التي كتبت بعد تحرير ليبيا والعودة إلى أرض الوطن.

في مقدمة عمله الشعري، " ذكريات الجهاد والهجرة"، كتب زاهي القائد الذي تولى تحقيق المخطوطة وإعداد نصوص ديوانه الشعري : "عزيزي القارئ، إن الكتاب الذي بين يديك ليس مجموعة شعرية فحسب، بل هو مؤلف في النضال والمعارضة أيضا، إنه ملحمة

[6] Cit. in Majid Khadduri, *Modern Libya. A Study in Political Development*, John Hopkins Press, Baltimore, 1963, p. 213.

بطولية لشعب بأسره. ليس كاتبه شاعراً فحسب، بل مناضل أيضا. كان علي نورالدين شاباً يافعاً عند بداية الجهاد، لكنه عاجلاً انخرط في سلك المقاومة، سيفه في يد وقلمه في اليد الأخرى".[7] حسب قول زاهي القائد، ينتمي علي نور الدين في شعره إلى المدرسة الأدبية التقليدية الكلاسيكية، وينظم حسب عمود الشعر القديم " حيث اللغة والصور مستوحاة من الفضاء الصحراوي القاسي، بكافة أطلاله الباقية، وبراريه القاحلة، ووديانه المهلكة، كأن صحارى المغرب العربي تحوي ما في صحارى الجزيرة العربية، بهجيرها وسرابها، خيلها ونوقها، طيرها وأنعامها. (...) فلا بدّ والحالة هذه، أن تحتوي أكثر قصائده، في مطالعها أو خواتمها، على كثير من خصائص التراث العربي الأصيل. هكذا تتصدرها أو تختتمها أبيات دينية، إسلامية، متبركة بذكر الرسول وصحابته وتابعيه، أو متمثلة بحياة القادة العظام من أجدادنا العرب المسلمين...".[8]

يذكر علي نورالدين مثلاً الأخت عائشة، التي توفيت بسبب الملاريا في دية، في منطقة أوباري، خلال سنوات الصراع المسلّح في وادي الشطّ (من قصيدة "الرباب" رثاء) :

بفزّان نقيم اليوم وقتاً ... طويلاً في الشدائد والصعاب
نعاني ضُرّ حُمّاها بصبرٍ ... كصبر السّابقين من الصّحاب[9]
و(ديَّة) وادي الآجال فاقت ... موقعها الفسيح وبالقباب
زلال ماؤها عذبٌ ولكن ... بها خطر البعوضة والذباب

---

[7] علي نورالدين فكيني، المرجع نفسه، ص 1. زاهي القائد عربي سوري مقيم في فرنسا، كاتب وشاعر وأستاذ للغة العربية وآدابها.
[8] المرجع نفسه، ص 8.
[9] علي نور الدين فكيني، المرجع نفسه، ص 50.

أوباري ذكرها يشجي فؤادي فعانشة بها رهن التراب[10]

الجهاد في صحراء فزّان من المواضيع التي تطرّق لها علي نور الدّين، بشغف كبير وأحياناً بغضب، كأنه يودّ التخلص من حمل يرهقه (من قصيدة جهاد وهجرة) :

وفزّان نردُّ الزحف عنها ونصفع من أتى من كل باب
نقاتلهم بعزم في ثبات بأسلحة البنادق والحراب
بني الطليان قمتم باعتداءٍ فظيع في تجنٍّ واغتصاب
أتيتم أرضنا تبغون منّا بأن نبقى عبيداً كالكلاب
فلا والله لا نرضى بذلٍّ ولا نخشى ولو قطع الرقاب[11]

يوظف علي نور الدين نفس الحدّة في لوم الملك إدريس، الذي أحاطت به خلال السنوات الأخيرة من حكمه حاشية فاسدة أمسكت بزمام السلطة مع ديوان ملكي وثلة من الأعيان المحافظين. لم يكن علي نور الدين وحده من سخط على نظام الملك إدريس، بل الطلبة والنقابيون وأعضاء الأحزاب القدامى المعزولون وأتباع الحركات الجديدة للقومية العربية، وحتى صغار ضباط الجيش. في 7 من مايو 1969، قبيل أربعة أشهر من ثورة القذافي، أرسل علي نور الدين نسخة من قصيدة بعنوان : " القارعة " إلى ولي العهد حسن الرضا بغرض تسليمها للملك إدريس.

في القصيدة، التي ضمّت 84 بيتا، يمزج علي نور الدّين بين مدح الملك ودعوته بشكل حاسم للإصلاح :

---

[10] المرجع نفسه، ص 40 .
[11] المكان نفسه.

يا أيها الملك المؤمّل للرجا   أنتم هنا في المعضلات المرجعُ

هذا الاستهلال التمجيدي، ألحقه الشاعر بتأنيب وتحريض

ترجو البلاد سياسة جدِّيَّة   مبنيَّة بالحزم لا تتصدعُ[12]

وأضاف :

أنقذ بلادك من مُضِلٍّ مفسدٍ   ليظلَّ في جُحر السفالة يقبعُ

فالله يرشدكم ويرعى شعبنا   من كلّ ختّالٍ يغشُّ ويخدعُ

ويمدّكم بالعزم والتوفيق في   إصلاح ما يُرجى وما يُتَوَقَّعُ[13]

في الفاتح من سبتمبر 1969 انطلقت " عملية القدس " وأعلن العقيد المغمور معمّر القذافي، من إذاعة بنغازي، نجاح الانقلاب، بهذه الكلمات :

"بسم الله الرحمن الرحيم، أيها الشعب الليبي العظيم، من أجل تحقيق إرادتك الحرّة، ومن أجل تحقيق تطلعاتك العالية، واستجابة لنداءاتك المتكررة للتغيير والتطهير، وللعمل والمبادرة، وانطلاقاً من الروح الثورية النضالية، قامت قواتك المسلحة بتدمير النظام الرجعي المتخلف الفاسد. (...) ومنذ اليوم ستغدو ليبيا جمهورية حرّة ذات سيادة، وستحمل اسم الجمهورية العربية الليبية، وبعون الله ستتقدّم صاعدة إلى مصاف الرقي الأعلى".[14]

من انتقادات علي نور الدّين فكيني للملك إدريس في قصيدة "القارعة"، ومن وثائق أخرى عامة، نستخلص أن الثورة ستكافئه

---

[12] المرجع نفسه، ص 214-215.
[13] المكان نفسه.
[14] النص الكامل في ملحق Middle East Journal، جزء 24، رقم 2، ربيع 1970.

على مواقفه الإيجابية، إلا أننا نجد أنه قد تم فُصله مع سفراء آخرين من مهامه، وبشكل هزلي نوعاً ما، بتهمة العلاقات الوثيقة التي تربطه بالملك السّنوسي. في 10 من أكتوبر 1971 أرسل علي نورالدين رسالة إلى مجلس قيادة الثورة مفنّداً، نقطة نقطة، الاتهامات التي وجّهت له، ومطالباً بإعادته إلى السلك الدبلوماسي الليبي،[15] لكن طلبه قوبل بالرفض. فحتى مع الثورة لم ينل آل فكيني حظاً أو حظوة.

3. كان علي نور الدين بالنسبة لوالده محمّد فكيني مثال النجاح الباهر في ميدان الأعمال والمشاركة التّامة في الأهداف السياسية في السلم كما في الحرب ؛ أما ابنه محيي الدين، المولود في الشاطي بفزّان أثناء فترة الكفاح المسلّح، فقد لاقى نجاحاً في مجال الدّراسة. أنهى تعليمه الابتدائي بقابس ثم التحق بالمعهد الثانوي بتونس، حيث حصل على شهادته بامتياز ، مما خوله الحصول على منحة سمحت له بمتابعة دراسته بباريس، حيث حصل على الإجازة في الحقوق من السوربون، كما نال عدة شهادات عليا أخرى، عاد بعدها إلى أرض الوطن سنة 1952 لينضم إلى السلك الدبلوماسي. في الثلاثين من عمره صار ناظراً في حكومة ولاية طرابلس الغرب. في الثانية والثّلاثين من عمره عُين سفيراً في القاهرة. في الرابعة والثّلاثين مثل ليبيا في واشنطن وفي الأمم المتحدة. في الثامنة والثلاثين دعاه الملك إدريس إلى طرابلس وكلفه بتشكيل الوزارة السادسة في عهده، الأولى منذ دخول ليبيا مجموعة الدول المنتجة للنفط.

كما كتب محمّد يوسف المقريف في الجزء الرابع من مؤلفه

---

[15] أرشيف أنور فكيني، وثيقة من خمس صفحات، حرّرت في طرابلس يوم 20 شعبان 1391، الموافق لـ10 أكتوبر 1971. لم يعد علي نور الدّين إلى السّلك الدّبلوماسي، لكن بداية من 1975 مُنح التقاعد.

الضخم المخصص لتاريخ ليبيا السياسي : "كان محيي الدين فكيني مشهوراً بصدقه واستقامته، وبجديته وقدرته على العمل، إلى جانب خبرته الغنية في مجال الاقتصاد والعمل الدبلوماسي. كما كان معروفاً بمواقفه القومية والوطنية، وبميوله التقدمية. وكان يدعم كل جهد في سبيل التحرر الوطني. كما كانت علاقاته ممتازة بالدول الإفريقية".[16] وفي بداية 1963 عندما أدرك الملك إدريس أنه لم يعد من الممكن تجاهل المطالب الواردة من شتى الشرائح الاجتماعية، اختلق أزمة حكومية في 19 من مارس وكلف الشاب محيى الدين فكيني بمهمة تشكيل الوزارة. ومع فكيني، وفد إلى السلطة شبّان تكنوقراط شغلوا المؤسسات الاقتصادية الهامة وشرعوا في تنفيذ الخطة الخمسية الأولى التي أقرت أخيراً بهدف ضمان تحسين سريع لمستوى معيشة الناس، ودعم وتشجيع الزراعة، ودفع التطور الصناعي، والتوسع في التعليم العام.

خلال أشهر قليلة، وبفضل نشاطه الحثيث وانفتاحه، بدا محيي الدّين فكيني في أعين الشباب ولدى العناصر التقدمية رجلَ القدر المناسب والمنتظر. تتوفر فيه كافة المعطيات كالانتماء لعائلة وطنية كبيرة والإقامة الطويلة في المنفى ؛ كما كان يتمتع بقوّة البيان والثقافة العميقة وكان السحر يفيض من محيّاه ؛ وكان قادراً على كسب تأييد الجماهير ؛ وكانت خطبه في القضايا الوطنية والشّعبية تذكّر بخطابات عبد النّاصر. للأسف لم يدم بقاؤه طويلا في الحكومة، إذ مكث قرابة عشرة أشهر فقط، ما يكفي ليعِد الفلاحين بملكية الأراضي، ولزيادة الأجور، ولمنح النّساء عبر تعديل المادة 102 من

---

[16] محمد يوسف المقريف، ليبيا بين الماضي والحاضر. صفحات من التاريخ السياسي، مكتبة وهبة، القاهرة، 2006.

الدّستور حقّ المشاركة في الانتخابات العامّة، وليفسح مجالا أوسع لحرية الصّحافة والإعلام، وليلغي الفيدرالية ويعلن الوحدة الوطنية للبلاد، ليثير بعض الحماس بين الطّلبة الشّباب من ذوي الميول الجمهورية، وفي هذه الفترة، استقبله كنيدي في البيت الأبيض.

هكذا مر محيي الدّين فكيني في السماء الليبية الصافية كالشهاب، وقد علّق المؤرخ صلاح الدّين السوري على رحيله قائلا: "لقد حلّ يصحبه برنامج إصلاحي كبير وطموح، لكن انتهى مطحوناً بين الآمال الكثيرة المنتظرة منه والإنجازات المتواضعة، بين الشوفينية الناصرية والروح اللامبالية للنظام، بين شعبيته المتنامية وغيرة زملائه".[17] والأمر اللافت هو أن الذين تضافروا ضده كانوا فعلا أنصاره، حتى وإن لم يتنبهوا لذلك. في 13 من يناير 1964، في الوقت الذي انعقدت فيه بالقاهرة قمّة عربية ضدّ إسرائيل، نزلت مجموعات من الطلاب من جامعتي بنغازي وطرابلس في مظاهرة نادت بهدفين : حضّ القصر على إعلان انضمام ليبيا التام إلى سياسة التضامن العربي وتأكيد مساندتهم لسياسة فكيني التقدّمية.

بخروجهم الطائش، إضافة إلى المواجهات اللاحقة مع الشّرطة، التي خلفت بعض القتلى، وفّر الطلبة للجناح المحافظ مبرراً لممارسة ضغوطات على الملك إدريس لعرقلة المسار الجديد الذي دشّنه محيي الدّين فكيني. كان الجنرال محمود بوقويطين، قائد القوات المتحركة ببرقة والمعارض العنيد لسياسة فكيني التقدمية، من أعطى أوامر إطلاق النار على الطلبة. بعد أن تأكد رئيس الوزراء، عبر لجنة تحقيق، من مسؤولية الجنرال وخمسة من ضباطه، في المواجهات

[17] S.H. Sury, *The Political Development of Libya. Trasformation of leadership*, «Asia-Africa-Latin America», Special Issue, n° 8, Akademie Verlag, Berlin, 1980, p. 127.

الدامية، طلب من الملك إدريس تعليق مهامهم فوراً بانتظار محاكمتهم. لكن الملك إدريس رفض اتخاذ هذا القرار، مما دفع محيي الدّين فكيني إلى تقديم استقالته في 22 من يناير.[18] وقد أوضح المؤرخ المصري سامي حكيم، في عملية إعادة بناء دقيقة للأحداث، كيف صاغ فكيني "رسالة استقالة مفصّلة"، وهذا بالتأكيد حادث فريد في تاريخ ليبيا.[19] فحتى في هذه الورقة الرسمية الأخيرة، أراد فكيني إعطاء صورة قانونية جليّة ومنسجمة.

"في الأول من سبتمبر 1969 كان محيي الدّين بباريس مع عائلته"، كما ذكر حفيد صاحب هذه السيرة المحامي الأستاذ أنور فكيني. "بعد شيوع خبر الانقلاب الذي حصل في ليبيا، أرسل محيي الدّين برقيّة تضامن إلى الحكومة الجديدة. وبصفته رجلاً سياسياً له مكانته، بادر إلى حثّ حكومات فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتّحدة للاعتراف بالنظام الجديد في ليبيا. لسوء الحظ تصرّفت حكومة الضباط الشبان بشكل غير متوقع وغير معقول، إذ احتلّ الجيش مزرعة محيي الدّين، التي كانت مقر إقامة رئيس الوزراء السابق".[20]

عاد محيي الدّين فكيني بعد عشرة أشهر إلى طرابلس، بعد أن حصل على ضمانات بسلامته، واستأنف عمله في المحاماة. وحين ألغى القذّافي ممارسة المهن الحرة خلال 1978، توقف عن أيّ نشاط عام وانشغل بمزرعته التي تبلغ مساحتها أربعة عشر هكتاراً من بساتين البرتقال في ضواحي طرابلس.

---

[18] بالنسبة لأحداث يناير 1964 وعزل محيي الدّين فكيني، أنظر: سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1968، ص 295-301 ؛ هذه ليبيا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1970، ص 73-79 و ص 131-132

[19] سامي الحكيم، حقيقة ليبيا، ص 295.

[20] شهادة أدلى بها أنور فكيني للكاتب بتاريخ 18 أكتوبر 2006.

ذكر أنور فكيني: "خلال 1987، وللمّرة الأولى، دعا القذّافي محيي الدّين وعلي نور الدّين فكيني إلى مقره. كان سبب الدعوة بيّناً، إذ حثّ القذّافي الأخوين للتوسّط لدى الرئيس التونسي بورقيبة، الذي كانت علاقته مع طرابلس متوتّرة، وذلك لعلمه بصلاتهما الوثيقة به منذ الأربعينات حين كانا في المنفى بتونس".[21] وبعد عام، التقى القذافي الأخوين مرة أخرى بمناسبة عشاء. لكن العلاقة ظلت فاترة وحذرة، ربما بسبب الشعبية الواسعة التي يحظى بها الرجلان في ليبيا. ومع ذلك يجب أن نذكر أنّ القذافي كلّف، عند وفاة محيي الدين، ممثلين عنه لحضور مراسم العزاء وهما عضوا مجلس قيادة الثورة : مصطفى الخروبي والخويلدي الحميدي.

4. بقي الحديث عن الأمين الابن الثالث لمحمّد فكيني، الذي وُلد في تارديه بالجبل سنة 1910. وكما ذكرنا سابقاً، قاد مجموعة المجاهدين المغامرين، التي واجهت في 10 من فبراير 1930، بتاكيومت، طلائع غراتسياني الأولى، بغرض السماح للمجاهدين وعائلاتهم باجتياز الحدود الجزائرية. أبدى الأمين أثناء عمليات تمرّد أخرى، شجاعة فائقة، لكن الرجل كان يعوزه الطموح، ويرفض الظهور، ويرتدي على الدوام لباسه على الطريقة العربية حتى لا يتميّز عن الناس. بخلاف إخوته، الذين أحرزوا مناصب رفيعة وحققوا مكاسب اقتصادية، اكتفى الأمين، في سنوات المنفى بتونس، بوظيفة حارس بسيط في ثكنة فرنسية، ومع العودة إلى أرض الوطن، قنع بوظيفة متواضعة في وزارة الزراعة، ولم يطلب تحسيناً لأوضاعه، حتى

[21] بسبب سياسة القذّافي العدائية مع دول الجوار، قطعت العلاقات الليبية التونسية فجأة في سبتمبر 1985، ثم جرى استئنافها خلال 1987، من المحتمل أيضا بسبب تدخّل الإخوة فكيني.

أثناء تولي أخيه محيي الدّين مقاليد الوزارة.[22]

حريّ بمحمّد فكيني أن يفخر بأبنائه، الذين مدّوا له يد العون في مختلف أنشطته أثناء حياته وتابعوا مسيرته بعد مماته، فقد حققوا إرادته بنشاط دافعين مشاريعه قدماً بعزم وثبات. ربما لم تكن ليبيا القذّافي على الصورة التي تطلّع إليها أبناء فكيني أثناء سنوات الجهاد والمنفى، لكنّهم قبلوا برضا ذلك النظام، حتى وإن حاصرهم وألحق بهم ضررا لدواع غير مفهومة، بدلاً من احتضانهم بصفتهم وطنيين ذوي قدرات عالية، . وحين كان النظام في حاجة إليهم، لم يتوانوا في ذلك، لتعلقهم الشديد بوطنهم ليبيا.

كان الأمين أوّل من رحل سنة 1980، ثم لحق به علي نور الدّين سنة 1988، ثم توفي محيي الدّين خلال 1994. من أبناء محمّد فكيني، ما زالت مريم على قيد الحياة، وتبلغ 88 سنة،[23] وهي طريحة الفراش لكن برغم عمرها المديد وعيشها القاسي، لم يغفل ذهن مريم الوقّاد عن أي شيء. فكما هو معلوم، هي ثالث ثلاثة شهدوا العبور الرهيب للعرق الشرقي الكبير. فهي التي رأت بأمّ عينيها والدتها عائشة تأتي لنجدة المحتضرين، تغمض أعين الموتى وتحثّ الأحياء على متابعة المسير. من بين الذّكريات الأخرى التي ما زالت تقلقها إلى اليوم العملية التي دبّرتها المخابرات الإيطالية لاختطاف محمّد فكيني من منفاه بتونس. فقد كان بالمرصاد لبعض الجواسيس الذين يراقبون حركة قادة الجهاد في المنفى، واستطاع أن يحبط مشاريعهم.

[22] من الأبناء الأربعة للأمين فكيني، حصل الابن البكر محمّد على الإجازة في الحاسب الآلي من الولايات المتّحدة. وفاضل، مهندس في الطيران، تابع دروس تخصصه في تشيكوسلوفاكيا، كما حصل على رتبة رائد في الجيش. أحيل على التقاعد سنة 1989، منذ ذلك الحين انشغل، مثل أخيه محمّد، بدراسة حقبة الجهاد الليبي. نحن مدينون للأخوين بمعلومات ثمينة وبإعارتنا كتبا نادرة.

[23] تزوجت مريم في سن الثامنة عشر من علي بوبكر، من قبيلة الرّجبان. حتى رحيل والدها، سنة 1950، بقيت تحت رعايته بقابس. أنجبت أربعة أبناء.

لكن التوتر في العائلة، كما تذكر مريم، كان مستمراً على الدوام.

5. أشرفنا تقريبا على نهاية هذه الرواية المثيرة، حيث تبدو الشخصيات وكأنها خارجة من صفحات "نشيد ملحمي بطولي". شخصيات مدهشة وأصيلة، ما زالت مجهولة إلى الآن أو أسيء فهمها أو مغيبة. شخصيّات ينبغي أن يردّ لها الاعتبار والتقدير لغنى ثقافتها، مع الاعتراف بحقوقها وتاريخها الذي ديس عليه بغير حق. الآن ونحن نغادرهم ونودعهم إلى مشاعر القراء وأحكامهم، نستسمح القارئ التذكير ببعض أولئك الذين كانوا الأكثر تأثيراً فينا والذين سنحتفظ بذكراهم إلى الأبد.

فلنتذكر المجاهدين

الذين نعرف منهم اليوم الاسم واللّقب

الذين دمروا التّحصينات الإيطالية

بشارع الشطّ والهاني وسيدي المصري

في أكتوبر الدّامي من عام 1911.

ولنتذكر الشيخ العجوز محمّد فكيني

الممتطي صهوة جواده على الدوام

البندقيّة الإيطالية مشدودة إلى الحِمالة

والسيف في يمينه

والعين ترصد مدافع غراتسياني.

ولنتذكر محمّد بن عبد الله

الذي عُدَّ من خيرة المجاهدين.

التقى في محروقة العقيد مياني

الأقوى والأكثر دهاءً منه

وخرّ صريعاً تحت راية النّبي الخضراء.

ولنتذكر حسن فكيني

الذي تعلّم محبّة إيطاليا

عندما كان طالباً في جامعة تورينو

أرسلوه ليلقى حتفه على الجبل

في مواجهة البربري خليفة بن عسكر

لنتذكر رمضان الشّتيوي

وحملته المأساوية الجنونية على بني وليد

لمقاتلة أحد خصومه

غافلاً أن العدو الحقيقي للجميع هو في طرابلس

يأتي من البحر ويتكلم الإيطالية.

لنتذكر حسين فكيني
في الثالثة عشرة بدأ مسيرته في ساحات المعارك
قرب ميناء زواره
وفي العشرين من عمره اختطفه الموت
عند آبار الوخيم.

لنتذكر كامل عراب
سقط في مضيق السّلامات
ترموبيلي الجديدة
وزوجته عائشة
التي قضت بمرض الملاريا في وادي تراباسو.
لنتذكر سليمان الباروني
وحلمه بتأسيس
إمبراطورية بربرية
تمتد من المغرب إلى مصر
خاب مسعاه جرّاء إفراطه في الاحتيال والخداع.

ولنتذكر الصبية الذين هلكوا

جوعاً وعطشاً وعناء

في صحارى القبلة وفزّان

و آباءهم الذين حفروا لهم

قبوراً ملساء في أعماق الرمل.

ولنتذكر أهالي النوفلية وتازربو

ممن ألقيت عليهم قنابل الغاز المبيد.

وبعد العودة من الغارات

احتفل الطيارون بفتح قوارير شامبانيا.

ولنتذكر رأس محمّد فكيني المقطوع

محمولا غنيمة إلى طرابلس

إلى الوالي بادوليو.

لكنّه كان رأس شهيد آخر غيره.

ولنتذكر الأمين فكيني

في تاكيومت معرقِلاً الملاحقين

سامحاً لحشود المنسحبين

بالاحتماء في الجزائر.

عزف عن أيّ تكريم

ومكث في الظلّ.

ولنتذكر عبد النبي بالخير.

سيد ورفله القويّ.

نجا من ألوف الكمائن

دفن في الصّحراء مع خمسين فارساً

جرّاء عاصفة رملية.

لنتذكر عائشة نوير

تسكب قطرات الماء الأخيرة

بين شفاه المحتضرين

في جحيم العرق الشّرقي الكبير.

لنتذكر يوسف خربيش

وفي جبال الدّنانير

المكدّسة جرّاء الخيانة.

سلّم موسوليني

سيف الإسلام دون حياء.

لنتذكر علي نور الدّين

الموظف الأمين للملك إدريس

اضطر إلى انتقاد الملك

في قصيدته القارعة

وفضح بطانته الفاسدة المخاتلة.

لنتذكر محيي الدّين فكيني

رئيس وزراء الملك.

سُرِّح من مهامّه

لمناداته بليبيا

التقدّمية الخالية من السّادة.

في النّهاية لنتذكر مئة ألف من القتلى

قدّمتهم ليبيا

لنيل حرّيتها.

ستّون ألفاً في الحرب

أربعون ألفاً بين أسلاك المعتقلات.

مئة ألف قتيل.

وبحساب سريع

واحد من كل ثمانية ليبيين

وهب حياته لأرضه.

الملحقات

رؤوساء الوزارات

الرئاسة	من	إلى
جوليتي	30 مارس 1911	19 مارس 1914
سلندرا	21 مارس 1914	5 نوفمبر 1914
سلندرا	5 نوفمبر 1914	18 يونيو 1916
بوزيللي	18 يونيو 1916	29 أكتوبر 1917
أورلندو	29 أكتوبر 1917	23 يونيو 1919
نيتي	23 يونيو 1919	21 أبريل 1920
نيتي	21 أبريل 1920	15 يونيو 1920
جوليتي	15 يونيو 1920	4 تموز 1921
بونومي	4 يوليو 1921	26 فبراير 1922
فكتا	26 فبراير 1922	1er أغسطس 1922
فكتا	1 أغسطس 1922	31 أكتوبر 1922
موسوليني	31 أكتوبر 1922	25 يوليو 1943
بادوليو	25 يوليو 1943	8 سبتمبر 1943

وزراء إفريقيا الإيطالية

الوزراء	من	إلى
ـلسوني	8 أبريل1937	20 نوفمبر1937
موسوليني	21 نوفمبر1937	30 أكتوبر 1939
تروزي	31 أكتوبر1939	25 يوليو1943
غبا	25 يوليو1943	8 سبتمبر1943

ولاة طرابلس الغرب

الولاة	من	إلى
بوريا ريتشي دولمو	5 أكتوبر 1911	13 أكتوبر 1911
كانيفا	13 أكتوبر 1911	18 يونيو 1912
رانيي	2 سبتمبر 1912	1 يونيو 1913
غاريوني	1 يونيو 1913	1 أكتوبر 1914
تشيليانا	2 أكتوبر 1914	16 أكتوبر 1914
درويتي	16 نوفمبر 1914	5 فبراير 1915
تاسوني	5 فبراير 1915	15 يوليو 1915
أميليو	15 يوليو 1915	8 أغسطس 1918
غاريوني	8 أغسطس 1918	16 أغسطس 1919
منزنغر	16 أغسطس 1919	10 يوليو 1920
نيكولي	11 يوليو 1920	31 يوليو 1920
ميركاتيللي	1 أغسطس 1920	16 يوليو 1921
فولبي دي مصراتة	16 يوليو 1921	3 يوليو 1925
دي بونو	3 يوليو 1925	18 ديسمبر 1928
بادوليو	18 ديسمبر 1928	31 ديسمبر 1933
بالبو	1 يناير 1934	28 يونيو 1940

صفحتان من مذكرات محمد فكيني

صفحة من مذكرات محمد فكيني مكتوبة بخط يده

فمرة وأضبطنا التسليم وطووا بساط المراجعة ولم يبق لهم إلا تقديم تلك المصلحة
للدولة الإيطالية كغيرهم من قبلهم من أهل جنزور وورشفانة ويركبون مراكبهم ويذهبون
بصغار وتبا سمعت وتمثلت بقول الشاعر

وكنت أرى زيدا المائل سيدا ❁ إذا أنه عبد القفا واللهازم ❁

بعض الذي تقدم إليهم بقلب قوي والغيث عليهم خطابا رجعت به بعض الأرواح إلى أبدانها
وبعده الذي استقر الرأي على أن نجعله العهد وبالأكثر تعاهدنا على ذلك الرفيق منا وقلنا جميعا

فيارب هل إلا بك النصر يرتجى ❁ عليهم وهل إلا عليك المعول ❁

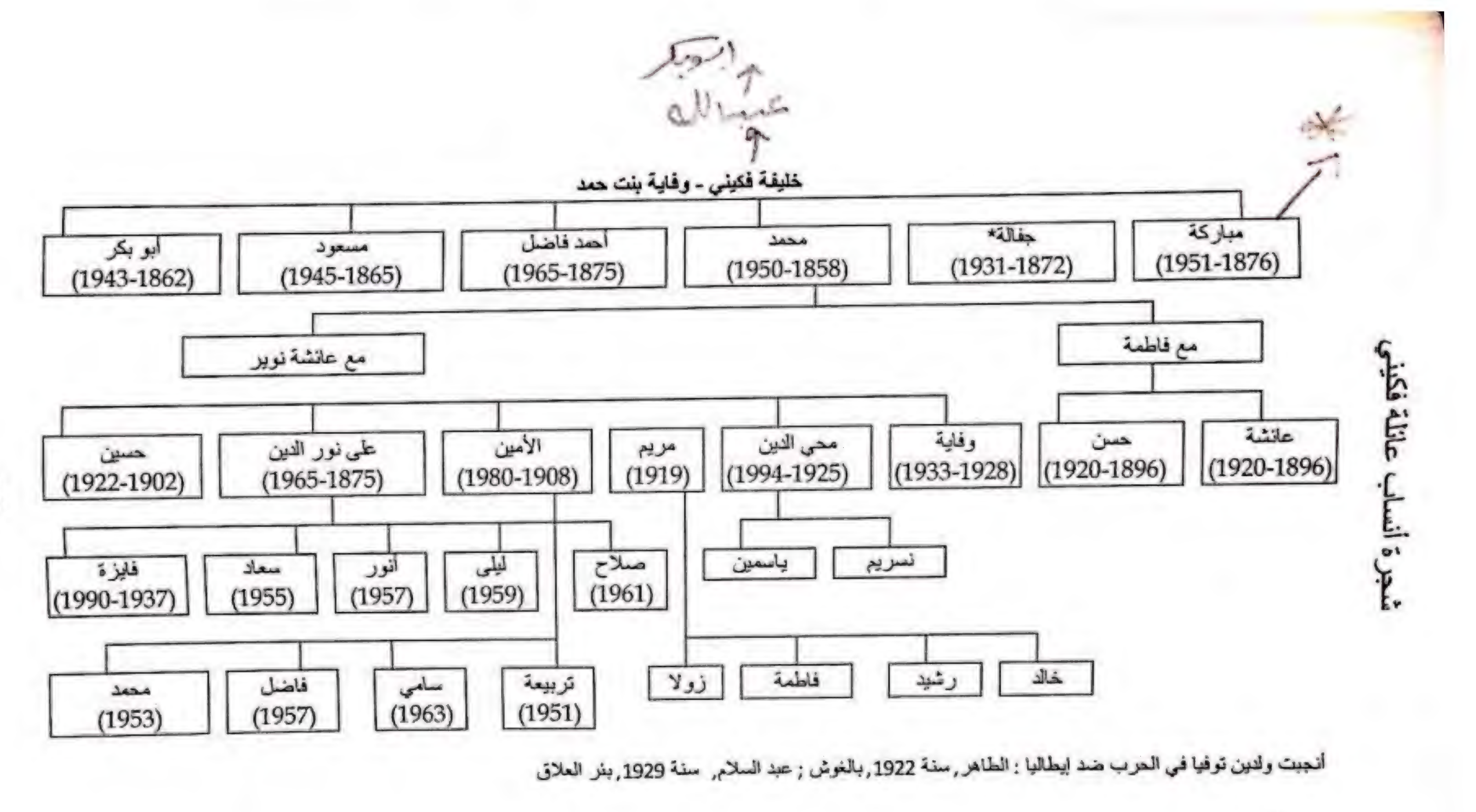
ثم إن القوم إذا افرح عندنا عدة أشياء وحاجتنا إلى ذلك تتعمر من الفرح والسرور أولا إلا
سراع الجمع إلى البلاد لنقل العساكر والمحطات الحربية للجبل حسب أمر ناظر الحربية التلغرافي
ثانيا حيث أن النقطة الحربية الجبلية أهمها غريان وكان أهلها متحصنين بالتسليم لإيطاليا
ثم أفعل بمكان مركز الولاية وضواحيها ما الواجب أن أفعل كل شيء وأن تمروا عليهم وتنظروا ما
هم عليه وتوحدوا الكلمة معه وفي ضحى الليلة وهي ليلة الجمعة الموافقة لشوال الخ
منه ثلاثة عشر ليلة سنة التاريخ نزلت العساكر الإيطالية البحرية وأصوات المدافع لها
ارتجاس كل ... من الغد طار وجوعنا إلى العزيزية ولاقانا بعض أعيان ورشفانة منهم
أبناء علي بن تنتوش فقصصنا عليهم ما وعد الله لعباده المجاهدين ودعوناهم بأعداد
أنفسهم للمدافعة والذب عن دينهم ووطنهم وشرفهم العربي وأنه لا يليق تسليم بلدة

تكرم بتسليم الصور المحامي أنور فكيني

صفحة من مذكرات محمد فكيني دونها أحد كتبته

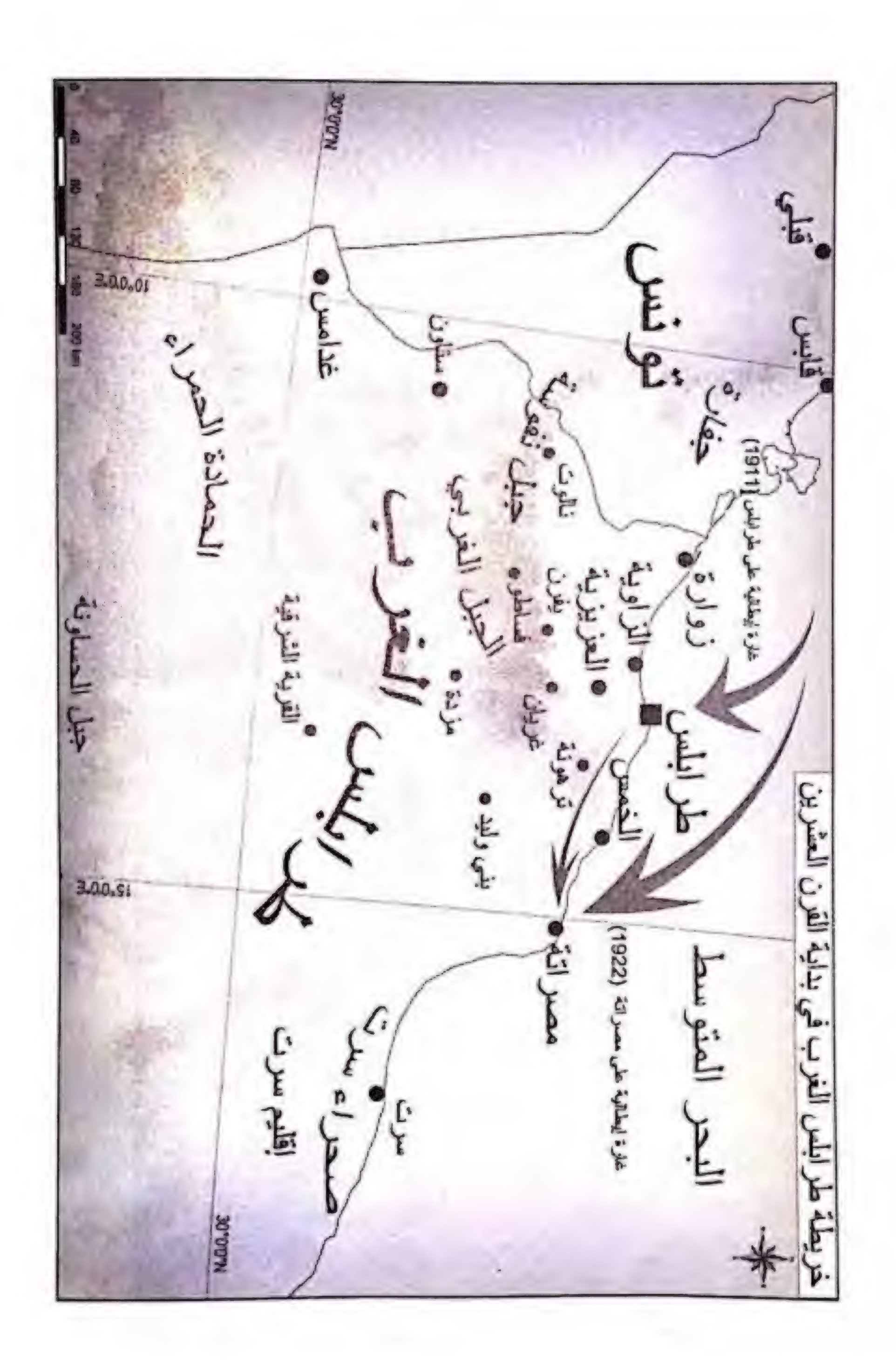
تكرم بتسليم الصور المحامي أنور فكيني

شجرة أنساب عائلة فكيني



أنجبت ولدين توفيا في الحرب ضد إيطاليا : الطاهر, سنة 1922, بالغوش ; عبد السلام, سنة 1929, بئر العلاق


رحلة عائلة فكيني والقبائل الليبية من 1926 إلى 1932
توزر
نفطة
الواد
الحامة
قابس
قبلي
شط الجريد
طيبة
البحر المتوسط
ورقلة
تونس
طرابلس
حاسي مسعود
نالوت
الجزائر
مزدة
العرق الشرقي الكبير
غدامس
القرية الشرقية
الحمادة الحمراء
برج عمر إدريس
ليبيا
الحجاج
إليزي
إدهان
براك
أوباري
مرزق


خريطة طرابلس الغرب في بداية القرن العشرين
البحر المتوسط
غارة إيطالية على طرابلس (1911)
غارة إيطالية على مصراتة (1922)
طرابلس الغرب
تونس
قابس
قبلي
جفارة
زوارة
الزاوية
العزيزية
طرابلس
الخمس
مصراتة
ترهونة
بني وليد
غريان
مزدة
يفرن
فساطو
شكشوك
تالوت
جبل نفوسة
الجبل الغربي
سيناون
غدامس
الحمادة الحمراء
القرية الشرقية
جبل الحساونة
سرت
صحراء سرت
إقليم سرت

قسم الصور



1.1

1.عائلة فكيني



I.II

II. الحرب الإيطالية التركية



211

II. الحرب الإيطالية التركية



3.II



4.II

II. الحرب الإيطالية التركية





II. الحرب الإيطالية التركية



4.III



5.III

III. إحتلال فزان والثورة العربية الكبرى



1.IV



2.IV

IV. القانون الخاص وفاصل السلام



3.IV



4.IV

IV. القانون الخاص وفاصل السلام



5.IV



6.IV



7.IV



8.IV

IV. القانون الخاص وفاصل السلام



٧.٤٥



٧.٤٦

IV. القانون الخاص وفاصل السلام



1.٧





2.٧

٧. حرب الجبل وفزان



3.V



4.V



5.V



6.V

٧. حرب الجبل وفزان



٦.٧





٨.٧

٧. حرب الجبل وفزان



9.V



10.V

V. حرب الجبل وفزان



1.VI



2.VI

VI. سنوات المنفى





٤٧١

٧١. سنوات المنفى



5.VI

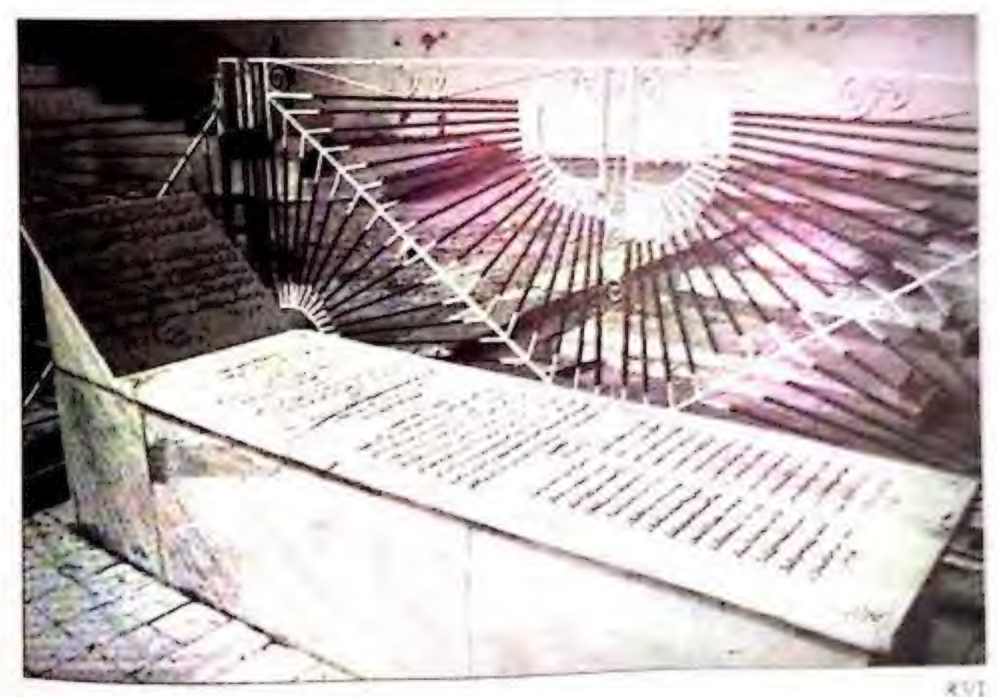


6.VI

VI. سنوات المنفى



٣٧١



٤٧١

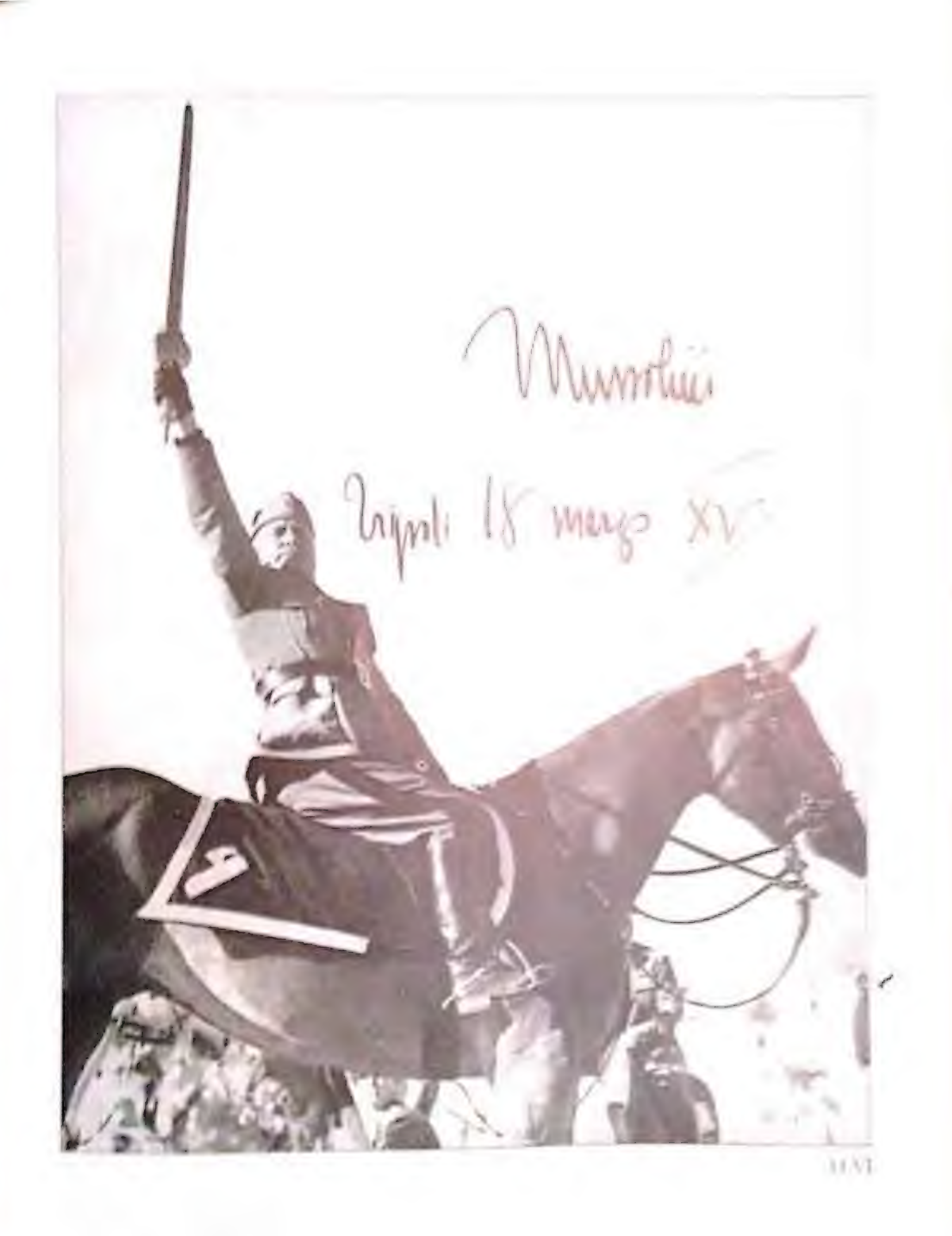


9.VI



10.VI

VI. سنوات المنفى



VI. سنوات المنفى



1.VII



2.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة



3.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة

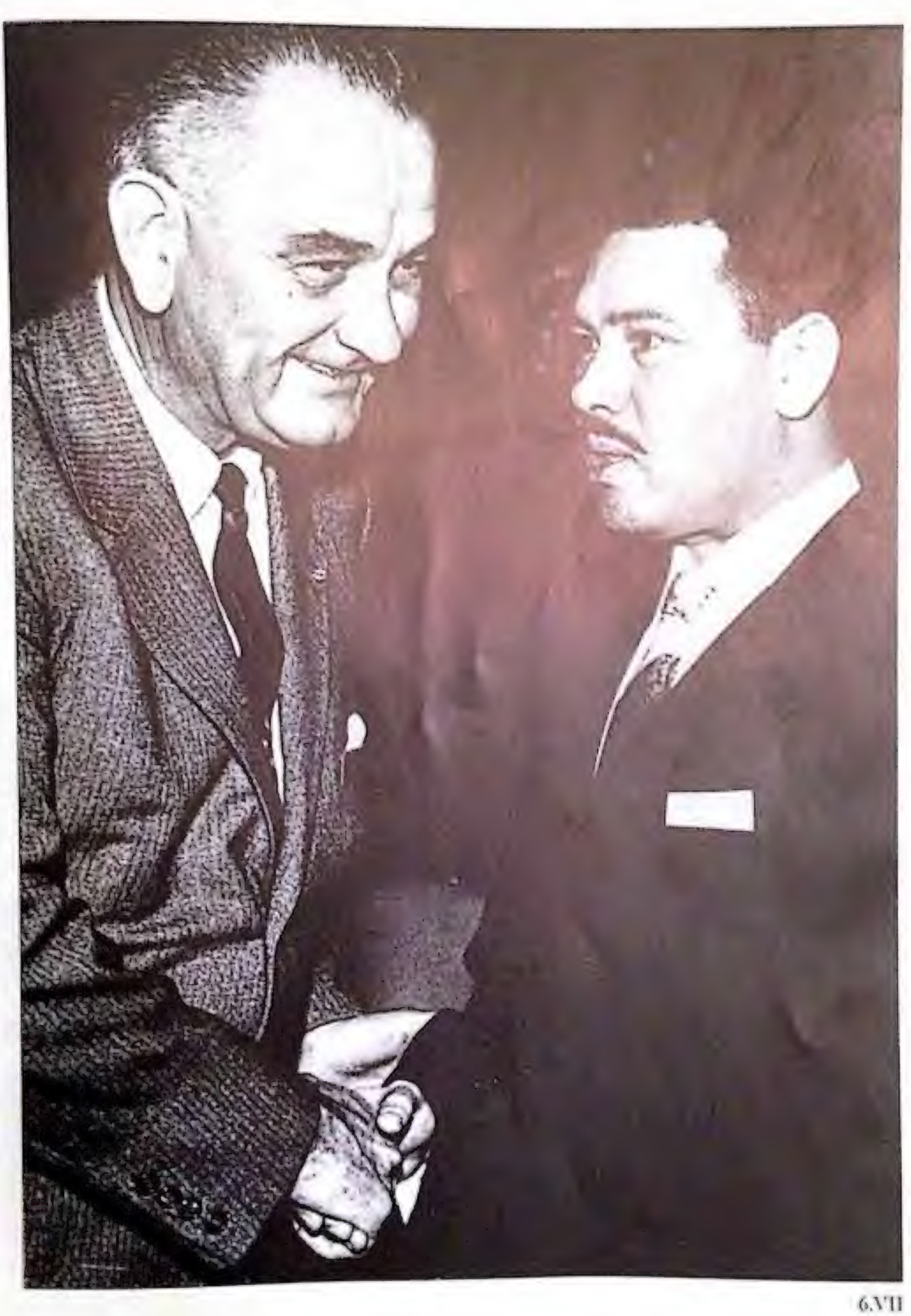


٤.VII



٥.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة



6.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة



7.VII



8.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة



9.VII



10.VII

VII. العودة إلى ليبيا المستقلة

I-عائلة فكيني

1. الحاج محمد خليفة فكيني، زعيم الرجبان، في سن الثالثة والخمسين، لحظة نزول الإيطاليين بطرابلس. كان من بين أوائل القادة الذين نظموا الكفاح المسلح ضد الغزاة بطرابلس الغرب، موجهين ضربة قوية للجنرال كانيفا. حين أقرت إيطاليا القانون الخاص لليبيين، في 1919، تحول مباشرة إلى مدافع متحمس على أمل إرساء تعاون مثمر بين الشعبين. داست الفاشية في 1922 تلك التنازلات الليبرالية فاستأنف محمد فكيني الكفاح، الذي قاده على مدى عشر سنوات، في القبلة وفزان. أجبر على سلوك طريق المنفى، سنة 1930. توفي بقابس سنة 1950، في سن الثانية والتسعين.
2. بطاقة تعريف حسن فكيني التي سلمت له سنة 1917 من جامعة تورينو.
3. حسين فكيني، الإبن الثاني لمحمد. إنضم في سن الثالثة عشر إلى محلة الوالد وشارك في حصار زوارة. سقط في مواجهات سنة 1922، في سن العشرين، أثناء معركة ضارية بالوخيم ضد وحدات قادها الجنرال غراتسياني.
4. حسن فكيني، الابن البكر لمحمد. بعد أن زاول تعليمه في معهد بدمشق ، سجل سنة 1917 في كلية الحقوق بجامعة تورينو. مولع بالثقافة والمجتمع الإيطاليين توهم القدرة، بشكل متزن، على بناء جسر بين الحضارتين. كلف من طرف حكومة طرابلس بمهمة إخماد انتفاضة في الجبل، غير أنه سقط في مواجهة البربري خليفة بن عسكر. النائب في مجلس الشيوخ الإيطالي، غايطانو

موسكا، الذي عده بمثابة واحد من أولاده، أبّنه في البرلمان. رحل حسن وهو في السن الرابعة والعشرين.

5. حسن فكيني، جالس في الوسط، أثناء إقامته في دمشق.
6. علي نور الدين فكيني، في زي تقليدي ليبي. شديد الوفاء لأبيه، كان الذراع اليمنى والمواصل لخطة السياسي الوطني. بعودته إلى أرض الوطن، بعد المنفى، عين من طرف الملك إدريس في السلك الدبلوماسي شغل سفير ليبيا بتونس، تولى تلك المهمة ست سنوات، حتى دخوله في خصومة مع الملك الذي أحاطت به بطانة فاسدة. هو رجل أعمال ناجح ودبلوماسي حاذق، وهو أيضا مؤلف لديوان شعري، روى فيه سنوات الكفاح المسلح العسيرة ضد إيطاليا وسنوات المنفى.
7. الأمين فكيني، ولد في تاردية سنة 1910. كان دائما رفقة الأب في المقاومة ضد الإيطاليين. زمن خروج القبائل الليبية المسلحة نحو الجزائر، قاد حشد المجاهدين الذي خفف ضغط الملاحقين، مما سمح لجموع الخارجين باجتياز الصحراء التابعة لفرنسا. كان شخصا في منتهى البساطة، زهد في أي تكريم.
8. محيي الدين فكيني، ولد في سنة 1925 في فزان، أثناء سنوات الكفاح المريرة في الصحراء. من بين أبناء محمد، كان الإبن الذي ترقى في المجتمع الليبي. هو مجاز في الحقوق من جامعة السوربون، شغل سفير ليبيا في القاهرة وواشنطن والأمم المتحدة وفي الأخير تولى منصب رئاسة الوزراء. أبعده فجأة الملك إدريس حين شرع في عملية تجديد مست مصالح الطبقة المحافظة في السلطة. أنهى مشواره منشغلا بمزرعة في ضواحي طرابلس.
9. مريم فكيني، ولدت في تاردية سنة 1919 وما زالت على قيد الحياة. في الثامنة عشر تزوجت من علي بو بكر من قبيلة

الرجبان فرزقت أربعة أبناء. في سن الحادية عشرة شاركت في مسيرة الصحراء الجزائرية التي ما زالت تحتفظ عنها بذكريات حية.

II- الحرب الإيطالية التركية

1. الجنرال المكلف كارلو كانيفا، قائد البعثة الإيطالية إلى ليبيا. منفذ صارم لأوامر جوليتي، يعتبر المسؤول الأول عن الفظائع التي اقترفت بعد هزيمة شارع الشط. غادر جانب كبير من الصحفيين الأجانب المتواجدين بليبيا البلد احتجاجا على الجنرال الذي أمر، إنتقاما، بنفي 4000 ليبي وبقتل عدد كبير من سكان واحة طرابلس. رغم أنه كان تحت إمرته 100.000 رجل وأسلحة فتاكة متطورة، عجز عن إلحاق الهزيمة بخصومه.
2. العقيد نشأت باي، القائد العام للقوات التركية المتواجدة سنة 1911 بولاية طرابلس الغرب. على مدى سنتين تقريبا، وبوسائل متواضعة لكن بمساندة تامة من الأهالي العرب، تيسر له الثبات أمام تقدم القوات الإيطالية. أثناء فترة السلام، إستطاع الجنرال كانيفا مد بعض رؤوس الجسور فقط ، لكن لم يتجاوز التقدم في أي قطاع، خمسة عشر كلمترا.
3. جنود إيطاليون في خندق سيدي المصري أثناء معركة 26 أكتوبر 1911، التي قادها نشأت باي وسليمان الباروني ومحمد فكيني. لصد الهجوم العربي التركي، توجب على الجنرال كانيفا الدفع بقوات الإحتياط.

4. بعد معركة شارع الشط، في 23 أكتوبر 1911، التي كلفت الإيطاليين مئات الأرواح، تلتها عملية تنكيل فظيعة أمرها الجنرال كانيفا. هذه صورة لإعدام ثلاثين عربيا على أطراف واحة طرابلس.
5. رسم على صورة التقطت بطرابلس في أكتوبر 1911 على أثر مواجهات شارع الشط. الكتابة المرافقة للصورة ناقصة :« شنق أربعة عشر عربيا خائنا ». طبعا إن الأربعة عشر ليبيا لم يحظوا بأي محاكمة ولم يتلقوا أي مرافعة. عادة ما كانت تجري أعمال الشنق في طرابلس، ساحة الخبز وهدفها ترويع الأهالي العرب.
6. إعتقال عرب بعد مواجهة شارع الشط، يقتادون إلى الميناء لنفيهم على متن السفن. تحت رغبة ملحة من جوفاني جوليتي، جرى ترحيل 4000 ليبي إلى إيطاليا، العديد منهم لم تربطهم صلة بالمواجهات التي جرت في واحة طرابلس، وزعوا على خمسة وعشرين محتشدا. أعداد كثيرة منهم، بعد هذه الرحلة، لم تعرف العودة لأرض الوطن.
7. مشهد حربي في الميدان العربي التركي بفندق بن غشير. بدون معاضدة المحلات العربية، كان سيدب الهلع في القوات التركية التي تعسكر بالولاية، خلال بعض الأسابيع. في الطرابلس الغرب وحدها قدرت أعداد المتطوعين العرب ب30.000 نفر.
8. كانت المقاومة العربية التركية في برقة بقيادة أنور باي، الذي سيصير وزير الحرب التركي لاحقا. في الصورة، عرض للقوات الليبية في معسكر عين المنصور القريب من درنة، التي يحتلها الإيطاليون. شارك أنور باي في الاستعراض على صهوة جواده الأبيض.

III-إحتلال فزان وإندلاع الثورة العربية الكبرى

1. محروقة، 24 ديسمبر 1913. العقيد أنطونيو مياني (في الوسط) يمسك الراية الإيطالية التي اخترقها ثلاث رصاصات، بعد الإنتصار العسير على محمد بن عبد الله. قد دحر مياني مرتين المدافعين عن فزان، ملحقا فضاء شاسعا بإيطاليا. (وثائق مياني التي بحوزة الكاتب، قسم الصور، الصورة رقم 98) .
2. محروقة، 24 ديسمبر 1913. إبتهاج العسكر الأريتريين بالإنتصار على محمد بن عبد الله، الذي يعد من أشرس القادة العرب. في المقدمة فصيلة من الفرقة الثالثة التابعة للفيلق الخامس، الذي غنم الراية الخضراء للمجاهدين. (وثائق مياني التي بحوزة الكاتب، قسم الصور، الصورة رقم 100) .
3. براك، فبراير 1914، ضباط إيطاليون وأعيان من فزان يتأملون العين الكبرى بواحة براك. (وثائق مياني التي بحوزة الكاتب، قسم الصور، الصورة رقم 119).
4. مرزق، 3 مارس 1914. العقيد مياني، في الوسط، ألتقطت له الصورة على أبواب مرزق، عاصمة فزان، التي غزاها خلال أشهر وخسرها خلال أيام, فكان أشهر ضحايا الثورة العربية الكبرى. (وثائق مياني التي بحوزة الكاتب، قسم الصور، الصورة رقم 141)
5. مرزق، 3 مارس 1914. عبد النبي بلخير يمتطي صهوة جواد الموشى سرجه بالفضة والمخملي. تذكر الكتابة التي دونها مياني : « من أعيان ورفلة، وفي, ومتعاون مخلص وذكي مع قيادة الحملة على فزان ». مياني، في تلك الفترة، ما كان يراوده شك أن عبد النبي بلخير سيغدر به يوما، بل سيكون واحدا من بني

مشعلي الثورة العربية الكبرى (وثائق مياني التي بحوزة الكاتب، قسم الصور، الصورة رقم 163) .

IV- القانون الخاص وفاصل السلام

1. طرابلس، يونيو 1919. الدخول الحافل للمجاهدين إلى عاصمة طرابلس الغرب بعد توقيع الإتفاق على القانون الأساسي. يتقدم الموكب الأعضاء الثمانية العرب في مجلس الحكومة. يلاحظ أن الجنود الإيطاليين، الذين يشاركون في الموكب، جرابهم مرفوعة : حفل بهيج لكن حذر كبير من جانب السلطات الإيطالية.
2. طرابلس، يونيو 1919. عرض لموكب المجاهدين، يتشكل من ثلاثة آلاف محارب على ظهور الخيل وسيرا على الأقدام. في المجموعة الأولى كافة القادة الذين أذكوا نار الثورة الكبرى وأسسوا الجمهورية الطرابلسية.
3. طرابلس، يونيو 1919. عرض لحشد كبير من المجاهدين على الأقدام، برايات مختلف المحلات. إمتدت الإحتفالات على ثلاثة أيام وقد انتقدت بشدة من طرف الضباط الإيطاليين، مثل غراتسياني، الذين عارضوا أي تنازل لليبيين.
4. طرابلس، يونيو 1919. صورة أخرى للإستعراض. مثل الإعتراف بالقانون الخاص لليبيين أوج الحقبة التحررية للحكومة الإيطالية. لكن لم تساير الوعود الوقائع، فقد ألغت الفاشية أي تنازل، مشعلة لهيب الثورة في كافة أرجاء البلاد.
5. طرابلس، سبتمبر1919. هذه الصورة وما بعدها ألتقطت من مكلفين إيطاليين بعد الإعلان عن القانون الخاص، الذي دشن فترة

خاطفة، للأسف ، من السلام بين الشعبين. الجالسان في العربة هما محمد فكيني والجنرال تارديتي، الذي كان له دور مصيري في المفاوضات والسماح بالقانون الخاص لليبيين. في المستوى الأول، الكاتب العام للحكومة، أوغو نيكولي.

6. طرابلس، سبتمبر 1919. يبدو من خلال الصورة حسن فكيني، متكأ على الطرف الأيسر من الباب، محمد فكيني، في الوسط، حذو الجنرال الإيطالي. في الصف الأول، بالعصا، الحاج بي كعبار، قائمقام غريان تحت الحكم التركي.

7. طرابلس، سبتمبر 1919. إيطاليون في زيارة إلى مربى للنعام، في أحواز طرابلس. في الوسط، الشاب حسن فكيني بطربوشه وجاكيتته الفاتحة اللون.

8. طرابلس، سبتمبر 1919. لقاء بين قادة ليبيين وضباط إيطاليين داخل قلعة طرابلس، مباشرة بعد إتفاقات خلة الزيتون. على اليسار، حيث الوجه شبه مغطى بالحولي، أحمد المريض يمد يده لمصافحة سليمان الباروني. في الوسط ملتفتا قليلا، محمد فكيني.

9. طرابلس، سبتمبر 1919. الشاب حسن فكيني جالس في السيارة، يشير إليه شخص. كان يحوز الشاب تقديرا كبيرا في الأوساط الاستعمارية الإيطالية لثقافته ولتفتحه على إيطاليا.

10. طرابلس، فبراير 1919. مجموعة من الأعيان الليبيين في زيارة إلى معسكر الطيران بالملاحة. في الوسط، الخامس على اليمين، يبدو الشاب علي نورالدين فكيني. على يمينه، مهدي السني ; على يساره، علي الشنطة.

V- حرب الجبل وفزان

1. تاردية. قبر حسن فكيني المتواضع على بعد مئات الأمتار من بلدته. شيد من حجارة المكان في نفس النقطة التي خر فيها صريعا جراء الطلق المكثف.
2. تاردية. قبر حسن فكيني، وقبالته الصخرة التي حاول التواري خلفها بعد نفاد ذخيرة بندقيته. الطريق التي تقود إلى تاردية تمر على مقربة من القبر.
3. مسكن عائلة فكيني بتاردية، على أثر بعض الترميات. قصفته طائرات الجنرال غراتسياني، ثم نهب لاحقا وألهمت فيه النيران.
4. تاردية. داخل بيت عائلة فكيني. الطابق الأرضي جرى ترميمه، في حين ما زالت الطوابق العليا تشهد على آثار قصف الطائرات.
5. آبار الوخيم. في هذا المكان حقق محمد فكيني في 3 يونيو إنتصارا جليا على غراتسياني، لكن خسر في المعركة الإبن الثاني، الشاب حسين.
6. مضيق السلامات. في هذا المكان بالأساس، وبمرارة، حاول محمد فكيني في 18 يونيو 1928 الإحاطة بوحدات غراتسياني، لكن نقص العتاد والمحاربين منعه من الثبات طويلا. هزم مرتين، مما أجبره على الإنسحاب نحو الصحراء.
7. طرابلس، 29 مايو 1925. صورة للذكرى للمنتصرين في المرحلة الأولى من قمع الإنتفاضة. في الوسط، والي طرابلس الغرب، جيوسيي فولبي. على يمينه، حسونة باشا القرامنلي، شيخ مدينة طرابلس، والكاتب العام للحكومة، أوغو نيكولي. على يسار الوالي، البربري يوسف خربيش والجنرال رودولفو غراتسياني. ألتقطت الصورة داخل قلعة طرابلس.

8. سيدي رحومة، 19 يونيو 1929. اللقاء بين والي ليبيا، الماريشال بييترو بادوليو وزعيم المقاومة في برقة، عمر المختار (الأول على اليسار بلحيته البيضاء). بعد فشل المفاوضات، شنق بادوليو خصمه متهما إياه، بدون مبرر، بخرق الإتفاقات.

9. سيدي رحومة، 19 يونيو 1929. صورة أخرى للقاء بين بادوليو وعمر المختار. الزعيم الليبي على اليسار، وفي الصف الثاني، فاضل بو عمر، نائب عمر المختار ومستشاره المقرب. سيلقى حتفه في خريف 1930 أثناء عملية تمشيط قام بها العقيد جوسيبي مالطا.

10. طرابلس، يناير 1930. غراتسياني وبادوليو جنبا إلى جنب استطاعا، بممارسة الإجراءات الأكثر تعسفا، إجهاض الإنتفاضة في طرابلس الغرب وبرقة. لمنع أي مساندة لعمر المختار رحلا حشودا كبيرة من أهالي برقة وأغلقا عنهم في ثلاثة عشر محتشدا، بلغ تعداد الموتى 4000 هالك.

VI- سنوات المنفى

1. وثيقة تثبت تعاون محمد فكيني وابنه علي نورالدين مع الفرنسيين ضد قوات المحور، حتى في المنفى. تبين الصورة الجنرال لوكلير وهو يمر مستعرضا القوات الفرنسية والمجاهدين أتباع أحمد سيف النصر، تحت حصون القاهرة بسبها، كتب غازي الكفرة وفزان في الإهداء: « إلى السيد علي نور الدين باي فكيني، ذكرى اللقاء بين جنديين ».

2. قبلي، 1914. محمد فكيني بصحبة إبنه الشاب محيي الدين في الجنوب التونسي، إحدى الأماكن الكثيرة التي قامت بها عائلة فكيني أثناء سنوات المنفى.
3. قبلي، 1944. أيضا محمد فكيني بصحبة إبنه محيي الدين في بيت الأسرة بقبلي، الذي توجب على العائلة مغادرته على عجل في يناير 1943، حين تحول الجنوب التونسي مسرحا للمواجهات بين قوات المحور والقوات الأنجليزية الأميركية.
4. قابس، 1947. عائشة نوير، زوجة محمد فكيني، في بيت قابس الذي أختير كمقر نهائي، بجانبها الإبن محيي الدين والصبية فائزة، إبنة علي نورالدين.
5. باريس 1949. محيي الدين فكيني، طالب في الحقوق بجامعة السربون، أثناء القيام بمداخلة في إجتماع لطلبة شمال إفريقيا.
6. قابس، 1949. إحدى آخر صور محمد فكيني. بجانبه الإبن علي نورالدين، ذراعه اليمنى وخلفه في الشأن السياسي.
7. قابس. قبر محمد فكيني في مقبرة سيدي أبي لبابة الأنصاري. في بحر من القبور الصغيرة، متجهة شطر مكة، يظهر قبر فكيني، وقد حظي بسياج من الحديد الملون لحمايته.
8. قابس. قبر محمد فكيني، نقشت على صفيحة الرخام بعض المعلومات عن حياة المجاهد الليبي ومرثية للإبن علي نورالدين كتبها بمناسبة رحيل والده، في مستهلها : " هذا الزعيم الذي كالشمس مطلعه هذا الفكيني الذي كالبحر ماضيه ".
9. منطقة بوغارة (طرابلس)، 18 مارس 1937. في الوقت الذي تكابد فيه عائلة فكيني في الجنوب التونسي شظف العيش والخصاصة في المنفى، كان البربري يوسف خربيش، الرفيق السابق لمحمد فكيني والذي تحول لاحقا لخدمة الإيطاليين، يكدس مالا وفيرا ويترقى إلى المرتبة الأولى في شلة المتعاونين. في

الصور 9، 10 و11، ثلاث لقطات لإهداء سيف الإسلام، روجتها الدعاية الفاشية كإحدى المشاهد المعبرة للنظام. في الصورة الأولى، يمسك يوسف خربيش بين يديه سيف الإسلام، من الذهب الخالص. بعد قليل يترل يوسف خربيش من فوق ظهر حصانه ليسلمه إلى موسوليني.

10. موسوليني ينحني قليلا ليتسلم، من يدي يوسف خربيش، سيف الإسلام. بالمناسبة حضر بمنطقة بوغرة ألفا فارس ليبي بأزيائهم التقليدية.

11. موسوليني شاهرا سيف الإسلام باتجاه السماء. بالنسبة للزعيم الفاشي يمثل أوج المجد : فقد خرج في التو منتصرا من حرب مع أثيوبيا فأكسبت إيطاليا إمبراطورية. الآن، ممسكا في قبضته السيف الذهبي، يصرح بأنه راعي كل المسلمين في العالم، من المغرب إلى أندونيسيا، متناسيا أنه جعل على الأقل عشرة ملايين منهم عبيدا، في ليبيا وأثيوبيا وأريتريا والصومال.

VII- العودة إلى ليبيا المستقلة

1. البيت الذي يسكنه حفداء علي نورالدين والأمين فكيني اليوم بشارع ميزران، رقم 114، وسط طرابلس. شيد البيت من طرف غراتسياني خلال 1928 على مساحة تملكها عائلة فكيني، قد أنتزعت ملكيتها سنة 1924. نقشت على اللوحة التذكارية عند المدخل هذه الكتابة باللغة الإيطالية : « شركة اليقظة التعاونية للإعمار ». سلم البيت بعد إستقلال ليبيا إلى عائلة فكيني.

2. الملك إدريس الأول عاهل ليبيا. زعيم الطريقة السنوسية، عارض التواجد الإيطالي ببرقة وقد كلف عمر المختار بقيادة الكفاح المسلح. بعد هزيمة قوات المحور، نصب على عرش ليبيا من طرف بريطانيا العظمى. عبر إنقلاب سياسي أبيض، أزاحه العقيد الشاب معمر القذافي عن العرش سنة 1969.
3. علي نورالدين فكيني خلال الستينات، بتونس، هيئة سفير مملكة ليبيا. تولى مهامه على مدى ست سنوات، إلى حين دخوله في خصومة مع الملك إدريس، الذي أحاطت به بطانة فاسدة ومخاتلة.
4. على نورالدين في تونس، خلال 1963، برفقة ثلاثة من أبنائه. على اليمين، فائزة، التي ولدت على إثر الزواج الأول من عزيزة بنت سالم عبدالنبي. في المقدمة سعاد والصغير أنور، الذي سيصير لاحقا محاميا دوليا وسيكون الدافع وراء تأليف هذا الكتاب
5. القاهرة، 1957. محيي الدين فكيني، الذي عينه الملك إدريس سفيرا في مصر، يقدم أوراق اعتماده إلى الرئيس المصري الأسبق جمال عبد الناصر.
6. واشنطن، 1960. محيي الدين فكيني، سفير المملكة الليبية في الولايات المتحدة والأمم المتحدة، يتلقى بنائب الرئيس الأمريكي ليندون باينس جونسون.
7. طرابلس، 1963. في هيئة رئيس الوزراء للمملكة الليبيية، يوزع على المواطنين المعوزين شهادات ملكية أراضي.
8. تونس، 1963. محيي الدين فكيني رئيس الوزراء للملك إدريس في لقاء مع الرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة، يفخر بما تربطه به من صداقة قديمة.

9. الجزائر، 1963. رئيس الوزراء الليبي محيي الدين فكيني في زيارة رسمية إلى الجزائر يصافح أحمد بن بلة، أول رئيس للجزائر المستقلة.

10. واشنطن، 1963. محيي الدين فكيني، رئيس الوزراء لليبيا، يلتقي بالرئيس الأمريكي جون فيتجرالد كيندي، قبل أسابيع من إغتياله في دالاس.

تكرم بتسليم صور عائلة فكيني المحامي أنور فكيني.

ثبت أسماء الأشخاص

أ

ت

ث

ج

ح

ع

غ

ف

م

الفهرست